اليسار الإسلامى

و

الوحدة الوطنية



حسن حنفى

الدين والثورة

في مصر

١٩٥٢ – ١٩٨١

٨

اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية

دكتور

حسن حنفي

فهرس

ماذا يعني اليسار الإسلامي

١ - الاسم والشعار:

كتابات (اليسار الإسلامي)* استمرار المجلـة (العـروة الوثقى) ولجريدة (المنـار) نظـرا لارتباطهـا بالمشـروع الإسلامي كما حدده الأفغاني: مقاومة الاستعمار والتخلـف، والدعوة إلى الحرية والعدالة الاجتماعية، وتوحيد المسـلمين في الجامعـة الإسـلامية أو الجامعـة الشـرقية. (اليسـار الإسلامي) تكملة إذن لأول مشروع إسلامي فـي تاريخنـا الحديث عبر عن واقع المسـلمين واحتياجـاتهم السياسـية والاجتماعية. لم ينشأ في فراغ، وليس بدعة فـي الحركـات الإسلامية ولو إنه يبدو لأول وهلة كذلك بعد أن خبا مشروع الأفغاني وتناقص وتقلص في جريدة (المنـار) بـل تراجـع أحيانا بعد ذلك في مجلات الوعظ والإرشاد وجرائد الـدعوة إلى سبيل الرشاد، ولكن اسم (العروة الوثقى) يخاطب قلـة

---

* اليسار الإسلامي، العدد الأول، القاهرة، ١٩٨١

من المثقفين على وعي بالحركة الإسلامية الحديثة وليس اسما يخاطب جماهير المسلمين. بالإضافة إلى أن (العروة الوثقى) توحي بالأمة الواحدة والرابطة الدينية العميقة التي تربط الأمة جمعاء، ومع أن ذلك صحيح من حيث المبدأ (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) (٨: ٦٣)، وأيضا (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) (٢٣: ٥٢)، إلا أن (اليسار الإسلامي) يركز على التمايز في الأمة الإسلامية الواحدة بين الأغنياء والفقراء، بين الأقوياء والضعفاء، بين القاهرين والمقهورين، بين من يملكون كل شيء ومن لا يملكون شيئا، بين من يوجدون ومن لا وجود لهم، تمايز بنص القرآن وببداهة المشاهدة. فالأمة لدينا وكما هو الحال أيضا عند الأفغاني أمتان: حكام ومحكومون، قادة وشعوب، علية وسلفة. ولما كانت مأساتنا في وجود الطرف الأول وغياب الطرف الثاني، وسيطرة الطرف الأول واستغلال الطرف الثاني فإن (اليسار الإسلامي) يركز على الطرف الثاني، ويعبر عن الأغلبية الصامتة المقهورة بين جماهير المسلمين، يدافع عن مصالح الناس، يأخذ حقوق الفقراء من الأغنياء، وينصر الضعفاء على الأقوياء، ويجعل

الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح.

كان يمكن تسميتها (المنار الجديد) ولكن الاسم أيضا لا يعلمه إلا المهتمين بالحركات الإصلاحية خاصـة السـلفيين منهم. مع إنه قد يوحي أيضا بمعاني النور والهـدى لعامـة الناس إلا أن (المنار) القديم قد خبت فيه الثورة، وهدأت فيـه روح الأفغاني وتحولت فيه الثورة الإسلامية إلى نمط سلفي، وانتهت حركة الإصلاح الديني إلى ما بدأت منه عنـد ابـن تيمية.

(اليسار الإسلامي) يعود إلى الأفغاني من جديد ويبـث ناره، ويحي رماده، ويبعثه من رقاده، ثـورة فـي العقـول والأذهان، وثورة في الواقع والأعيان.

وكان يمكن تسميتها (صحوة الإسلام) أو (يقظة الإسلام) وكلاهما يدل على صحوة المسلمين ويقظتهم حاليا وهو مـا أصبح موضوع حديث العالم كله شرقا وغربا إلا في العـالم الإسلامي السني باستثناء مجلة (الـدعوة) التـي يصـدرها (الأخوة في الله). ولكن التسميتين ما زالتا تشيران إلى الوعي الإسلامي الذي بدأه الإصلاح الديني والـذي يـود (اليسـار

الإسلامي) تحويله من الوعي الفردي إلى الوعي الاجتماعي، ومن ثورة العقل إلى ثورة الوقع[1] أما أسماء (النهضة الإسلامية) و (البعث الإسلامي) و (الوعي الإسلامي) فإنها تدل كلها على الثورة الداخلية أكثر منها على الثورة الخارجية في حين أن (اليسار الإسلامي) يود إقامة الثورتين معا، أما (قضايا إسلامية) فإنه يشير أيضا إلى مجرد قضايا فكرية تعالج موضوعات نظرية دون أي هدف عملي وهو ما يريد (اليسار الإسلامي) تجاوزه. أما (الإسلام المعاصر) أسوة بمجلة (المسلم المعاصر) فإنه اسم يشير إلى المعاصرة التي قد تكون في الفكر وفي العلم وفي الفن ولكنه لا يشير إلى الثورة أي معاصرة الأحداث الثورية وجعل المسلمين جزءا منها. أما أسماء (الموعظة الحسنة) وغيرها من الأسماء التي تدل على الوعظ والنصح والإرشاد والهداية مثل (الموقف)، (الهدى)، (الفرقان)، (البشير)، (النذير) (البيان)، فكلها دعوات أخلاقية يغلب عليها الطابع الصوفي

---

[1] انظر مقالنا: من الوعي الفردي إلى الوعي الاجتماعي. في المجلد التذكاري المهدى إلى المرحوم الدكتور عثمان أمين، ص ٤١١ – ٤٦٦، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٠.

لا تتجاوز خطب الجمعة وليس بها فكر أو ثورة، ولا تحدث أي أثر في جماهير المسلمين إن لم تحدث أثرا مضـادا فـي التخدير والتسكين والإيهام بالخلاص.

أما أسماء (التقدم الإسلامي) أو (الحركـة الإسـلامية) فإنها تشير ولا شك إلى البعد الثوري في الإسلام، والأصـل كله (ثورة الإسلام) التي تظهر من خلال ثـورة المسـلمين ترجيحا للجانب الأيديولوجي للثورة. صحيح أن ثورة الإسلام لا تظهر إلا من خلال أوضاع المسلمين التي تهيـئ للثـورة ولكن الثورات الإسلامية المعاصرة أرجعت ثوريتهـا إلـى الإسلام وحركته الذاتية، ومع أن الاسـم الأصـلي (ثـورة الإسلام) قد يدل أيضا على ثورة في العقائد أو في الأخـلاق أو في الشرائع والنظام دون تحقيق الثورة في الواقع، ومـع إنه قد يشير إلى مجرد تغيير في الوضع القـائم دون تحديـد لاتجاه الثورة ومسار التغير ومع إنه اسم يقبله جميع النـاس ويتفق مع هدف إقامة وحدة وطنية بين التيارات الإسـلامية والثورية، لا يخشاه المثقفون الوطنيون، إلا إنه قد يكون اسما خطابيا إعلاميا، لا يخاطب العقل، ولا يتحـدد بـالعلم، ولا

يشير إلى شيء محدد ولكنه أقرب إلى العامة، ويخاطب كـل الناس، ويرضى عنه الجميع.[1]

---

[1] بعد الاستقرار على اسم (اليسار الإسلامي) بالرغم من كل الاعتراضات المذكورة حوله والاستعداد للدخول في معارك فكرية دفاعا عن الاسـم في مواجهة مخاطره واستعداد لتحمل خسائره من أجل تطهير الألفـاظ في ثقافتنا الوطنية حدث أثناء زيارتي إلى أفغانسـتان والجمهوريـات الإسلامية بالاتحاد السوفيتي أن الاسم لم يثر شيئا في أذهان المسلمين. فبالرغم من وجود ثورة بأفغانستان تنتسب إلـى أيديولوجيـة الطبقـة العاملة إلا أنني أدركت أن لفـظ اليسـار لا يثيـر الأذهـان إلا فـي المجتمعات الليبرالية التي تعي معركة الأفكار والصراع بـين اليسـار واليمين على إنه مظهر من مظاهر حرية الفكر والحياة الديمقراطيـة، ولا يثير شيئا في المجتمعات المتخلفة التي تحولت من الإقطـاع إلـى الثورة دون أن تمر بمرحلة ليبرالية تنويرية. كما لم يثر الاسـم شـيئا لدى مسلمي الاتحاد السوفيتي لأنهم سلفيون أهل سـنة، ولا يعرفـون استحداث الألفاظ، ولا تخاطب أذهانهم إلا آيـات القـرآن والأحاديـث النبوية. بل إن لفظ الإسلام كان يثيرهم أكثر مهما كان يفعل لفظ (ثورة) لذلك آثرت (ثورة الإسلام) ولكن بعد مدة، وبعد العودة إلى مصر التي تتمتع بتراث ليبرالي طويل منذ القرن الماضي عاد (اليسار الإسلامي) من جديد واضعا نفسه كمفهوم علمي مستقر في العلوم الإنسانية ومعبرا

وقد فرض اسم (اليسار الإسلامي) نفسه إلى حين، فهو الاسم الذي يدل على التيار الذي تمثله هذه الكتابـات، وهـو اسم علمي، فاليسار مصـطلح فـي علـم السياسـة يعنـي المعارضة والنقد وبيان المسافة بين الواقع والمثـال. وهـو أيضا مصطلح في العلوم الإنسانية بوجه عام. فهناك اليسـار الفرويدي في علم النفس، واليسار الهيجلـي فـي الفلسـفة، واليسار الديني في علم تاريخ الأديان. فهو لفظ علمي وليس له أي مدلول سياسي بمعنـى الإثـارة الحزبيـة، وتهيـيج الجماهير، هذا بالإضافة إلى إنه يطابق واقع المسلمين الـذين تنقسم حياتهم بين حكام ومحكومين، أمراء وشعوب، أغنيـاء وفقراء، واليسـار الإسـلامي يأخـذ صـف المحكـومين والمضطهدين والفقراء والمعذبين وبالتالي فهو يمثل اليسـار بالمعنى العلمي.

ولكننا نعلم أن الاعتراض سيأتي من فـريقين. سـيقول (الأخوة في الله) أن الإسلام ليس به يسار ويمـين بـل هـو

عن المضمون الفكري لهذه الكتابات بالرغم من جميـع الاعتراضـات عليه والتساؤلات حوله.

إسلام واحد وأمة واحدة والله واحد[٣] وهو اعتراض ينصـب على المبدأ ولا ينصب على الواقع أي على الإسلام من حيث هو عقيدة وليس واقع المسلمين من حيـث هـم مجتمعـات ودول، وطبقات وملاك. ونحن لا نتحدث عن الإسـلام بـل نتحدث عن المسلمين في واقع تاريخي محـدد وفـي نظـم اجتماعية محددة. وما دمنا في التاريخ والزمان فـنحن فـي ميدان الصراع والحركة وتعارض المصالح وصراع القـوى وتفاوت الدخول. وعلى هذا المستوى هناك يسـار ويمـين. ومع ذلك فالتصورات المختلفة للعقائد كمـا مثلتهـا الفـرق الإسلامية بها يسار ويمين على ما يثبته علم اجتماع المعرفة، فالمعتزلة يسار والأشاعرة يمين، والفلسفة بها يسار ويمـين، فالفلسفة العقلانية الطبيعية عند ابن رشـد يسـار، والفلسـفة الإشراقية الفيضية عند الفارابي وابن سينا يمين، والتشريع به يسار ويمين، فالملكية التي تقوم على المصالح المرسلة يسار، والفقه الافتراضي عند الحنفية يمين. وفي التفسير، التفسـير بالمعقول يسار والتفسير بالمأثور يمين، وفي التـاريخ فـي

---

(٣) د. عماد الدين خليل: لعبة اليمين واليسـار، دار الاعتصـام، القـاهرة ١٩٧٧.

الفتنة الكبرى، علي يسار ومعاوية يمـين، والحسـين سـيد الشهداء يسار ويزيد والأمويون يمين[٤] وسيقول دعاة القانون والنظام في كل عصر الذين يرفضون التغير نحو الأفضـل إبقاء على الأوضاع القائمة بما فيهـا مـن تسـلط سياسـي وسيطرة اقتصادية وأوضاع طبقية أنها لعبة اليمين واليسـار لتفريق الأمة وبث الفرقة وإضمار الضغائن وإثـارة الفـتن، فاليسار خائن كافر، ملحد عميل، دموي زنـديق، حقـود لا يحب الخير للناس، والحقيقة أن ذلك أثر من آثار الاسـتعمار الثقافي فـي بـلاد المسـلمين حـين أراد تشـويه الألفـاظ والمصطلحات والأفكار عمدا حتى لا يقترب منها أحد مثـل الحرية، والديمقراطية، والشعب، والصراع.. الـخ. ومنهـا اليسار حتى يأمن الاستعمار أية تحركات شعبية أو حركـات اجتماعية تنادي بالتحرر مـن الاسـتعمار والقضـاء علـى الاستغلال، وهو ضامن لدخول الحيلة على (الأخوة فـي الله)

---

(٤) أحمد عباس صالح: اليمين واليسار في الإسـلام. المؤسسـة العربيـة للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢،

د. محمود إسماعيل : الحركات السرية في الإسلام، روزاليوسف، القاهرة ١٩٧٣.

نظرا لما يرى فيهم من حمية للدين وكراهية لأعداء الدين!

ونحن نعلم أن إصرارنا على اسم (اليسار الإسلامي) قد يفقدنا المضمون من أجل الشكل خاصة وأنه لا مشاحة في الألفاظ سواء (باسم الله) أو (باسمك اللهم) ومع تشويه عن عمد جزء من الدفاع عن ثقافتنا القومية ضد الاستعمار الثقافي والتعصب الأعمى، وقد قامت كثير من الحركات الفكرية في التاريخ بفضل الاسم، وارتبطت المذاهب الفكرية ارتباطا وثيقا بأسماء معنية لا يمكن استبدالها، وقد علم الله آدم الأسماء كلها حرصا على الاسم. وأمامنا حاليا الصهيونية التي ترفض حتى أن تسكن في مكان عليه اسم فلسطين أو فوقه علم فلسطين أو به منظمة تحمل اسم فلسطين. والله نفسه له أسماء حسنى[5]

---

[5] كان الرأي قد استقر على اسم (ثورة الإسلام) بعد أخذ الاعتراضات على اسم (اليسار الإسلامي) مأخذ الجد ولكن في عزاء لأحد الأقرباء جاء ذكر الوضع الحالي والأزمة الاقتصادية والفساد والانحراف والناس تسمع القرآن. وجاء ذكر خطباء المساجد الذين يستولون على مشاعر الجماهير بالآلاف، كما جاء ذكر المدح والثناء على الحكام واختفاء المعارضة، وهنا صاح أحد المعزين بجلباب أزرق: نريد (اليسار الإسلامي) وهنا أدركت مدى تعبير الاسم عن واقع المسلمين

وكان لابد لنا من شعار، وكان أمامنـا خيـاران: الأول شعارات علمانية صرفة مثل (يا مسلمي العالم اتحدوا) وآيات قرآنية تحث المسلمين على أخذ مصائرهم بأيـديهم والـدفاع عن مصالحهم، وكان الخيار للآية القرآنية أقرب إلى التـأثير في نفوس جماهير الأمة. وكان أمامنا نوعان مـن الآيـات: آيات الكتاب الحق والهدي مثل: (هذا كتابنا ينطـق علـيكم بالحق) (٤٥: ٢٩). فلنلتجئ هنا إلـى المنقـول و (اليسـار الإسلامي) اتجاه عقلاني يعتمد على المعقول. أو (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع) (١٠: ٣٥) والهداية علمناهـا فـي حركاتنا الإصلاحية الأخيرة، و (اليسار الإسـلامي) يريـد

ومدى قبول الشعب له وإن الاسم لا ينفر أحد ولا يخيف إنساناً. وحين سألته هل يرضى بكتابات إسلامية تأخذ حقوق الفقراء والمضـطهدين تحمل هذا الاسم وهنا هب الحاضرون يعبرون عـن تزييـف الـوعي القومي يعلنون أن اليسار مرفوض وأن المعارضة الإسلامية أفضـل، ويعبر آخر عن اتجاه (الأخوة في الله) متسائلا: وهل في الإسلام يسار ويمين؟ وهنا أدركت أهمية تطهير الثقافة الوطنية مـن زيفهـا وبقايـا الاستعمار الثقافي والتعصب الديني، وأن الشعب قادر على الدفاع عـن الاسم الذي يعبر عن طبيعته ومصالحه، ولئن يهدي الله إليـك رجـلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها.

تجاوز الهداية اللادنية إلى تغيير الواقع الفعلي بفعل جمـاهير المسلمين. وكان أمامنا آيات الجهاد مثل (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) (٤: ٩٥) أو (فضـل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) (٤: ٩٥) ولكنهـا أصبحت ضمن شعارات الثورة الإسلامية الكبرى في إيران، الذي يحز في أنفسنا هو أن خير أمة أخرجت للناس تنتهـي إلى مثل ما انتهت إليه من استعمار وتخلف، ونحن لدينا كـل مقومات الأمة فكرا ومادة، وحياة وثروة، وعـددا وأرضـا، ومع ذلك نجد أنفسنا مستضعفين في الأرض، مغلوبين علـى أمرنا، لا دور لنا في التاريخ بعد أن كنا صـناع حضـارة، ومعلمي البشرية، ومصدر العلم والعرفان، لذلك آثرنا الآيـة الكريمة (ونريد أن نمن على الذين استضـعفوا فـي الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) (٢٨: ٥). فالاستضعاف في الأرض حافزنا على الثورة، ووراثة الأرض وإمامتهـا هـو أملنا وغايتنا.

٢- السبب والتوقيت:

وقد حان ظهور (اليسار الإسلامي) بعد أن حققت بعض مناهج تحديث مجتمعاتنا في عدة أجيال ماضية منذ أكثر من

قرنين من الزمان نجاحا نسبيا بينما فشل البعض الآخر خاصة فيما يتعلق بمواجهة التخلف والقضاء على مظاهره.

أولا: الاتجاهات الدينية التي قدر لها أن تصل للحكم حولت الإسلام إلى شعائر وطقوس، وعقائد وأخرويات في حين أن الواقع الإسلامي ظل مخالفا لنظم الإسلام وكأن الإسلام الشعائري المظهري ما هو إلا ستار يخفي موالاة الغرب والإقطاع العائلي ورأسمالية العشيرة. أما الاتجاهات الدينية الأخرى التي لم تصل إلى الحكم بالرغم من سعيها لذلك فقد غلبها التعصب وضيق الأفق وتكفير الاتجاهات التحديثية الأخرى، تسعي إلى السلطة وتمارس جدل الكل أو لا شيء. كما يغلب عليها النظرة الإلهية والتصور المركزي والهرمي للكون، وتغيب منها النظرة الإنسانية وتصور التاريخ وحركة المجتمعات.

ثانيا: الاتجاهات الليبرالية التي قدر لها أن تحكم قبل الثورات العربية الأخيرة كانت موالية أيضا للغرب كثقافة وإن عادته كاستعمار، وكانت تقوم على أكتاف الطبقات العليا التي كانت تسيطر على موارد البلاد، فوقعنا في التغريب ثقافة، وكنا ضحية الاستغلال والاحتكار اقتصادا، وظلت

جماهير المسلمين خارج الساحة لا تظهر إلا في لحظات الثورات الوطنية.

ثالثا: الاتجاهات الغربية الماركسية أرادت أن تقيم نظاما يحقق العدالة الاجتماعية ويناهض الاستعمار ولكنه لم يحقق الحرية لجماهير المسلمين ولم يطور تراثهم بحيث يكون ضمانا لتحقيق أهدافهم في الاستقلال الوطني، وقد وقع البعض منها في تبعية للقوى الكبرى المماثلة، وانزوت عن باقي جماهير المسلمين حتى ناصبته العداء. تبغي أمنها، وتبحث عن استقرارها، وتتحفز على معارضيها، وأصبح همها البقاء والاستقرار.

رابعا: الاتجاهات الوطنية الثورية الأخيرة التي أحدثت تغييرات جذرية في أبنية مجتمعاتنا السياسية والاقتصادية ولكنها سرعان ما انحسرت، وانقلب البعض منها إلى ثورة مضادة، ولم يؤثر غالبيتها في وعي الجماهير، وظلت على مستوى الشعار. بل ازداد الواقع الإسلامي تأزما، وظهرت طبقات متوسطة تقوم بدور مجتمع النصف في المائة دون أن تعي دورها في التحديث، بل وتعارض أي مناهج تحديثية أكثر جذرية وتحاول تغيير الواقع الفعلي وتعطي للشعارات

مضامينها الفعلية[٦] يأتي (اليسار الإسلامي) كي يحقق أهداف الثورات الوطنية ومبادئ الثورة الاشتراكية وذلك من خـلال تراث الأمة واعتمادا على وعي الجماهير الإسلامية وبالتالي تتحقق أهداف حركاتنا الثورية الأخيرة دون مثالبها وأوجـه نقصها.

و (اليسار الإسلامي) أيضا نتيجة حتمية لنجاح الثـورة الإسلامية الكبرى في إيران أمام دهشة العالم أجمـع، كيـف استطاعت الجماهير الإسلامية الوقوف أمـام أعتـى الـنظم العسكرية البوليسية وإسقاط نظام الشاه باسم الإسلام وبقـوة (الله أكبر قاصم الجبـارين) وتحـت شـعار (وفضـل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيمـا) (٤: ٩٥). وبـدت كأنها نموذج آخر للثورة فـي مقابـل الثـورتين الكبـريين الفرنسية والبلشفية، وأصبحت نموذجا لما تكون عليه ثـورة العقائد في أواخر القرن الرابع عشر. و(اليسار الإسـلامي) كذلك نتيجة لتحركات المسلمين فـي أفغانسـتان والملايـو

(٦) أنظر مقالنا: نشأة الاتجاهات المحافظة في وطننا العربي الراهن، قضايا عربية، يناير ١٩٨٠ – وأيضا التراث والتجديد، موافقنا مـن التـراث القديم، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة، ١٩٨٠.

والفلبين وباكستان، ونتيجة لثورة الجزائر حيث ظهر الإسلام كتراث وطني للبلاد يحفظ للمسلمين أصالتهم، ويبقـي علـى هويتهم، ويدافع عن مصالحهم، ويحرك الجماهير الإسـلامية في كل مكان[٧].

و (اليسار الإسلامي) درع جديد للإسلام وحصن منيـع للمسلمين ضد محاولات الاستعمار الأخيرة لاحتواء ثـورات المسلمين وجعله الإسلام عقيدته الاستراتيجية يحتويها قبل أن تحتويه. تبدو ثورة الإسلام الآن كأنها الخطر الأكبـر علـى القوى العظمى. فقد تتحرك جماهير المسلمين فـي روسـيا والصين إذا ما كشفت ولائها فـي العمـق، وهـو الـولاء الحضاري الذي يجب كل ولاء سياسي. وقد تتحرك الجماهير في جنوب شرقي آسيا التي حاصرها الاستعمار وأراد النيـل من إسلامها بعد أن اكتشف فيه الضمان الأول والأخير ضد عمليات التغريب ومحاولات التبشير وهجمـات الاسـتعمار، والعجيب أن يقبل الاتحاد السوفيتي التعامل مع الشاه، ويرى

---

[٧] أنظر طبعتنا لكتاب الإمام الخميني: الحكومـة الإسـلامية، المقدمـة، القاهرة، ١٩٧٩، وكذلك كتابه الثاني (جهاد النفس أو الجهـاد الأكبـر) المقدمة، القاهرة ١٩٨٠.

في الثورة الإسلامية الكبرى في إيران خطرا جاثمـا عليـه، ويغزو أفغانستان، وكما بدأ الاستعمار في النيل مـن العـالم الإسلامي من أطرافه بالالتفاف حوله بعد أن فشل في ضرب وسطه إبان الحرب الصليبية بدأ الدم يسري في هذه الأطراف من جديد، ودبت الحياة فيها تبعث في القلب ذاته، ولما أحس الاستعمار بثورة الإسلام أراد احتوائها، فتخلى عـن الشـاه، وتعامل مع الثورة الإسلامية العظمى في إيـران، وخاطـب ودها، بل ودع رؤساء الكنائس في جنوب شرقي آسيا الدول هناك إلى احترام المسلمين والاعتراف بحقـوقهم، وتعظـيم دينهم، والاستجابة إلى مطالبهم، وتأييد ثورتهم، ومن يـدري فلربما خصص مركز الاستخبارات الأمريكي قسما خاصـا منه لاحتواء ثورات الإسلام المعاصرة واللعب على الإسلام ضد الشيوعية، وقد آن الأوان للتحذير مـن عـداء الشـرق والغرب معا لثورة الإسلام وإن أظهرا العكـس، وأن هـذه الثورة ستكون القوة الحقيقية أمام القوتين العظميين. و(اليسار الإسلامي) هو أيديولوجية هذه الثورة للمسلمين.

و(اليسار الإسلامي) أيضا تطوير الإصلاح الديني الذي بدأناه في المائتي سنة الأخيرة ليس فقط على مستوى مواجهة

مخاطر العصر: الاستعمار والإقطاع والرأسمالية والتخلف الاجتماعي والقهر السياسي كما هو الحال عند الأفغاني بل أيضا على مستوى إعادة بناء الفكر الديني الإصلاحي ذاته، فلأول مرة منذ ابن رشد في الفلسفة، والمعتزلة في أصول الدين، والشاطبي في أصول الفقه، وابن خلدون في التاريخ، وابن تيمية في الفقه تعاد صياغة الفكر الديني، فابتدأنا البعد عن الأشاعرة، الفكر الديني الرسمي الذي ازدوج من التصوف وأصبح أساسا للسلطوية في تصورنا للعالم والتسلطية في أنظمتنا للحكم والسلبية في سلوك جماهيرنا التي تنتظر المدد والعون والإلهام من السماء[٨] ونقترب من المعتزلة عند محمد عبده معلنا قدرة العقل على الإدراك واستقلال الإرادة في السلوك. فأصبح الإنسان قادرا بعقله على المعرفة، وقادرا بإرادته على الفعل، ونستمر فيما بدأه الكواكبي في البحث عن أسباب الفتور بين المسلمين من أجل تجنيدهم والبحث عن طبائع الاستبداد من أجل تحرير المسلمين، ونحن نرث أيضا محمد إقبال ومحاولاته في

---

[٨] أنظر مقالنا (الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديمقراطية في وجداننا المعاصر) المستقبل العربي، يناير ١٩٧٩.

(تجديد الفكر الديني في الإسلام) والبحـث عـن عناصـر الحركة في الإسلام في الاجتهاد والتجربـة والكشـف عـن الذاتية حتى يصبح كل مسلم فردا، وبناء حضـارة الأمـة، وتحدي الحضارة الغربية ونقدها وبيان حـدودها ومظـاهر قوتها وضعفها، وإعادة الحياة والفعل للتوحيد كما يقول إقبال.

قوة كان في الحياة على الأرض فأصبح التوحيد علم الكـلام
رده في الفعـال غير مضـيء جهلنا اليوم مالنا من مقـام
قائد الجيش! قد رأيت عمـودا من (هو الله) ما بها من حسام
ما درى الشيخ أن توحيد فكـر دون فعل يعـد لغو كـلام
يا إمامـا لركعة كيف تـدري في الورى ما إمامة الأقـوام

كما ينتسب إلى المفكـر الإسـلامي الثـوري (علـي شريعتي) ومحاولاته لبناء الذات الثورية والذي فجر الثـورة الإسلامية الكبرى في إيران تحت قيادة الإمام الخميني[٩] كما أن (اليسار الإسلامي) ينتسـب إلـى الحركـات الإسـلامية المعاصرة: السنوسية، وثورة عمر المختار في ليبيا، والمهدية بالسودان، ورابطة العلماء الجزائـريين بـالجزائر، وثـورة الريف بالمغرب، وعبد الحميد بن بـاديس، وعبـد الكـريم الخطابي، والشهيد حسن البنا وسيد قطب، والشهيد عبد القادر

---

[٩] أنظر د. إبراهيم شتا: الثورة الإيرانية. الجذور والأيديولوجية.

عودة، يجمع بين ثورة الواقع ضد الاستعمار وثـورة الفكـر ضد التخلف. (اليسار الإسلامي) استئناف للحركات الإسلامية الثورية المعاصرة وتنظير لها.

وإن نهاية القرن الرابع عشر وبداية القـرن الخـامس عشر لحدث يعاصره جيلنا ويدفعنا إلى التفكير في التـاريخ، في الماضي والحاضر والمستقبل. و (اليسـار الإسـلامي) مساهمة في هذا الحدث، ومحاولة لنقل المسلمين من قرن إلى قرن، ومن مرحلة إلى مرحلة، من التخلف إلى التقدم، ومـن الاستعمار إلى التحرر، ومن استغلال الموارد ونهبهـا إلـى سيطرة جماهير المسلمين عليها، ومن الإقطـاع العشـائري ورأسمالية الطبقات المتوسطة إلى اشتراكية جماهير الأمـة، ومن القهر والتسلط إلى الحرية والديمقراطية. إن بداية القرن الخامس عشر لتحمل دلالة جديدة بالنسبة للمسـلمين، وهـو دخولهم في حركة التاريخ بعد الثورة الإسلامية الكبرى فـي إيران وإثبات جماهير المسلمين لنفسـها، وأخـذها حقوقهـا بأيديها. وفي نفس الوقت تكمن ثروات المسلمين فـي أيـدي الأغنياء. فإذا ما حصل المسلمون على الثورة والثروة فـإن العالم يكون لهم، حينئذ، لا يمن الله على الذين استضعفوا في

الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين. وقد يكون من بيننا مجدد القرن الخامس عشر طبقا لحـديث المجـددين (إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها).

٢- إحياء تراثنا القديم:

ويتأصل (اليسار الإسلامي) في الجوانب الثوريـة فـي تراثنا القديم، وبالتالي تكون مهمته إحيـاء هـذه الجوانـب وإبرازها وتطويرها وتصفية ما دونها حتى تتأصـل ثـورة المسلمين وتزول عقبات تقدمهم. يجمع تراثنا ثلاثة أنواع من العلوم: العلوم النقلية العقلية مثل علم أصـول الـدين وعلـم أصول الفقه وعلوم الحكمة وعلوم التصوف، والعلوم العقلية وحدها مثل علوم الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والطب والصيدلة والإحياء، والعلوم النقلية وحدها مثل علوم القـرآن والحديث والسيرة والفقه والتفسير.

ففي علم أصول الدين (اليسار الإسلامي) تيار اعتزالي في الفكر الديني يرى أن المعتزلة كانت تمثل ثـورة العقـل وعالم الطبيعة وحرية الإنسان، وأن التوحيد أقرب إلى المبدأ العقلي الخالص من الكائن الحي المشـخص كمـا تصـوره الأشاعرة، وأن التنزيه يعبر عن طبيعة العقـل أكثـر مـن

التشبيه، وأن التوحيد بين الذات والصفات أقرب إلى العدالة من التمييز بينهما. كما يرى أن الإنسان حر مسئول صاحب أفعاله، له استطاعة قبل الفعل ومع الفعل. ويرى أن العقل يحسن ويقبح، وأن الحسن والقبح ذاتيان في الشيء قائمان بالأفعال، وأن العالم يسير نحو غاية، ويتبع قانون الصلاح والأصلح، وأن الجزاء قدر الأعمال، وأن الإيمان يقرن بالعمل، وأن إمامة المسلمين بالاختيار، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على المسلمين.

يتفق (اليسار الإسلامي) إذن مع أصول المعتزلة الخمسة، لذلك يحاول إحياء التراث الاعتزالي بعد أن تم القضاء عليه منذ القرن الخامس الهجري، منذ هجوم الغزالي على العلوم العقلية وسيادة التصوف وازدواجه مع الأشعرية حتى حركاتنا الإصلاحية الأخيرة ووضع بدائل جديدة أمام الأشعرية السائدة. فنضع الاعتزال ونحن ندعو إلى العقلانية والحرية والسيادة على الطبيعة والديمقراطية. كما نضع الخوارج ونحن ندعو لثورة المسلمين وعدم التفريط في نيل حقوقهم واستعادة ثرواتهم، وندعو إلى أن العمل شرط الإيمان حتى يعمل المسلمون ويتحقق نداء الإصلاح (ما أكثر

القول وأقل العمل)[١٠] وندعو إلى المساواة وأنـه لا فضـل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، ونضع الشيعة أيضـا فقـد حاورهم أهل السنة بالرغم من أننا لم نعرف عقائدها إلا من خلال كتب أهل السنة التي لم تكـن مجـردة عـن الهـوى والتعصب، ونعيد فهمنا لهم بعد أن قاموا بالثورة الإسـلامية الكبرى في إيران ودعوا إلـى إثبـات الهويـة الإسـلامية ومقاومتهم الاسـتعمار والصـهيونية ورفضـهم التغريـب والعلمانية. واقتربوا من أهل السنة وتركوا المغالاة القديمـة في عقائد الشيعة[١١] نضع أمام العقل الإسلامي كل البـدائل حتى أبعدها كما كنا نفعل قديما في عصرنا الذهبي في القرن الرابع الهجري حتى لا تظل الأشـعرية مفروضـة علينـا تاريخيا أكثر من تسعة قرون وواقعيا حتى الآن كأنهـا هـي الفكر الديني الوحيد في تراثنا وكأن التخاف الذي سادنا منـذ

---

[١٠] تاريخ الأستاذ الإمام، الجزء الثاني ص ٩٨- ١٠٣.

[١١] انظر مقدمتنا لكتاب الإمام الخميني: الحكومـة الإسـلامية، القـاهرة ١٩٧٩، وكذلك مقدمتنا لكتاب (جهاد النفس أو الجهاد الأكبر) القـاهرة ١٩٨٠.

القرن السابع الهجري حتى الآن ليس هو المسئول عن هـذه السيادة للفكر الأشعري حتى أصبح فكرنـا الـديني أحـادي الطرف تتمثله السلطة السياسية. فأي خروج عليه هو خروج على النظام، كفر وإلحاد، عمالة وخيانة.

(اليسار الإسلامي) إذن اتجاه اعتزالي في العقيدة بـل إنه ينتسب إلى أصحاب الطبائع معمر بن عباد، وثمامة بـن الأشرس، والجاحظ، والنظـام الـذين ردوا إلـى الطبيعـة اعتبارها، وأثبتوا قوانينها، وجعلوا الأعراض فيها لا تنفـك عن جواهرها لأن ما يعيب عصرنا إنكار الطبيعة، وإدانتها، وخرق قوانينها، وجعلها مطية للقـوى الخارجيـة، ننتظـر المعجزات ونتلمس خوارق العادات.

(اليسار الإسلامي) اتجاه اعتزالي. جذري وليس اتجاها اعتزاليا تشوبه الأشعرية سـواء عنـد المعتزلـة الأوائـل (البغداديون) أو عند المعتزلة الأواخر (الماتريديـة)، يـرد للمعتزلة اعتبارها التاريخي. ويرفع عنهم تهم الكفر والإلحاد.

و(اليسار الإسلامي) اتجاه مالكي في الفقـه والأصـول وذلك لأن ما نوعد إليه من مصالح مرسلة ودفاع عن مصالح المسلمين قد أكدته المالكية التي خرجت مـن عبـد الله بـن

مسعود الذي خرج بدوره من عمـر بـن الخطـاب إمـام المجتهدين والمدافع عن مصالح المسلمين والعارف بها حتى قبل نزول الوحي ثم يأتي الوحي لتصـديق رؤيتـه للواقـع الإسلامي. ليس (اليسار الإسلامي) مدرسة فقهية جديدة بـل يعيد الاختيار بين المدارس الفقهية القديمة فيرى أن المالكيـة أقرب إلى الواقع، وتستطيع أن تعطي مجتهد اليوم جرأة على التشريع دفاعا عن مصالح الناس دون الفقه الحنفـي الـذي غلبت على بعض جوانبه المسائل الافتراضية، ودون الفقـه الشافعي الذي عليه أهل مصر؛ لأنه محاولـة للجمـع بـين المالكية والحنفية، بين أهل الحجاز وأهل العـراق، فنصـفه مالكي – (واليسار الإسلامي) يذهب إلى الأصـل ذاتـه أي المالكية ذاتها – ودون الفقه الحنبلي الذي ارتـبط بالأصـول الأولى معتمدا على قوتها ونحن أقرب إلى إسـاءة اسـتعمال النصوص في غير مواضعها، ولا نحسن تخريج مناطهـا أو تنقيحه، ومع ذلك لا يفرق (اليسار الإسلامي) بـين مـذهب فقهي ومذهب آخر، ونحن نجتهد، فهم رجال ونحن رجـال، جرأتنا على الواقع ودفاعنا عن مصـالح المسـلمين أسـوة بمالك، واعتزازنا بالعقل والاستدلال أسـوة بـأبي حنيفـة،

وجمعنا بين العقل والواقـع أسـوة بالشـافعي، وارتباطنـا بالأصول أسوة بأحمد بن حنبل، نرى في النص بداهة العقل ورؤية الواقع.

مهمة (اليسار الإسلامي) أيضا إعادة النظر فـي كـل التشريعات الموروثة. فما كان في الكتاب والسنة الصـحيحة قبلناه؛ لأن الشرع يقوم على المصلحة، وقبوله هو قبول لمبدأ المصلحة، وما سوى ذلك اجتهدنا فيه. فإجماع كل عصر قد لا يكون ملزما للعصر الذي يليه نظـرا لتجـدد الظـروف والأصول، وإجماع كل عصر ملزم لعصره فقط، والاجتهـاد مفتوح في كل العصور. إننا في قضايانا الشرعية خاصة في قانون الأحوال الشخصية نرجح القانون علـى الواقـع، ولا نحكم بالمصلحة وهي أساس التشريع. ومن هنا كان التزامنا بمالك بن أنس وبمبدأ المصلحة كأساس لنصـوص القـرآن والحديث ولإجماع الأمة واجتهاد الفقهاء، نجعـل الاجتهـاد، وهو الأصل الرابع، أصلا أولا يلحق بالأصل الأول. وهـو القرآن (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق). (٤٥: ٢٩).

و (اليسار الإسلامي) اتجاه رشدي في الفلسفة لأن ابـن رشد هو الفيلسوف الذي لم يساوم على العقـل مـن أجـل

الإشراق كما نفعل نحن في أيامنا هذه، ولم يستسـلم لخـرق قوانين الطبيعة من أجل إثبات قوى خارجية كما يحدث فـي جيلنا هذا، لقد بدأت الفلسفة القديمة عند الكندي عقلية علميـة ترى الفلسفة أساس الدين، تسيطر علـى قـوانين الطبيعـة وتسخرها لمصلحة الإنسـان، فنشـأت الاتجاهـات العقليـة والعلمية والطبيعية وهي أساس نهضة المجتمعـات، ولكـن لسوء الحظ تحولت الفلسفة إلى إشراقية طوباوية عنـد ابـن سينا والفارابي، وأصبح العقل قاصـرا عـن إدراك حقـائق الأمور، يحتاج إلى مدد من السماء وإلى الاتصـال بالعقـل الفعال، وأصبح الوحيد القادر على ذلك هو الـرئيس الملهـم الذي يطيعه باقي الناس وينفذون أوامره. وتم تقسيم العالم إلى قسمين: ما فوق فلك القمر وما تحت فلك القمر وللأول سلطة على الثاني، وكل شيء يحدث على الأرض تحـدده دورات الأفلاك وحركات النجوم، وتمت قسمة الإنسان أيضـا إلـى قسمين: بدن فان موضوع الطبيعيات وروح خالد موضـوع الإلهيات، وضاعت وحدة الإنسان الحي الواقعي في العـالم، ومشاكلنا نحن، مشـاكل الغـذاء والإسـكان والمواصـلات والأمراض والنظافة والكساء تأتي كلها من البـدن الفـاني،

وكسلنا وتواكلنا ورضانا وعزاؤنا كل ذلك يأتي من الـروح الخالد. أصبحت الفضائل النظرية أعلى وأشرف من الفضائل العملية، فالتأمل والنظر أفضل من العمل والإنتاج وهـو مـا نشكو منه في مناهج تعليمنا ومن تحرجنا من المدارس الفنية والمعاهد العملية وعدم تقديرنا للعمل اليدوي. ضاعت الفلسفة في سبيل التصوف عند الفارابي وابن سينا حتى أتى ابن رشد وأعاد إلى العقل مكانته وإلى الطبيعة استقلالها، وهاجم علـم الأشعرية وعلوم التصوف ولكنه كان صحوة مؤقتة لم تتلهـا يقظة دائمة، ولم تستمر محاولتـه فـي إيجـاد بـديل لعلـم الأشعرية، وظل وعينا الحضاري أحادي الطـرف، نمطـي الاتجاه. ومازلنا في جيلنا هذا نكفر ابن رشد! وهنـا يـأتي (اليسار الإسلامي) ليربط نفسه بالتيار العقلي العلمـي فـي الفلسفة الإسلامية الذي بدأه الكندي وسار فيه ابن رشد.

ويرفض (اليسار الإسلامي) التصوف ويعاديه ويرى أنه أحد أسباب انحطاط المسلمين كما لاحظ ابن تيمية والكواكبي والإمام الخميني عندما سماهم بالمتقدسين. فقد نشأ التصـوف كحركة سلبية ضد تيـار البـذخ والتكالـب علـى السـلطة والصراع على الدنيا بعد أن فشلت المقاومة الفعلية من فرق

المعارضة من أئمة آل البيت ابتداء من علي والحسين سـيد الشهداء، فلما استتب الأمر للدولة الأموية وتم استشهاد آلاف من المسلمين بقيادة الأئمة والصـحابة رفـض المخلصـون الانغماس في الدنيا التي سببت الفرقة وسالت دماء المسلمين بسببها، فتركوا العالم لمن يريده، وتركوا الدنيا بمن فيها على من فيها، وحاولوا إنقاذ النفس إن لم يستطيعوا إنقاذ الآخرين، وأبقوا على نقاء الروح الباطنية إن لم يسـتطيعوا المحافظـة على النظام الشرعي في العالم الخارجي. فتحـول الإسـلام لديهم من حركة أفقية في التاريخ إلى حركة رأسـية خـارج العالم، وبدل أن يكون الإسلام غاية في التاريخ أصبح غايـة خارج التاريخ، وبدل أن يكـون الإسـلام شـريعة ينفـذها المسلمون جميعا أصبح حقيقة لأصحاب الطرق وحدهم، وقد انقسم هذا الطريق إلى ثلاث مراحل: الأولى: الأخلاق التـي تظهر في القيم السلبية مثـل الزهـد والفقـر ومـا سـمي المقاومات، والثانية: مرحلة النفس التي يتحول فيها الصراع الخارجي إلى صراع داخلي بـين الأحـوال مثـل الخـوف والرجاء، الصحو والسكر، الغيبة والحضور... الخ، والثالثة: مرحلة الفناء والاتحاد بالله عن طريق الخيال والوهم وهنـا

ينتهي الطريق الصوفي، والعالم باق لم يتغير وكأن النصر قد تم والدولة الإسلامية قد قامت، أما حالنا اليوم فإن الأمر يختلف تماما. فالمقاومة ليست أمرا ميئوسا منه، وأغلبنا من القاعدين الذين فضل الله عليهم المجاهدين، وإنقاذ النفس دون الآخر أنانية وتخلي عن الرسالة، وخلاص النفس دون العالم عجز وهروب. والمسلمون اليوم جزء من حركة التاريخ ونضال الشعوب. كما أننا نعاني من القيم السلبية مثل الفقر والخوف والجوع فكلنا فقراء وخائفون وجياع، أزمتنا الفقر، وبليتنا الخوف، ولا أمان لنا من الجوع، وليس لدينا ما نزهد فيه. والصبر جعلنا ساكنين في كل شيء، والرضا جعلنا راضين بكل شيء، والتوكل جعلنا نترك التخطيط والإعداد للمستقبل. أما الفناء والاتحاد فقد أغرقنا في الخيال، فعشنا عالما من الأماني والمنى والأحلام، نرى أننا خير أمة أخرجت للناس، وأننا أزهى حضارة ظهرت في التاريخ، وأننا أفضل شعوب الأرض قاطبة. والواقع مختلف تماما فلا نحن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر حتى نكون خير أمة، ونحن أمة يحتل أرضها الأجنبي، وينهب ثروتها الملوك والأمراء. إن الفناء يعني الفناء في العمل والتضحية في سبيل

الرسالة، والاتحاد يعني تطبيق شريعة الله، وحكم الله، وتحويل الوحي إلى نظام للعالم بالفعل وبالجهد ومن خلال حركة المسلمين في التاريخ.

ويجد (اليسار الإسلامي) مصادره أيضا في العلوم العقلية الخالصة في تراثنا القديم، فقد قامت هذه العلوم بفضل العقل، واستطاع التنزيه أن يعطي العقل دافعا نحو اللانهائي، فاكتشف القدماء كثيرا من النظريات الرياضية في الحساب والجبر والهندسة والفلك. كما استطاعوا بفضل احترام الطبيعة واطراد قوانينها الكشف عن كثير من النظريات العلمية في الطبيعة والكيمياء وعلوم البحار والأرض والأحياء والطب والصيدلة والتي ظلت إلى عهد قريب مساوية لحضارة العالم ومادة العلم الحديث، يود (اليسار الإسلامي) أن ينقل علمنا القديم من مرحلة إلى مرحلة حتى لا نظل ناقلين اكتشافات الغير، فالعلم هو إعمال للعقل ونظرة للطبيعة، وليس هو نتاج العلم وتطبيق قوانينه ونقل أساليبه من بيئة إلى بيئة. كما يرتبط (اليسار الإسلامي) بالعلوم الإنسانية التي أسسها القدماء مثل علوم اللغة والأدب والجغرافيا والتاريخ وعلم النفس والاجتماع خاصة ونحن ما

زلنا في عصرنا نكرر ما قاله القدماء في اللغة دون معرفـة أساسها وأبنيتها النظرية. نحاول الكشف عن التـاريخ مـن خلال الرواية في علم الحديث، وشرع من قبلنـا فـي علـم الأصول، والنبوة والمعاد والإمامة في علم أصـول الـدين، والمراتب الإلهية في علوم التصوف، ومراحل التاريخ فـي كتب الطبقات أو تاريخ السنين، ونضع قانونا جديدا لتـاريخ الشعوب الإسلامية خلاف قانون ابن خلدون الذي وصف فيه دورة الشعوب الإسلامية الأولى من نشأة وتطـور واكتمـال وانهيار في مراحلها الأربعة. فقد عاصر ابن خلدون نهايـة الدورة الأولى للشعوب الإسلامية ونحـن نعاصـر بـدايات الدورة الثانية التي ظهرت منـذ القـرنين الماضـيين فـي الإصلاح الديني. مهمتنا تحويـل الإصـلاح إلـى نهضـة حضارية شاملة لإحياء تراثنا القومي، وتحريـك الشـعوب الإسلامية حتى تأخذ مصائرها بيدها وتكون جزءا من حركة التاريخ، تصب ماضيها في حاضرها نحو مستقبلها[١٢].

---

[١٢] أنظر مقالنا: جمال الدين الأفغاني، قضـايا معاصـرة (١) ص ٩١ – ١١٠ دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٦.

ويرتبط (اليسار الإسلامي) أيضا بالعلوم النقلية الخالصة: علوم القرآن والحديث والتفسير والفقه، وهي العلوم الأولى التي نشأت حول الوحي، ويجد الدلالات المعاصرة لبعض فروع علوم القرآن مثل (أسباب النزول) التي تعني أولوية الواقع على الفكر، وعلم (الناسخ والمنسوخ) الذي يعني التطور في التشريع طبقا للأهلية والقدرة، وعلم (المكي والمدني) الذي يعني التصور والنظام، العقيدة والشريعة، النظر والعمل، وهي العلوم التي يمكن لنا تطويرها إلى علوم الواقع مثل الإحصاء والعلوم الاجتماعية، وعلوم التاريخ، والأيديولوجية والنظم السياسية والاقتصادية.

وفي علم الحديث يهمنا إعطاء الأولوية للمتن على السند. فقد بلغ القدماء مبلغا من العلم بالرجال لم نبلغه نحن ولكننا نستطيع أن نتفوق عليهم في نقد المتن بحيث يتفق مع العقل والبداهة ومجرى العادات والمشاهدة وهي بعض شروط التواتر، نستطيع أن نقوم بالنقد الداخلي بعد أن أبدع القدماء في النقد الخارجي، خاصة وأن شعورنا القومي قد تشكل في معظم مادته من الأحاديث دون أي نقد داخلي والتي تعتمد في معظمها على المشهور أو المرسل أو

المقطوع أو الضعيف أو أخبار الآحـاد. والمتـواتر منهـا موجود أصله في القرآن. يهمنا أيضا إعطاء الأولوية لمعاني الحديث على شخص المتحدث، وبالتالي الرجوع بعلم السيرة من شخص الرسول إلى أقوال الرسول حتى لا نقلـد أهـل الكتاب في كتاباتهم سير أنبيائهم حتى نسوا تعاليمهم فأخـذوا الأشخاص وتركوا الكلمات.

أما علوم التفسير فإن (اليسار الإسلامي) يتجاوز التفسير التاريخي الذي وقع فيه أغلب المفسرين وكأن القرآن يتحدث عن وقائع مادية في زمان ومكان معينين عن طريـق جمـع أكبر قدر ممكن من المعلومات حول حوادث ماضـية. بـل نؤسس التفسير (الشعوري) الذي يجعل القرآن وصفا للإنسان وعلاقاته بالآخرين ووضعه في العالم ومكانه في التـاريخ، يقيم مجتمعا، ويؤسس دولة طبقا لما وصل إليه جيلنا من علم وخبرة، نخاطب به عصرنا، ونسير إثر تفسير الإمام الشهيد سيد قطب في (ظلال القـرآن). ونتجـاوز أيضـا التفسـير (الطولي) سورة سورة وآيـة آيـة فتتفـرق الموضـوعات وتتكرر. ونؤسس التفسير الموضوعي بضم الآيات كلها حول موضوع واحد ثم بناء الموضوعات كلها حتى يمكـن بنـاء

التصور الشمولي الإسلامي للعالم حـول الإنسـان ونظـام المجتمع وكيان الدولة. ونقيم التفسير الثوري للقرآن، ونحول علم العقائد إلى أيديولوجية ثورية، ونجـد الصـلة بـين الله والأرض كما يعرفها القرآن في (إلـه السـماوات والأرض) (رب السماوات والأرض)، (وهو الذي في السماء إله وفـي الأرض إله) (٤٣: ٨٤) حتى نسـتطيع تحريـر أراضـي المسلمين باسم الله في مواجهة صـهيونية ربطـت بـين الله والأرض في عقيدة (أرض الميعاد) وبعـد أن أسـس أهـل الكتاب فرعا في لاهوتهم سموه (لاهوت الأرض) [١٣] نربط بين علم العقائد وثقافة الجماهير، ونجد الصلة بـين التوحيـد ووحدة الأمة، وبين النبوة وحركة التـاريخ، ونكتشـف فـي الوحي الإسلامي الإنسان والتاريخ، الثورة والأرض، الحركة والزمان حتى لا يعيب علينا أحد سكوننا وتخلفنـا، ويجعـل حضارته وحدها حضـارة الإنسـان والزمـان، والتـاريخ والحركة.

---

[١٣] انظر مقالنا: (لاهوت الأرض) في كتابنا (الحوار الـديني والثـورة) (بالإنجليزية) ص١٢٥ – ١٧٣ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧٧.

أما علوم الفقه فإننا نعطي فيها الأولوية للمعاملات على العبادات. لا نهتم بأحكام الظراط وحلق عانة الميـت فلسـنا فقهاء الحيض والنفاس كما يقول الإمام الخميني. بـل نهـتم بأحكام البيع والشراء، بالجهاد والقتـال، وبـنظم الاجتمـاع والسياسة والاقتصاد، وتزيد عليها أحكام الإسلام ومواقفه في مواجهة الاستعمار والصهيونية والرأسمالية والتخلف. كمـا أننا نعيد تفسير العبادات وبيان الحكمة منها إذ أننا نمارسـها كطقوس، ونقوم بها وكأنها غايات في ذاتها في حـين أنهـا وسائل تتحقق منها غايات، ومن يأتي الوسيلة دون أن يحقق الغاية فكمن لا صلاة له ولا صـوم ولا حـج ولا شـهادة. فالشهادة عندنا لا تعني تمتمة الشفتين بأن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله، وكأنها قضية عددية في عدد الآلهة وعدد الأنبياء، بل الشهادة لدينا شهادة على العصر أي رؤية أحداثه ثم الإعلان عنها والحكم عليها خلال منظور الشرع، فالشهادة من المشاهدة وليس من التخفي والتعمية والتستر علـى مـا يدور في واقعنا أو شهادة الزور خوفا وجبنا أو طمعا ورغبة كما يحدث في أيامنا هذه، وغالبا ما تؤدى هذه الشهادة بمعنى

مشاهدة ما يجري حولنا إلى الشهادة الفعلية، ويكون صاحبها شهيد قوى الظلم والطغيان.

وتبدأ الشهادة بالنفي (لا إله) نفي قوى الطغيان والآلهة المزيفة ومتكبري العصر ثم الإثبات (إلا الله) وحـده قاصـم الجبارين، أما الصلاة فهي تعطي الإحساس بالوقت والعمـل في الزمان على الفور وليس على التراخي أو قضاء ونحـن شعوب تتهم بأنها لا تعرف للزمن قيمة وتعيش خارجه. أمـا الزكاة فهو الاشتراك في الأموال بين من يملك ومن لا يملك في شعوب مأساتها غنى الأقلية وفقر الأغلبية. أمـا الصـوم فهو الإحساس بالآخر وبآلام الجوع والعطش وليس بأوجـاع الشبع وبالآم التخمة. أما الحج فهو اشتراك المسلمين جميعـا مرة كل سنة على الأقل لتدارس أمورهم، فهم أمة واحدة كما أن ربهم واحد لا أمة متفرقة ذات أربـاب متفرقـة، يـنهش بعضها لحم بعض.

إن ما نبغيه إذن هو نهضة حضارية شاملة تبرز جوانب التقدم في تراثنا القديم وتسـتبعد منـه معوقاتـه، (فاليسـار الإسلامي) ليس مقولة سياسية على ما يبدو لفـظ (اليسـار) ولكنه مقولة حضارية على ما يبدو من لفظ الإسلام، يعنـي

(اليسار الإسلامي) إبراز مواطن التقدم فـي التـراث مـن عقلانية وطبيعية وحرية وديمقراطية وهو ما نحتاجـه فـي قرننا هذا، ويكشف عن بعدين غابا عنا في تراثنا القديم وسببا أزمتنا في وعينا المعاصر أعني الإنسان والتاريخ. فقد غلفنا الإنسان واستلبناه خارجا عنا في كائن مشـخص أو قـانون مجرد فعشنا الآخر خارج عالمنا وفقدنا أنفسنا ودنيانا(١٤).

٤- تحدي الحضارة الغربية:

ويمثل (اليسار الإسلامي) تحديا للحضارة الغربية وبديلا عنها. فإن كان الأفغاني قد نبه من قبـل علـى الاسـتعمار العسكري المتمثل في الاحتلال وكنا في أوائـل القـرن قـد أدركنا مخاطر الاستعمار الاقتصادي المتمثل فـي شـركات الاحتكار الدولية كما حاولنا التنبيه على مخاطر الاسـتعمار

---

(١٤) انظر مقالنا: ماذا تعني شهادة أن لا إله إلا الله محمدا رسول الله فـي الجزء السابع : اليمين واليسار في الفكر الديني. وأيضا: لمـاذا غـاب مبحث الإنسان في تراثنا القديم، قضايا عربية، أكتوبر ١٩٧٧. وأيضا في (دراسات إسلامية). ودراستنا: الاغتراب الديني عند فيورباخ، عالم الفكر ١٩٧٩ وفي (دراسات فلسفية).

الثقافي بلفظ كل شيء سوى مقولات الـدين فـإن (اليسـار الإسلامي) ينبه على مخاطر الاستعمار الحضاري أي تفريغ الحضارة من داخلها عن طريق القضاء على انتساب الأمـة لها حتى تجتث جذورها التي تمدها بأسباب حياتهـا وبـدوام استمرارها. (اليسار الإسلامي) يدافع عـن جمـاهير الأمـة الإسلامية من داخلها ومن تراثها ويقف في وجـه التغريـب الذي يهدف أساسا إلى القضاء على الثقافات الوطنيـة وزرع أخرى بديلا منها حتى تتم الهيمنة الحضارية للغـرب علـى الشعوب التاريخية التي إن كانت متخلفة اليوم بمقاييس التنمية الغربية فإنها ما زالت تحـتفظ بعناصـر قوتهـا بمقـاييس حضارتها الخاصة.

مهمة (اليسار الإسلامي) تحجيم الغـرب أي رده إلـى حدوده الطبيعية والقضاء على أسطورة عالميته بعد أن جعل نفسه مركز الثقل الحضاري في العالم، وأراد توريـد نمـط حضاراته لغيره من الشعوب تنسج علـى منوالهـا ويكـون نموذج تقدمها كوسيلة للسيطرة عليها والقضاء على استقلال شخصيتها حتى لا تسيطر على مقدراتها ومواردها وتتركهـا نهبا للشعوب الأوربية. مع أن الحضـارة الغربيـة تـراكم

حضاري طويل من كل الشعوب التاريخية انصب فيها فـي النهاية وورثتها ثم حولتها إلى عنصريتها الدفينـة فجعلـت حضارتها النموذج الأوحد وما سواها تخلف وبدائية لا بد من القضاء عليها حتى تلحق جميع الشعوب بنموذج الحضـارة الأوحد هذا. أصبحت عصور الحضارة الغربية عصور كـل حضارة. يبدأ الغرب بحضارة اليونان التي نهل منها ويقتص كل ما سبقها من حضارات شرقية في الصين والهند وإيران ومصر. ويعتبر عصره الوسيط عصر ظلام وتخلف ويحكم عليه بالجدب والتوقف وهو أزهـى عصـورنا الإسـلامية، وعصرنا الذهبي في دورتنا الحضـارية الأولـى. ويسـمي العصور الحديثة، القرون الخمسة الأخيرة، ويعتبرهـا قمـة الحضارة من عصر إحياء القرن الرابع عشر، وإصلاح ديني في الخامس عشر، ونهضة في السادس عشر، وعقلانية فـي السابع عشر وتنوير في الثامن عشر وعلمية في التاسع عشر إلى أزمة حضارية في العشرين. هـذه العصـور الحديثـة بالنسبة لنا تمثل فترة ركودنـا وتوقفنـا وازدواج الأشـعرية والتصوف في وعينا[١٥] وقد تكون أزمـة القـرن العشـرين

---

[١٥] أنظر مقالنا: موقفنا الحضاري، قضايا معاصـرة (١) ص ٤٦ – ٥٠،

بالنسبة لنا بداية نهضتنا الثانية وبدايات إحيائنـا وإصـلاحنا الديني.

مهمة (اليسار الإسلامي) رد الحضارة الغربية داخـل حدودها الطبيعية وبيان محليتها ونشـأتها طبقـا لظروفهـا الخاصة وتاريخها الخاص ونوعية دينها وطبائع شعوبها حتى يمكن فك الحصار حول حضارات الشعوب غيـر الأوربيـة وبيان خصوصيتها وإثبات هويتهـا حتـى تتعـدد نمـاذج الحضارات وتتنوع طرق التقدم.

مهمة (اليسار الإسلامي) رد الحضارة الغربيـة داخـل حدود الغرب بعد أن انحسـر الاسـتعمار وارتـدت قـواه العسكرية أيضا داخل حدوده، وجعله موضوع دراسة خاصة من الحضارات غير الأوربية بل وإنشاء علم جديـد مقابـل (الاستشراق) القديم (دراسـة علمـاء الحضـارة الغربيـة للحضارات غير الأوربية) يكون هو (الاستغراب) أي أخـذ الحضارة الأوربية موضوع دراسة مستقلة كموضوع. بل إن (الاستشراق) ذاته يعبر عن طبيعة العقل الأوربي ونظرتـه للعالم والبواعث الدفينة في الوعي الأوربي أكثر مما يكشـف

دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٦

عن الحضارات موضوع الدراسة؛ هندية أو صينية أو فارسية أو إسلامية أو أفريقية. ولقد أضعنا كثيرا من الجهد والوقت في تفنيد أحكام المستشرقين على الحضارة الإسلامية مدافعين عن أنفسنا وعن أصالة تراثنا في حين أنه يمكن هدم الاستشراق كله من أساسه بإرجاعه إلى الوعي الأوربي وأخذه (موضوع دراسة) بدل أن يكون هو (دراسة موضوع)[١٦]، واسترداد حضارتنا الإسلامية من نتيجة التراكم الحضاري لديهم في العصور الحديثة. فربما الإصلاح الديني والنهضة والعقلانية والتنوير والعلمية ربما كان هذا هو الإسلام كما يبحثون عنه بجهدهم الإنساني الخاص والذي تراكم لديهم إثر ترجمات الحضارة الإسلامية إبان العصر الوسيط والذي نحاول نحن أن ننقله أحيانا أو نعاديه أحيانا أخرى دون أن نعيد اكتشافه في تراثنا أو نشأته في تراثهم.

---

[١٦] أنظر رسالتنا (مناهج التفسير في علم أصول الفقه) (بالفرنسية) أنظر أيضا كتاب أدوارد سعيد (الاستشراق). وكتابنا (التراث والتجديد) أزمة المناهج في الدراسات الإسلامية ص ٧٥ – ١٠٨.

يمكن إذن دراسة الحضارة الأوربية كموضوع خـاص مستقل من ناحيتين: تطورها وبنائها. ولما كان التطور عادة نتيجة للبناء، فالتطور يكون تطور الشيء إلا أن الحضـارة الأوربية بدأت تطورها قبل بنائها وأصـبح بناؤهـا نتيجـة لتطورها. وإذا كانت الحضارات نوعـان: مركزيـة تـدور العلوم فيها حول مركز واحد مثـل الحضـارة الإسـلامية، وطردية تخرج العلوم منها رد فعل على المركز ونفيا لـه، فإن الحضارة الأوربية تكون من النوع الثاني.

يبدأ الغرب بتحديد نشأة وعيه في أصلين اثنين: الأصل اليوناني الروماني والأصل اليهودي المسيحي وينسى الأصل الثالث وهو البيئة الأوربية ذاتها بكل ما فيها مـن معطيـات جغرافية وبشرية وحضارية والذي يضم عـادات الشـعوب وتقاليدها وجغرافية المكان ونوعية المعطيات الدينية. مهمتنا نحن إذن تكمن في البحث عن الأصول التـي تكـتم عليهـا الغرب مثل الأصل الشرقي القديم في الهند والصين وإيـران ومصر بعد أن جعل الوعي الأوربي الحضارة الشرقية مجرد تمهيد له وبدايات للحضارة الإنسانية التي يمثلها الغرب دون أن تبلغ حتى بداياتها عند اليونان وكأن الإنسـانية كانـت لا

تزال في مرحلة الولادة أو حتى المخاض دون أن تولد بعد، وكأن الإنسانية قد شبت فجأة عن اليونان والرومان. مهمتنـا بيان فائض القيمة التاريخي[١٧] الذي دخل في هـذا الأصـل الأول وبيان قدر التراكم الحضاري في نشأة الوعي الأوربي عند اليونان والرومان.

أما الأصل اليهودي المسيحي فقد طمست فيه المسيحية، البشارة الجديدة، لصالح اليهودية ابتداء من بولس بالرغم من تحذيرات سلس. كما طمس اليونان لصالح الروماني بفضـل البيئة الأوربية نفسها وطبائع شعوبها الهمجية التـي كانـت أقرب إلى الطبع الحسي المادي عند الرومان منها إلى الطبع العقلي المجرد عند اليونان. وتحولت العنصـرية اليهوديـة التاريخية إلى الـوعي الأوربـي وغـدت فيـه عنصـريته الحضارية، وأصبح الكتاب المقدس بعهديه مصدرا للـوعي الأوربي اليهودي والمسيحي على السواء. واتحدت مصـالح الوعيين على حساب الشعوب غير الأوربية بالرغم مما بينها

---

(١٧) هو التعبير المفضل لدى صديقنا د. أنور عبد الملـك فـي دراسـاته الجديدة عن (الاستراتيجية الحضارية)

من حقد دفين وتنافس على الاختيار وعدم اعتراف متبـادل، ففي الوعي الأوربي المسيحي تكتمـل النبـوة فـي ظهـور المخاص، السيد المسيح، وفي الوعي الأوربي اليهودي تكتمل النبوة بتأسيس الدولة الصهيونية والعودة من الشـتات إلـى أرض الميعاد[18] مهمتنا بيان تداخل هذين الأصلين وحقدهما الدفين ضد أي معطى ديني آخر خاصة الـوحي الإسـلامي الذي لا يعترف الوعي الأوربي اليهودي المسيحي بـه بـل ويحاول السيطرة على شعوبه ونهب مواردها.

أما الأصل الثالث، وهو البيئة الأوربيـة نفسـها، فهـو الأساس المحلي لخصوصية الحضارة الأوربية ويضم طبيعة شعوبها الهمجية ومزاجهـا الحسـي المـادي، ووحشـيتها وعنصريتها. كما يشمل بيئتهـا الجغرافيـة ورغبتهـا فـي الخروج من المناطق الباردة في الشمال إلى المناطق الدافئـة في الجنوب، والبحث عن الثروات الطبيعية خارج حـدودها، ونقل المعارك القبيلة داخل أوربا إلـى كشـوف جغرافيـة وحركات توسعية وحروب استعمارية خارج حدودها. ويشمل

---

[18] أنظر دراستنا عن (التاريخ والتحقيق، رأي القرآن في الكتب المقدسة) في (الحوار الديني والثورة) (بالإنجليزية) ص ٢١ – ٥٥.

أيضا طبيعة معطياتهـا الدينيـة التـي أمرتهـا (بملكـوت السماوات) فردت عليه (بملكوت الأرض) حتى تم التوحيـد بين المعطى الديني الخاص (اليهودي المسيحي) وكل معطى ديني آخر، وأصبح تاريخ الدين وماهيته في الحضارة الغربية هو تاريخ الدين وماهيته في كل حضارة أخرى.

وقد تطورت الحضارة الأوربية فـي ثلاثـة عصـور: عصر آباء الكنيسة، والعصر المدرسي، والعصر الحـديث. ويهمنا العصر الأول لأنه العصر الذي ظهر بعـده الإسـلام ينقد النصوص الدينية ويحكـم عليهـا بـالتحريف، زيـادة ونقصانا، إخفاء وإظهارا، وينقد العقائد الدينية وسوء تأويلها: التثليث والخطيئة الأولى والخلاص بالنسبة للمسيحية، وشعب الله المختار والميثاق الأبدي بالنسبة لليهوديـة كمـا ينتقـد عبادات أهل الكتاب ومعاملاتهم كالرهبنـة فـي المسـيحية والنفاق والربا والعصيان والكفر في اليهودية. مهمتنا دراسة هذه الفترة لبيان الوقائع التي يتحدث عنها الإسلام والتيارات الدينية التي يشير إليها حتى نبـين أن نصـوص القـرآن لا تتحدث في فراغ، ويكون هذا نوعا من (تحقيق المناط) الذي

دعا إليه الأصوليون[19] كما تهمنا دراسة العلاقة بين الـدين الجديد والفلسفة اليونانية والرومانيـة وكيـف أن الحضـارة القديمة تغلبت على الدين الجديد وتغلغلـت إلـى مضـمونه وأصبحت بديلا عنه في حين أن الوحي الإسلامي اسـتطاع تمثل نفس الفلسفة فيما بعد واحتواها وأخذها وسائل للتعبيـر دون أن يفقد جوهره ومضمونه، لقد شكلت الفلسفة القديمـة الدين المسيحي تشكلا حقيقيا في حين أنهـا شـكلت الـوحي الإسلامي تشكلا كاذبا.

أما العصر المدرسي بالنسبة للغرب فإنه يمثل بالنسبة لنا عصرنا الذهبي في دورتنا الحضارية الأولى، وهي تتضـمن موضوعيا كيف بدأ الوعي الأوربي في الخروج من بوتقـة العقائد إلى رحاب الحضارة والعقل والعلم بفضل ترجماتـه لحضارتنا وما أنتجناه من فلسفة وعلم مـن خـلال إسـبانيا وإيطاليا وتركيا، فقد كنا روادا للوعي الأوربي فـي نشـأته وبلورته وإظهار اتجاهاته، العقل والحرية، وبواعثه الأساسية فاتجه العقل نحو الطبيعة مباشرة حتى استطاع أن يستقل في

---

[19] وقد قمنا بذلك في رسالتنا الثانية (فينومينولوجيا التفسير، محاولة فـي التفسير الوجودي ابتداء من العهد الجديد (بالفرنسية) ١٩٦٦.

عصر الأحياء في القرن الرابع عشر فأحييت الآداب من أجل بدايات اكتشاف الإنسان وهو العصر الذي عشناه نحن منذ قرنين من الزمان منذ إنشاء مطبعة بولاق لنشر التراث القديم والترجمة عن الغرب والذي مازلنا نسير فيه حتى الآن. كما استطاع القيام بالإصلاح الديني في القرن الخامس عشر ورفض سلطة الكنيسة، ونظام الرهبنة، والتوسط بين الإنسان والله، والطقوس التي لم يؤسسها المسيح، والأيقونات والتماثيل، وحياة البذخ والترف واعتبار الكتاب وحده مصدر الإيمان دون الكنيسة أسوة بما نادى به الإسلام من قبل وتحت تأثيره، وهو العصر الذي بدأناه أيضا منذ القرن الماضي لإعادة اكتشاف الإسلام في أصوله الأولى بعد أن ساد وعينا في عصور التخلف والانهيار الحضاري في القرون السبعة الماضية، نفس ما رفضته البروتستانتية، والذي لم يكن من الإسلام في شيء. كما استطاع عصر النهضة في القرن السادس عشر الاستمرار فيما بدأته الحضارة الإسلامية، واستشهد من أجله المفكرون والعلماء في نضالهم ضد السلطتين الدينية والسياسية، فتجرأ الوعي الأوربي على نقد الموروث وإلى التخلص من التقاليد

والاتجاه نحو الإنسان والطبيعة وهو ما لم نبدأ بعد بصـورة منظمة وأساسية بالرغم مما نقوله من رغبتنـا فـي إقامـة نهضة.

أما العصور الحديثة فإنها تبدأ في الغرب بالقرن السابع عشر، عصر العقلانية وبداية الإعلان عن سـلطان العقـل، ونقد الكتب المقدسة أسوة بما قام به علماء الحديث لدينا مـن قبل، وبداية اللاهوت العقلي، ورفض كل مظـاهر التشـبيه والتجسيم في الألوهية. عرف الفلاسفة صفات الله المطلقـة، واقتربوا من التنزيه الاعتزالي بعد ما يقـرب مـن عشـرة قرون، كما استطاع الاتجاه التجريبي العلمي اكتشاف الطبيعة ومعرفة النشأة الحسية للمعارف والعلوم، والتجربة كمقيـاس للصدق، وإيثار الحقائق التجريبية إذا ما تصادمت مع الحقائق النقلية، ورفض جميع الأوهام في المعارف الإنسانية، فأصبح العقل والطبيعة مصدرين للمعرفة في الوعي الأوربي وليس الإيمان والمنقول. كما استطاع الوعي الأوربي وضع الإنسان كبؤرة للعالم، ذاتا للمعرفة، ونموذجا للوجود، وقيمة في ذاتها من حيث هو عقل وحرية. فبدا الـوعي الأوربـي إنسـانيا خالصا، عقلا وطبيعة وحرية، وأصبح الإنسان قادرا بعقلـه

على إدراك الحقائق، وقادرا بإرادته على تحقيقها، وأصبحت الإنسانية كاملة لا تحتاج إلى أية وصاية خارجة عليهـا فـي المعرفة أو السلوك، في النظر أو العمل، ولا تحتاج إلـى أي إلهام من خارج العقل والطبيعة أو إلى أية معجزة تقوم بـدل الإرادة الإنسانية[٢٠] وبالتالي أمكن اكتشاف الإسـلام تلقائيـا بفعل التراكم الحضاري الإنساني الـذي أعطتـه الحضـارة الإسلامية إلى الوعي الأوربي في بدايته. ثم انفجر العقل في القرن الثامن عشر في (فلسفة التنوير) وتحول إلـى ثـورة اجتماعية وسياسية لدى المفكرين الأحـرار الـذين فجـروا بدورهم الثورة الفرنسية، وظهرت الحرية في نظريات العقد الاجتماعي ونشأة الدولة على أساس الحق الطبيعي للأفـراد، ثم استطاع السيطرة على الطبيعة حتى القرن التاسع عشـر، ونشأ العلم، وظهرت المكتشفات العلمية تعلن عـن سـيطرة الإنسان على الطبيعة ومعرفته بقوانينهـا. وأخيـرا ظهـر الإنسان في القرن العشرين وبدأت أزمـة الحضـارة كلهـا

---

[٢٠] أنظر ترجمتنا لكتاب اسبينوزا (رسالة في اللاهوت والسياسة) الطبعـة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨، وأيضا أنظر: "أزمـة العقل أم انتصار العقل" في قضايا معاصرة (٢) ص ٣٤ - ٦٠

تتكشف وكأن كل انتشار للوعي يحتوي في جذوره على جرثومة عدمه إذا ما كانت البواعث الأساسية في الوعي قاصرة محدودة، فتمنعه من الاستمرار مدة أطول، فيبدأ الوعي في هدم ما بناه، ويعيش على ذاته حتى يأكل نفسه.

فالحقيقة إنه بالرغم من انتصارات العقلانية الأوربية فقد أصابها كثير من الشروخ التي قضت عليها حتى تحولت إلى نقيضها في اللاعقلانية المعاصرة. فقد وقعت أولا في التجريد، واعتنت بالشكل دون المضمون حتى ولدت رد الفعل عليها في التجريبية الأوربية التي آثرت المضمون في التجسيم أو التشبيه الذي اتسم به المعطى الديني. ثانيا، تحولت العقلانية إلى نقد جذري، والنقد إلى رفض مبدئي، والرفض إلى هدم مستمر، فأصبحت بطبيعتها هادمة رافضة وليست بانية مؤسسة. وكان من الطبيعي أن يحدث ذلك نظرا لهشاشة الموروث وعدم ثبوته أمام النقد. ولكن هذا الظرف الخاص أصبح عاما وأصبحت وظيفة العقل أن يلتهم موضوعه ولا يقوى عليه أحد. ثالثا، وقعت العقلانية أحيانا في التبرير وتحويل المعطى الديني من مستوى السر والإيمان إلى مستوى العقل والبرهان، فظهر التوسط بدل

المسيح، والجماعة المثالية بدل الكنيسة، والشر بدل الخطيئـة الأولى، والمطلق بدل الله، والغائية بدل الخلـق، فأصـبحت العقلانية الأوربية نوعا من المسيحية العقلانية الجديدة أكثـر قبولا لدي الفلاسفة من المسيحية العقائدية. وأصبح ديكـارت وكانط وفشته مسيحيين جدد يبشرون بالمسـيحية العقلانيـة المثالية الأخلاقية الشاملة على طريقة المعتزلة.

رابعا، ارتبطت العقلانية الأوربية بالجسـم البشـري الأوربي وتمركزه على ذاته فأصبحت تعبـر عـن إنسـانية محدودة هي الإنسانية الأوربية، وأنكرت العقل على غيرهـا من الشعوب، وبالتالي قامت العقلانية الأوربية، على أسـاس عنصري دفين وأصبحت باقي الشعوب تتصف بعقل بـدائي لا يعرف قوانين المنطق ويقوم على السحر والخرافة.

خامسا، لم تحدث العقلانية الأوربية أثرا فعالا في حياة الشعوب الأوربية ولم تتغير النظم السياسة وفقا للعقل إلا في الظاهر والشكل. ظلت الشـعوب الأوربيـة رومانيـة فـي جوهرها تبحث عن المصلحة والمادة والعالم بعد أن تأكـدت رومانيتها كرد فعل على (ملكوت السموات) الذي نادت بـه المسيحية الأولى ولم يرض بها أحد.

سادسا، تحول العقل إلى نشاط حر وأدى إلـى إقامـة نظام ليبرالي كان هو دعامة النظام الرأسمالي الذي يقوم على المنافسة والربح مما أدى إلى الاحتكار والاستغلال، فالعقـل كان خاليا من القيمة، والنشاط الاقتصادي الحر ضحى مـن أجل الربح بالعدالة الاجتماعية داخل أوربا مما فجر الثورات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وأيضا لم تستمر التجريبيـة الأوربيـة بـالرغم مـن انتصاراتها العديدة، فأصبحت أولا تجريبية حسـية صـرفة، فالمادة فيها بلا عقل، وكأنها معرفة بذاتها دون تدخل للوعي والإدراك. وكان من الطبيعي أن يحدث ذلك بعد اكتشاف أن كل معطى سابق ديني أو حضاري مناقض لحقائق التجربـة فأصبحت التجربة قائمة بذاتها، وأصبحت الحقيقـة أحاديـة الطرف، فكل مرئي حقيقي وكل لا مرئي خرافة، لا يوجـد في العقل إلا ما يوجد في الحـس أولا. أصـبحت التجربـة معارضة للعقل، بينهما نزاع دائم، بينهما انفصـام ورفـض متبادل دون أن تكتمل الحقيقة، وظلت نصف الحقيقة وكأنهـا الحقيقة كلها مما طبع العقل الأوربي بطابع التحيز والتجزئـة بالرغم من ظهور بعض نزعات الشمول والمذاهب الكليـة.

ثانيا، تحولت التجريبية من مجرد نظرية في المعرفـة إلـى نظرية في الأخلاق وأصبحت المادة مصدرا للقيم ومعيـارا لها، فلا يوجد إلا هذا العالم، والقيمة ذاتها لا تكون إلا مادية، وهو ما سمي فيما بعد بالمادية الأوربية، وأصبحت الماديـة في المعرفة والمادية في الأخلاق يغذيان بعضهما البعض في مادية الوعي الأوربي.

ثالثا، عبرت هذه المادية عن جبلة الشعوب الأوربيـة ومزاجها الطبيعي الروماني القديم، وتأصلت جـذورها فـي وجودها التاريخي عند القبائل الجرمانية والأنجلوسكسـونية وشعب الغال، وبالتالي لم يفلح المعطى الـديني ولا المثاليـة العقلية في إيجاد التوازن مع هذه المادية الطبيعية.

رابعا، وقعت حروب عدة بين الشعوب الأوربية مـن أجل المادة، ففرقتها أكثر مما جمعتها، وأصـبحت مصـدرا للجشع والطمع فيما بينها، وبالتالي لم تتخل عـن حروبهـا القديمة عندما كانت قبائل متوحشة فوق الثلوج.

خامسا، تحول حب المادة إلى استعمار خارجي وإشباع الجشع والطمع خارج الحدود الأوربية. فنشأت أكبر جريمـة

في تاريخ البشرية وهو استعمار الشعوب الذي ورث تجـارة الرقيق.

سادسا، انتهى المشروع القومي الأوربي، أكبـر قـدر ممكن من الإنتاج لأكبر قدر ممكن من الاستهلاك من أجـل أكبر قسط ممكن من الرفاهية إلى فشل تام بعد أزمة الطاقة، وبداية سيطرة الشعوب غير الأوربية على مواردها الطبيعية، وقيام الصناعات الوطنية في أسواقها، وظهور أزمـة القـيم والولاء وجماعات الرفض في المجتمعات الأوربية.

أما العلوم الإنسانية فظلت حيرى بين الاتجاهين العقلـي والتجريبي، مرة تقلد العلوم الرياضية فتقع فـي الصـورية وتغفل الجانب التجريبي المادي، ومرة تقلد العلوم الطبيعيـة تحول الظاهرة الإنسانية إلى ظاهرة مادية خالصـة، ومـرة تحاول الجمع بين الاثنين فتقع في الثنائية وتقضي على وحدة الظاهرة الإنسانية، أو تقع في الخلط بين المستويين لحسـاب أحدهما على حساب الآخر، وبـدأت الأزمـة فـي النزعـة الإنسانية الأوربية التي يعتبرها الوعي الأوربي أثمن ما لديه وأعز ما أنتج وهي النزعة التي دافعت عن الحرية الإنسانية وعن الإنسان كقيمة في ذاته. بالرغم من انتصاراتها العديـدة

وما تمثله من حقوق الإنسان، وهي أزهي مـا تفتخـر بـه، أصبحت الإنسانية الأوربية محدودة الأثر نظـرا لنقائضـها الدفينة، فالإنسان الأوربي أولا هو الإنسان الإرادي لا العقلي تدفعه المصلحة أكثر مما يدفعه العقل، هو الإنسان الوجودي الجسمي بلحمه وعظمه ودمه وليس بعقله وحكمته وبصيرته. ثانيا، هو الإنسان النسبي المحدود الذي يتغير طبقا للظروف والأحوال بالرغم من ادعاءات الشـمول وتمثيـل الإنسـانية جمعاء. فالإنسان هو إنسان بروتـاجوراس ولـيس إنسـان سقراط.

ثالثا، الإنسان الأوربي هو في حقيقة الأمـر الإنسـان الفردي الأناني لا الاجتماعي الغيري، يبغي مصـلحته ضـد مصلحة الجماعة.

رابعا، ظل المذهب الإنساني نظريا لا عمليا، يعبر عن أماني الوعي الأوربي ومثاليته ولكن الواقع الأوربي تسـوده الطائفية والقبلية.

خامسا، الإنسان الأوربي هـو الشـعوبي، الفرنسـي أو الألماني أو الإيطالي أو الأنجلوسكسوني أو الأمريكي، كل يعتبر نفسه ممثل الإنسان الأوربي، وما الحربان العالميتـان

إلا حربان أوربيتان بين القوميات والأجنـاس المتصـارعة داخل أوربا.

سادسا، الإنسان هو في حقيقة الأمر الأبيض العنصري في مقابل الشعوب الأوربية التي لا إنسان لها، وبالتالي فهـو الإنسان، على حين قامت الشعوب غير الأوربية في عصرنا هذا بتقديم نموذج آخر للإنسانية التي تسعى نحـو التحريـر والعدالة وبالتالي تكون ممثلة لنـوع جديـد مـن الإنسـانية الشاملة.

وبالنسبة لنا، يتسم الوعي الأوربي بعدة أشياء: أولا: أن الوعي الأوربي قد اكتمل دورته الثالثة في العصر الحـديث بعد الدورتين السابقتين في عصر آباء الكنيسة وفي العصـر المدرسي. كانت بدايته في الكوجيتو عند ديكارت ونهايته في الكوجيتو عند هوسرل، ثانيا: لقد جرب الوعي الأوربي كـل شيء، وافترض كل الفروض، واعتصر الذهن، ولكنه ظـل متأرجحا بين مكتشفاته، مترددا بينها لا يستقر له حال يقبـل اليوم ما يرفضه بالأمس، ويقبل غدا مـا يرفضـه اليـوم، وأصبح يتنقل من الفعل إلى رد الفعل إلى الجمع بين الاثنين خالطا أو قالبا، فتوالت المذاهب، وانتشرت المدارس، وعمت

الاتجاهات، مما يوحي بالغنى والوفرة على مستوى الإبداع. ثالثا: ضاعت بؤرة التركيز، وأصبح غير قادر على توجيـه نفسه نحو مركز يمكن من خلاله إبداع المذاهب والاتجاهات ولكنه يعود إليه حتى لا يفقد النظرة الشاملة. ولكنـه أصـبح أحادي الطرف، وفقد الرؤية الشمولية المحايدة بالرغم مـن المذاهب الشمولية التي قامت سواء في الفلسفة أو الاقتصـاد أو التربية أو علم النفس أو الفن، رابعا: وبعد طول التجارب والرفض، رفض الوعي الأوربي كل شيء، وانتهـى إلـى العدمية التامة وذلك لأن كل مذهب لم يشبع مطالبه حتى سئم الكل، وآثر الرفض، واستقر على السلب والعـدم، خامسـا: اكتشف العالم الخـارجي حولـه، وأحـس بريـاح الشـرق EASTWIND، واكتشف حضارات الصين والهند بعـد أن حاول تشويهها في الماضي وهو في إبان عنفوانه، كما يشعر بيقظة الإسلام بعد الثورة الإسلامية الكبرى في إيران، وأحس بقوة الدول المتحررة وبالعالم الأسـيوي الأفريقـي، وبثقـل القارات الثلاث، آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وأدرك قيمة عدم الانحياز، وأصبحت الشعوب غير الأوربية حاملة لوعي

جديد، يرث أروع ما أنتجه الوعي الأوربي - أعني (فلسـفة التنوير).

سادسا: بينما الوعي الأوربي يصل إلى نهايته، ويشعر بأزمته في القيم وفي النظم الاجتماعية وفي العلوم الإنسـانية وتبدأ مظاهر فشل المشروع القومي والأوربي فـي الإنتـاج والاستهلاك ومجتمع الوفرة، يبدأ فلاسفة الغرب في الإعلان عن انهيار الغرب، قلب القيم، خواء الروح، ألوهية المـادة، العدمية المطلقة، وتظهر مقولات الانتحار واليأس والتناقض والعبث واللامعقول ونسـمع صـرخات الفضـيحة والعـار والمصيبة. نبدأ نحن حياة جديدة نسميها الإصلاح، والإحياء، والتنوير والنهضة، والتغير الاجتماعي، والثـورة، ونـدافع عمليا عن الاستقلال الوطني وحريـة الشـعوب، ونصـيغ أيديولوجيات التحرر وعدم الانحياز، مكونين ثلاثـة أربـاع البشرية، وإذا كان للوعي الأوربي الريادة في القرون الخمسة الماضية فقد تكون لنا الريادة في القرون الخمسـة القادمـة. وكما بدأت الحضارة قديما في الشرق فـي الصـين والهنـد وفارس ومصر ثم انتقلت إلى اليونان والرومان وأوربا فقـد تعود في عصرنا هذا إلى الشـرق مـن جديـد وتكتشـف

الحضارة الإسلامية رسالتها نحو الشرق كما انتشر الإسـلام قديما نحو الشرق في آسيا على شـواطئها الجنوبيـة وفـي سهولها الوسطي.

وإذا كنا قد أكملنا دورتنا الحضارية الأولى من القـرن الأول حتى القرن السابع الهجري، كما أكملنا دروتنا الثانيـة من القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر، فإننـا نبـدأ الآن دورتنا الثالثة من بداية القرن الخامس عشر وفـي القـرون السبعة القادمة كما بدأ الوعي الأوربي دورته الثالثة ابتـداء من القرن الخامس عشر الميلادي وقارب على نهايتها فـي القرن العشرين، لقد بدأنا إصلاحنا الديني منذ القرن الماضي ولم يكتمل بعد، وبدأنا عصر نهضة أيضا قبل ذلك ولم يكتمل بعد، مهمة جيلنا هي إذن إكمال الإصلاح الديني واسـتمرار النهضة حتى تبدأ عصورنا الحديثة. حينئـذ تبـدأ الأجيـال القادمة فتقيم العقلانية، وتأتي أجيال أخرى فتحدث التنـوير، ويأتي أجيال ثالثة فتقيم العلم، إن ذلك لا يعني تقليد الغـرب في مراحل تطوره الحديث بل هو إحساس بتنمية مجتمعاتنـا من خلال فلسفة في التاريخ تقوم على إدراك في أية مرحلـة

من التاريخ نحن نعيش حتى لا نعيش مراحل تركناها وراءنا أو نحاول تحقيق مراحل أخرى لم نصلها بعد[٢١]

ليس اليسار الإسلامي إذن مجرد نظرة سياسية للواقـع أو نظرة تراثية للماضي بل هي نظـرة حضـارية لتـاريخ الشعوب، لا يعتمد على أساليب الخطابة والبيان بـل يـنهج منهج التحليل العلمي الأكاديمي الرصـين، ويعـالج قضـايا التراث الغربي من أجل تخليص الأمة كما فعل أئمة السـلف القدماء بالنسبة للحضارات الغازية القديمة.

٥- واقع العالم الإسلامي:

و (اليسار الإسلامي) يعطـي صـورة لحـال العـالم الإسلامي دون اتباع أساليب الوعظ والإرشاد، فيجعل الوقائع تكشف عن نفسها والأرقام تتحدث عن نفسها، لقـد اعتمـد فكرنا الديني حتى الآن على المنقـول، واسـتعمل أسـلوب الانتقال من النص إلى الواقع وكأن النصوص الدينية وقـائع

---

[٢١] أنظر مقالنا (موقفنا من التراث الغربي) (٢)، ص ٣٣ – ٣٣ . انظـر أيضا كتابنا : لسنج: تربية الجنس البشري، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧ .

تتحدث بذاتها، ومنهج النص له عيـوب أساسـية، أولا، أن النص ليس واقعا بل مجرد نص، والنص عبارة لغوية تصور الواقع ولا تكون بديلا عنه. والحجة لا تكـون إلا أصـلية، وبالتالي لا يكون النص حجة دون الرجوع إلى أصـله فـي الواقع. ثانيا، أن النص يتطلب الإيمان به مسبقا بعكس العقل أو التجربة التي يمكن لكل إنسان أن يشارك فيها، وبالتـالي لا يمكن استعمال حجة النص إلا لمن يؤمن به. فهي حجـة خاصة وليست عامة، ثالثا، النص يعتمد على سلطة الكتاب، وليس على سلطة العقل، وحجة السلطة ليست حجة لأن هناك كتبا مقدسة كثيرة في حين إنه يوجد واقع واحد وعقل واحد. رابعا، النص برهان خارجي يأتي من خارج الواقـع ولـيس برهانا داخليا يأتي من داخله، واليقين الخارجي أضعف فـي البرهان من اليقين الداخلي. خامسا، النص يحتاج إلى تخريج مناطه أي إيجاد الواقعة التي يشير إليها، ودون هذا المنـاط لا يكون للنص مضمونا صـحيحا وبالتـالي يـتم توجيـه النصوص إلى غير مراداتها، ويحدث الخلط وسـوء الفهـم واستعمال النصوص في غير مواضـعها، سادسـا، الـنص أحادي الطرف ويعتمد على كثير غيـره مـن النصـوص،

ولا يجوز الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر وإلا وقع التعارض بينها أو وقع المفسر في النظرة الجزئية. سابعا، النص يعتمد على الاختيار، والاختيار يتبع الهوى والمصلحة كما هو الحال في علوم الجدل. فالرأسمالي يختار نصوصا تؤيده، والاشتراكي يفعل بالمثل مع نصوص أخرى تؤيده، ويكون المحك ليس هو النص بل اختيار المفسر المسبق، والنص يؤيد ما هو معروف من قبل، ثامنا، الوضع الاجتماعي للمفسر هو أساس اختياره للنص وبالتالي يكون صراع المفسرين واختلافاتهم هو أساسا صراع اجتماعي في الواقع بناء على صراط القوى بين الأطراف. تاسعا، يتوجه النص إلى إيمان الناس وإلى تملق مشاعرهم الدينية واستحسان بلاغة المجادل ولا يتوجه إلى عقول الجمهور أو إلى واقعهم المباشر، فمنهج النص ليس منهجا علميا لتحليل واقع المسلمين بل هو منهج جدلي للدفاع عن مصالح فئة أو نظام ضد نظام، والجدل أقل من البرهان، عاشرا، منهج النص أقرب إلى الوعظ والإرشاد منه إلى البرهان والتحقيق، ويدافع عن الإسلام كمبدأ أكثر من دفاعه عن المسلمين كأمة. وأخيرا، فإن منهج النص أقصى ما يستطيعه

لو تحققت مواضعه وتوجه إلى الواقع مباشرة إنه يعطينا الكيف ولكنه لا يعطينا الكم، ونحن نهدف إلى تحديد الواقع كما نعرفه من خلال من يملك ماذا.

منهج (اليسار الإسلامي) هو منهج التحديد الكمي بالأرقام والإحصاء حتى يتحدث الواقع عن نفسه. وقد ارتبط النص في أصله بأسباب النزول ونحن نرجع إلى أسباب النزول ذاتها ونحددها كما. وقد كان التحديد الكمي في تاريخ العلم أكثر دقة من مجرد الوصف الكيفي. وقد كان العقل والمشاهدة دليلان عند الأصوليين القدماء كما أن العقل أساس النقل عند ابن تيمية، ومن يقدح في العقل يقدح في النقل، ونحن نريد المشاهدة والتجربة والواقع الإحصائي ونستعمل لغة الأرقام خاصة فيما يتعلق بتوزيع ثروات المسلمين على جماهير الأمة الإسلامية.

نحن علماء اجتماع واقتصاد وتاريخ وجغرافيا وقانون، ندرس العالم الإسلامي كما يدرسه العلماء، ولا نعتمد على سلطة الكتاب وحدها أو على النصوص النقلية وحدها، فحجة النص شيء وحجة العقل شيء آخر، وقديما قال علماء أصول الدين: إن كل الحجج النقلية حتى ولو تضافرت على

إثبات شيء على إنه حق لا يكون ذلـك إلا بحجـة عقليـة ولو واحدة، فنحن فقهاء بالمعنى القديم، فقد كان الفقهاء هـم العلماء، يعلمون الواقع ويشرعون له، ونعتمد علـى طـرق البحث عن العلل وأنواعها، من علة مؤثرة ومناسبة وملائمة، ونستعمل السبر والتقسيم، ونعتمد على قياس الأولى، فـنحن أصوليون وفقهاء ولكن لعصرنا هذا، نعبر عن الإسلام مـن خلال أوضاع المسلمين الحالية في أوائـل القـرن الخـامس عشر، ولا ندري ماذا ستكون عليه الأمـة الإسـلامية فـي العصور التالية، ما يهمنا هو روح العصر، وما نهتم به هي مشاكل العصر، وما نتحمله هي رسالة جيلنا لا رسالة كـل الأجيال. لذلك نهتم بالأمثال العامية وبسير الأبطال وبالملاحم الشعبية والتي تعبر من خلالها الشعوب عن طبائعها وآمالها وأخلاقها وعاداتها، وذلك لأن شعوبنا ما زالت تستشهد بهـا، وتأخذها نبراسا لحياتها ومصدرا لقيمها كما نفعل تماما مـع النصوص الدينية، ونهتم بالأغاني الشـعبية التـي يرددهـا الملايين من جماهير المسلمين والتي تؤثر علـيهم وتوجـه سلوكهم ويترنمون بها أثناء الليل وأطراف النهار، أنا نهـتم أساسا بعوامل التأثير على نفـوس المسـلمين وبموجهـات

سلوكهم وبمصادر قيمهم، وبالتالي فنحن علمـاء مـأثورات شعبية وعلماء نفس اجتماعيين، نصف سلوك الناس اليومي، ونحدد رؤيتهم للعالم، ونلـتقط أبنيـتهم النفسـية وقـوالبهم الذهنية،، فالغرض هو حماية المسلمين، وتنقية الإسلام فـي وعيهم، وتجنيد جماهير الأمة للدفاع عن مصالحها، فتراثهـا ما زالت تحياه لكن اختلط عليهم، فخلطوا بين العناية الإلهية وبركة آل البيت، بين الإعداد والصبر، بين الرسول والولي، بين الإيمان والاستكانة، بين علي بن أبي طالب وأبـي زيـد الهلالي، بين المقرئ وأم كلثوم... الخ.

ويوجه (اليسار الإسلامي) قوته إلى التصدي لمشـاكل العصر الأساسية وعلي رأسها: الاسـتعمار، والصـهيونية، والرأسمالية، وهي المخاطر التي تهددنا من الخارج، والفقر، والقهر، والتخلف، وهي المخاطر التي تهددنا من الداخل.

فالاستعمار هو أهم المشاكل التي تواجه العالم الإسلامي منذ الأفغاني حتى الآن بل منذ الحروب الصليبية وأشـكالها المتنوعة. فالاستعمار في النهاية هو الصليبية الجديدة. بل إن الاستعمار ذاته منذ القرن الماضي أخذ أشكالا عدة، عسكريا عن طريق الغزو والاحتلال المباشر، وسياسيا عـن طريـق

الحماية والانتداب والوصاية والإشراف الدولي والأحلاف. واقتصاديا عن طريق الشركات المتعدية الأجناس. وثقافيا عن طريق التغريب، وحضاريا عن طريق قتل روح الإبداع لدى الشعوب واستئصالها من جذورها التاريخية. وإذا كان الأفغاني قد ناضل ضد الاستعمار في شكليه العسكري والسياسي فإن مهمة أجيالنا هو النضال ضد الأشكال الباقية للاستعمار؛ أعني الاقتصادي والثقافي والحضاري، فبالرغم من الاستقلال السياسي الذي حصلت عليه كثير من الشعوب الإسلامية وجلاء الجيوش الأجنبية عن أراضيها إلا أن القواعد العسكرية الأجنبية ما زالت في كثير من أنحائها من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق. كما أن بعض الشعوب الإسلامية ما زالت داخلة في أحلاف أو تقع تحت مناطق نفوذ القوى الكبرى. أما الاستعمار الاقتصادي فكثير من ثروات العالم الإسلامي ما زالت بأيدي الشركات الاحتكارية الكبرى، موارده الأولية منهوبة، وأسواقه مفتوحة، وأمواله مردودة إلى البلاد الاستعمارية تستثمر فيها وبلادنا أحوج إلى الاستثمارات، واقتصادنا قائم على الاستيراد أكثر منه على التصدير، ونمط حياتنا يقوم على الاستهلاك أكثر منه على

الإنتاج حتى يظل المستعمر هو المنتج الوحيد. والاستعمار الثقافي ما زال ساريا فينا في مظاهر التغريب في حياتنا الثقافية فجعلنا الغرب مصدر كل علم ومعرفة، نستورد منه الخبرات العلمية طبقا لما تعودنا عليه من عون خارجي سواء من الإرادة الإلهية أم من تكنولوجيا الغرب، ولكن أخطر ما يهدد المسلمين الآن هو الاستعمار الحضاري إذ يود الغرب تفريغ هذه الشعوب التاريخية من مصادر قوتها الرئيسية في تراثها حتى يأمن يقظتها، ويأسر روحها ويحاصر إبداعها، ويحولها إلى حضارات متحفية تدرس في متاحف الأنثروبولوجيا ونصبح نحن جزءا من تاريخ الإنسان. يريد الاستعمار الآن أن يأمن الشعوب الإسلامية، ويضمن السيطرة على مستقبلها، فبدل أن يعارض الثورات التحررية في العالم الإسلامي على أساس أنها خطر شيوعي يحاول الآن أن يقبلها على أساس أنها الضمان الوحيد ضد الخطر الشيوعي وهو في كلتا الحالتين لا يؤمن بمصالح الشعوب ولكن يغير أساليبه وطرق تعامله. وتظل أفكار الحرية والديمقراطية والعدالة صالحة داخل أوربا فحسب وليس خارجها عند باقي الشعوب الهمجية.

مهمة (اليسار الإسلامي) هو الاستمرار في التنبيه على أساليب الاستعمار الجديـدة، وعنصـرية الغـرب الدفينـة، وصليبيته التاريخية، بأسر روحها، وقطـع ماضـيها عـن حاضرها حتى يتبخر مستقبلها فتنـدثر الشـعوب، وتصـبح أقليات في الشتات، تلحق بركب الغرب، وتستعين به كي تقيم أود حياتها. ونصبح جميعا عبيدا سودا في مجتمـع السـادة البيض[٢٢].

وما زالت الصـهيونية خطـر داهـم علـى الإسـلام والمسلمين منذ نشأتها، وجذورها في قبائل العبرانيين القديمة حتى الصهيونية السياسية في قرننا هذا. لم يعد هـدفها الآن احتلال الأرض فقد احتلت أكثر مما كانت تطمع فيـه فـي بدايتها منذ قرار التقسيم حتى ابتلاعها أرض فلسطين كلهـا واحتلال أراضي سوريا ولبنان ومصر بـل وقـادرة علـى احتلال مزيد منها، وما زالت أطماعها فـي التوسـع حتـى يستوطن أربعة عشر مليونا، وهم يهود العالم، في فلسـطين.

---

(٢٢) أنظر مقالنا (إجهاض العقول) الفكر المعاصر، العدد الثاني، القـاهرة ١٩٨٠، وأيضا في الجزء الأول: الدين والثقافة الوطنية،

لم يعد هدفها حتى محو اسم (فلسطين) على فندق أو منظمة أو هيئة أو بيان أو شعار أو علم أو نشيد بل أصبح همها هو تصدير الفكرة للذهن العربي والإسلامي، وقبولها كنموذج للحديث، وبفضلها يتحول جهلنا إلى علم، وصحراؤنا إلى أرض خضراء، وتخلفنا إلى تحضر، وكسلنا إلى عمل ونشاط. لدينا الأسواق الفسيحة والسواعد الفتية وعائدات البترول ولديهم العلم والمعرفة والتكنولوجيا. لديهم العقل والخبرة ولدينا العمالة الوافرة. وبالتالي تستولي الصهيونية ليس فقط على ثرواتنا ومصادر رزقنا كما كان يفعل الاستعمار التقليدي بل تستولي أيضا على أرواحنا، وتتم صهينة العالم العربي قلب العالم الإسلامي ومركزه. ثم تصبح بديلا عن القومية العربية والوحدة الإسلامية، وتصبح الحضارة اليهودية هي الحضارة الأم، والحضارة العربية والإسلامية رافدا منها، وتكون هي النموذج الأوحد للحضارات السامية قديما وحديثا[٢٣] وقد حرم الإسلام علينا بنص القرآن موالاة بني إسرائيل ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا**

---

[٢٣] انظر مقالنا: مخاطر السلام، قضايا عربية، مارس ١٩٨٠، وأيضا الجزء الثالث: الدين والنضال الوطني.

تَتخِذُوا الْيهود والنصارى أَولِيـاء بعضـهم أَولِيـاء بعضٍ ومن يتَولهم منكُم فَإِنه مِنْهم إِن اللهَ لاَ يهـدِي الْقَوم الظالِمِين﴾(٥: ٥١) ووصفهم فـي القـرآن بـأنهم كافرون بالحق، يؤثرون الحياة الدنيا، لا يريـدون إلا نعـيم الحياة دون شكر أو إيمان، ينقضون عهد الله، ويغلـون فـي الدين، ويقتلون الأنبياء، وقد لعنهم أنبياؤهم، وحكـم علـيهم موسي بالتيه. لقد رفض القرآن تصورهم للميثـاق، ميثـاق الحب الأبدي والنصر الذي يهبهم الأرض بعـد عصـيانهم الأنبياء، ووضع القرآن بدلا عنه ميثاق الطاعـة والفضـيلة والعمل الصالح لكل فرد، وهنا يتفق (اليسار الإسلامي) مـع (الإخوة في الله) على مواصلتهم الكفـاح ضـد الصـهيونية كعقيدة ورفض جميع مظاهر موالاتهم من المسلمين وذلك من منطلق شرعي خالص وهو إنه لا يجوز شرعا الصلح مـع بني إسرائيل، ونقول ذلك كفقهاء للإسلام وبمسئولية الفقهـاء الذي لا يخشون في الله لومة لائم[٢٤]

---

[٢٤] أنظر دراستنا (لاهوت الأرض)، (الله والشعب والأرض)، (الصهيونية كثورة مضادة) في (الحوار الديني والثورة) (بالإنجليزية) ص ١٢٥ – ١٩٧ .

والخطر الخارجي الثالث الذي يواجـه المسـلمين هـو الرأسمالية ليس فقط بالنسبة لأهلها ولكن بالنسـبة لنـا فـي مجتمعاتنا الإسـلامية. فالرأسـمالية تقـوم علـى النشـاط الاقتصادي الحر وما يتبع ذلك من منافسـة وربـح وفوائـد وربا. كما تؤدي إلى الاستغلال والاحتكـار، وتغـرز فـي المجتمعات قيم الاستهلاك والتمتع بـالوفرة. وتنتهـي إلـى المجتمعات الطبقية والتفاوت في الدخول بين الناس ثم تصبح السلطة بين يدي من يملك رأس المال، فيـدير دفـة الحكـم لصالحه. ولا يرى حرجا في شن الحروب وصناعة الأسلحة المدمرة ما دام كل ذلك يؤدي إلى الـدفاع عـن المصـالح الخاضعة لرأس المال الحاكم. وكل ذلك بالنسبة لنا يعني فقر الفقراء وإثراء الأغنياء، ففي مصر مثلا يبلغ متوسط الـدخل الفردي سنويا مائة وعشرين جنيها سنويا وذلك لا يسمح بأي نظام اجتماعي يقوم على التفاوت الطبقي أو علـى النشـاط الاقتصادي الحر القائم على الاستغلال والاحتكار وإلا ماتت الملايين منا جوعا وبؤسا. هذا بالإضافة إلى أن الإسلام ذاته ضد تجميع رأس المال في أيدي القلة (**كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**) (٥٩: ٧)، ويرفض الملكية الخاصة، ويقـول

بالاستخلاف، ويرفض المجتمع الطبقي، ويقـول بالمسـاواة، ويرفض الاستغلال والاحتكار، ويقول بالشـركة والتعـاون والتكافل، ويرفض الربـا، ويعطـي الإمـام حـق التـأميم والمصادرة للمال المستغل لصالح المسلمين، ولقـد روجنـا للأسف ما سميناه (اشتراكية الإسلام) بعد أن تبنت مجتمعاتنا الإسلامية الاشتراكية مروجين لنظام قائم ومبررين لقراراته دون أن نأخذ زمام المبادرة، ولكننـا الآن ننـادي بالإسـلام كمناهض للرأسمالية العالمية والمحلية، ونطالب بالمزيد مـن حقوق الفقراء في أموال الأغنياء ولتنمية مجتمعاتنا وتوزيـع ثرواتنا على أساس من المساواة والعدالة الاجتماعية. بالنسبة لنا الاشتراكية قضية مبدأ دائم وليست قضية نظام عابر بتغير الحكم، وتظل الجماهير الإسلامية في كلتا الحـالتين فـاترة لا يعنيها الأمر في شيء.

أما بالنسبة للمخاطر الداخلية، الفقر والقهر والتخلـف، فإن الشعوب الإسلامية من أفقر شعوب الأرض، يضرب بها المثل في سوء التغذية والمجاعة والقحط. وفي نفس الوقـت من أغنى شعوب الأرض يضرب بها المثل في الغنى وتكدس الأموال والفورة والترف والبذخ وبناء القصور وشراء الجزر

وسواحل المحيطات واللعب على موائد القمار وإحضار نساء العالمين. ومع أننا بنص القرآن أمة واحدة ولكننا في الواقـع أمتان، أمة الفقراء وأمة الأغنياء، وبالرغم مما نقولـه فـي مواعظنا وتقريظنا للإسلام وذكرنا الآية (**والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**) (٧٠: ٢٤ – ٢٥). والإسـلام يقرر من حيث المبدأ أننا أمة واحدة، نتمثل مبدأ واحدا، وأننا جميعا إخوان، سواسية كأسنان المشط، وأن المـال مـال الله استخلفنا فيه، لنا حق الانتفاع والتصرف والاستثمار، ولـيس لنا حق الاستغلال أو الاحتكار أو الاكتناز، إن كل السياسات التي تتبعها نظمنا الحالية من تدعيم المواد الغذائية، وفـرض ضرائب على القادرين، ورفع مرتبات صـغار المـوظفين، وتثبيت الأسعار، وإعطاء المنح والعلاوات، كلها تغير مـن هذا التفاوت بين الفقراء والأغنياء.

مهمة (اليسار الإسلامي) إعادة توزيع ثروة المسـلمين بين المسلمين كما شرع الإسلام، طبقا للعمل والجهد والعرق، واليد العاملة التي يحبها الله ورسوله، وليس من المضاربات والسمسرة والعمولات والرشاوى والسرقات، وإن كـان مـا يقال عن ضرورة تحديد النسل كحل لفقرنا لهو قول يـردده

الاستعمار والصهيونية، فبدل أن نكيف مواردنا البشرية طبقا لتوزيع الثروة الحالي بين القلة الغنية والأكثرية الفقيرة فإننـا نكيف ثرواتنا طبقا لمواردنا البشرية، فجماهير الأمة مصدر قوتها، ولديها الثروة في صورة المال السائل من عوائد النفط وفي صورة الثروات المعدنية الطبيعية والصحراء الشاسـعة غير المستغلة. المهم هو أخذ حقوق الفقراء من الأغنياء كما يأمر الإسلام وينص القرآن، وإعادة توزيع الثروة في الـبلاد الإسلامية بين من يملك كل شيء ومن لا يملك شيئا، وقيـام الدول الإسلامية بواجبها وما شرعه الإسلام لها، فالإمام آخر من يأكل وآخر من يسكن وآخر يلبس بعد أن تجد جمـاهير الأمة الإسلامية كفايتها.

ولا توجد أمة تعاني من القهر والتسلط والطغيان كمـا تعاني الأمة الإسلامية. وبالتالي تؤكد حياتنا ما قاله الغـرب عنا وسماه (نظام الاستبداد الشرقي) حيث يوجد واحد فقط هو الحر يفعل ما شاء، وهو الرئيس، وما سواه مجبور ومقهور لا حرية له كما يقول هيجل. يضرب بنا المثل لغياب الـنظم الديمقراطية والحريات العامة، وسـيادة الأحكـام العرفيـة والقوانين الاستثنائية، وترسل لدينا لجـان حقـوق الإنسـان

للاستفسار عن أحوال مسجونينا، وتحل لدينا الاتحادات، وتزور الانتخابات، وتقوم الانقلابات العسكرية، ويسيطر الرأي الواحد، ويحكم الحزب الأوحد، ويقتل بعضنا بعضا، الوطني من في السلطة، والخائن من يكون خارجها، وبعد الانقلاب يكون بطل الأمس خائن اليوم، وخائن اليوم بطل الغد، غابت مقاييس الوطنية والحرية وأصبح من في السلطة هو الوطني الأوحد. تسيطر القيادات على كل شيء وتوجه الوعي القومي من خلال أجهزة الإعلام حتى لم تعد للشعوب الإسلامية أية قدرة على التعبير عن الرأي الآخر، فأمحت المعارضة، وإن ظهرت تحت الاضطهاد والقهر، اتهمت بالخيانة والعمالة، ولصقت بهم تهم الكفر والإلحاد. أصبحت الشعوب الإسلامية كلها تعيش مجتمعات الرأي الواحد، وفي نفس الوقت تتغنى بالشورى وبديمقراطية الحكم في الإسلام ونستحسن قول عمر بن الخطاب لامرأة مسلمة في المسجد (أصابت امرأة وأخطأ عمر) ونذكر على الأشهاد في كتبنا التعليمية وأمام الأجانب قول عمر لابن الأكرمين "لماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا". فنفخر بنور الأمس واليوم مظلم، ونتشدق بالمبادئ وواقعنا مزري.

مهمة (اليسار الإسلامي) هو الدفاع عن حرية الـرأي لجميع الاتجاهات، وتأكيد ديمقراطية الحكـم، وأن للجميـع الحق في المساهمة فـي توجيـه أمـور الـبلاد، لا خـائن ولا عميل، الكل مواطنون يبغون الخير، وبالتالي لن تكـون (إسرائيل) وحدها هي واحة الديمقراطية في المنطقـة كمـا تدعي ويروج أثرها الغرب، ولن تأتي لجان (حقوق الإنسان) لتقصي أحوال المسجونين لدينا، يمارس (اليسار الإسـلامي) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي لأجلـه أصـبحنا خير أمة أخرجت للناس[٢٥].

والعجيب أن تكون خير أمة أخرجت للناس هـي التـي يقصد بها البلاد المتخلفة في أفريقيـا وآسـيا. والحقيقـة أن (التخلف) يعبر عن الطابع العام لمجتمعاتنا. والتخلف لا يعني فقط نقص موارد التنمية أو انخفاض معـدلاتها بـل يعنـي التخلف الشامل سواء في الأبنية الاجتماعيـة أو فـي رؤى شعوبنا لأنفسها ولواقعها وللعالم الـذي تعـيش فيـه، فـإن مجتمعاتنا الإسلامية ما زالت تعيش في بعض منها حياة قبلية

---

[٢٥] أنظر مقالنا بجريدة (الأهـالي) الإسـلام والمعارضـة العـدد (١٠) ١٩٧٨/٤/٥، وأيضا الجزء السابع: اليمين واليسار في الفكر الديني.

مثل السودان وباكستان وإيران والعراق وتركيا وكأننا لسنا أمة واحدة وحد الإسلام فيها بين القبائل والشعوب من خلال التوحيد والعمل الصالح **(يأيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم)** (٤٩: ١٣) وهو التخلف البشري. ويضرب بمجتمعاتنا المثل في عدم استغلال الثروات، وعدم ترشيد الاستهلاك، وسيادة الجهل، وانتشار الأمية، وتفشي الأمراض نتيجة للقذارة في مجتمع يقوم الدين فيه على الطهارة والغسل. والتخلف في المسكن والملبس والمأكل والمشرب وأساليب الحياة العامة. ولكن أخطر من ذلك كله هو التخلف الثقافي أو الحضاري فيما يتعلق بنظرة الناس للعالم وفي سلوك الشعوب وفي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية. ويمثل التخلف في الفكر نظريتنا الثنائية للعالم أو وضعنا له على طرفين غير متكافئين، نعطي الأول ما نسلبه من الثاني حتى أصبحنا نجد في الأول الثابت عزاء لنا عن ضياع الثاني الهش، وأزمتنا كلها في الطرف الثاني في حين أن النظرة الواحدية والتي أثبتها التوحيد هي التي ترد إلى العالم

اعتباره وثقله وتجعلنا عاملين في الدنيا لا هاربين منهـا[٢٦] كما تمثله نظرتنا الهرمية للعالم التي تجعلنا ننظر إليه متفاوت المراتب، كلما صعدنا إلى أعلى وصلنا إلى الكمـال وكلمـا نزلنا إلى أسفل وصلنا إلى النقص، هذه النظرة هـي أسـاس البيروقراطية والطبقية في مجتمعاتنا[٢٧]. كما يمثلـه أيضـا غياب النظرة العقلانية للعالم وتفسيرنا الظواهر بقوى خفيـة أو إرادات مشخصة من خارج العالم دون ربط الظواهر فيما بينها بقوانين العلية. ويمثل التخلف أيضا في تراجـع العقـل أمام المحرمات أو المقدسات (التابو) التي لا يقتـرب منهـا وجداننا القومي: الله، والسلطة، والجنس، مع أنا نفكـر فيهـا ليل نهار، ونعيشها بوجداننا من أجل الإشباع وتعويضا عـن الحرمان[٢٨].

---

[٢٦] (انظر التفكير الديني وازدواجية الشخصية قضايا معاصـرة (١) ص ١١ – ١٢٧.

[٢٧] أنظر (الدين والرأسمالية) قضايا معاصرة (٢) ص ٢٧٣ – ٢٩٤.

[٢٨] أنظر مقالنا (المحرمات الـثلاث) الجمهوريـة ١٩٧٦/٦/٩، وأيضـا الجزء الأول: الدين والثقافة الوطنية.

ويبغي (اليسار الإسـلامي) اكتشـاف رسـالة الأمـة الإسلامية في التاريخ، وتحويل جماهيرها من كم إلى كيـف، فمازلنا نعجب كيف ينتصر ثلاثة ملايين من اليهود على أكثر من مائة مليون عربي، ويستولون على القدس من ثمانمائـة مليون مسلم وكأن صرخة الأفغاني مـن قبـل فـي الأمـة الإسلامية (لو كنتم وأنتم تعدون بمثابة الملايين ذبابـا لكـان طنينكم يصمم آذان بريطانيا العظمي... ولـو كنـتم مئـات الملايين من الهنود وقد مسخكم الله فجعل كل منكم سـلحفاة وخضتم البحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى هندكم أحرارا).

ويحدد رسالة (اليسار الإسلامي) فـي أوائـل القـرن الخامس عشر كالآتي:

(أ) تحقيق العدالة الاجتماعية في الأمة الإسلامية، وتكـوين مجتمعات لا طبقية تذوب فيها الفوارق بـين الفقـراء والأغنياء بنص القرآن.

(ب) إقامة مجتمع حر ديمقراطي يكون فيه لكل فرد الحـق في التعبير عن الـرأي، وإسـداء النصـح، والأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(ج) تحرير أراضـي المسـلمين مـن بقايـا الاسـتعمار الاستيطاني في فلسطين، وتصفية القواعد العسـكرية في العالم الإسلامي، واستعادة ثروات المسلمين بعـد استنزاف مواردها الطبيعيـة ونهـب ثـرواتهم مـن الاستعمار الخارجي.

(د) إقامة وحدة إسلامية جامعة نبدؤها بوحـدة الأمـة فـي مصر ثم وحدة وادي النيل، ثم وحدة مصر والشام، ثم وحدة المغرب العربي، ثم وحدة الأمة العربيـة، ثـم وحدة الأمة الإسلامية (**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**) (٢١: ٩٢).

(هـ) إنتاج سياسة وطنية مستقلة عن القوى الكبرى ومناطق النفوذ، (لا شرقية ولا غربية) بنص القـرآن، وهـي سياسة عدم الانحياز، وتقوية أواصرنا بشعوب آسـيا وأفريقيا وهي الشعوب الإسلامية ودول العالم الثالـث وهي التي تشارك في أهدف الإسلام فلن يرضى عنا أحد حتى نتبع ملته.

(و) تدعيم ثورة المضطهدين في كل مكان، وتقوية ثـورة المستضعفين فالإسلام جاء لهـم، وثـورتهم ثورتـه،

وليس عذرهم أن لم تبلغهم رسالة الإسلام بل عـذرنا في أننا لم نقدمه لهم.

٦- الدين والثورة:

ومهمة (اليسار الإسلامي) الكشف عن العناصر الثورية في الدين أو إن شئنا بيان أوجه الاتفاق بين الـدين والثـورة أو بلغة ثالثة تأويل الدين على أنه ثورة. فالدين هو ما لـدينا بالأصالة والثورة هي مكتسبات عصرنا، فكما حاول القدماء التوفيق بين الحكمة والشريعة علـى مـا يقـول الفلاسـفة المسلمون، الشريعة ما لديهم بالأصالة والحكمـة مكتسـبات عصرهم نحاول نحن أيضا نفس الشيء، وهي عملية طبيعية تدل على حيوية الحضارة الإسـلامية واسـتمراريتها فـي التاريخ. وهو ليس توفيقا خارجيا تعسفيا فالـدين فـي ذاتـه ثورة، وكان الأنبياء ثوارا مصلحين ومجـددين، فقـد مثـل إبراهيم ثورة العقل ضد التقاليد وثورة التوحيد ضد التجسيم، ومثل موسى ثورة التحرر ضد الطغيان، وكان عيسى يمثـل ثورة الروح ضد المادة. وكان محمد ثورة الفقـراء والعبيـد والمضطهدين ضد الأغنياء وسادة قريش وطغاتها من أجـل إقامة مجتمع حرية وإخاء ومساواة، ويؤرخ القـرآن للنبـوة

على أنها ثورة ضد المفاسد الاجتماعية والخلقية، فقد قاوم لوط الشذوذ الجنسي كما حذر النبي عاموس في العهد القديم الأغنياء ونبههم إلى قرب سقوط الدولة إن لم يأخذ الفقراء حقوقهم، لذلك كان مصير الأنبياء القتل والسجن والتعذيب والاضطهاد. ولكن كان النصر للثورة في النهاية ضد قوى الظلم والطغيان، كان التوحيد وظيفة عملية في توليد السلوك القويم، وكانت العقيدة تهدف إلى تغيير حياة الناس وأساليب معيشتهم ونظم مجتمعاتهم، فلا يوجد نبي واحد قد أتى لتثبيت الوضع القائم بل ليثور عليه ولينادي بوضع أفضل. حركة النبوة في التاريخ حركة إصلاحية تهدف إلى إحداث تغيير اجتماعي وانقلاب ثوري في حياة الناس ومعتقداتهم وسلوكهم. لم يأت الأنبياء لمباركة رجال الدين القائمين أو لتأييد رجال السياسة بل تصدوا دائما للسلاطين الدينية والدنيوية، الزمنية والروحية، لتجار المعبد ولرجال العرش، فالأنبياء هم مربو الإنسانية ومساعدوها ودافعوها نحو التقدم والكمال، وتعني نهاية النبوة أن الإنسانية قد سارت في طريق التقدم واستطاعت أن تقود نفسها بنفسها بعد ذلك. أصبحت مستقلة العقل، حرة الإرادة، تستطيع أن تسير في طريق

التقدم، والرقي بجهدها الخاص[٢٩] لقد تطور الوحي مع الأنبياء واكتمل حتى انتهى إلى مجموعة من النظم والمبادئ العامة تعطي الإنسانية حصيلة تراكمها الحضاري الطويل ومكتسبات نضالها في عصور التاريخ.

وقد زخر التاريخ الإسلامي بالثورات الدينية الاجتماعية والسياسية مثل ثورة القرامطة وثورة الزنج في تاريخنا القديم، والحركات الإصلاحية الثورية مثل المهدية في السودان، والسنوسية في ليبيا، والإسلام في الجزائر إبان حركة التحرير الوطنية، وعبد الحميد بن باديس وعبد القادر المغربي وعمر المختار في شمال أفريقيا، وعثمان دنقة في وسط أفريقيا، وأمة الإسلام في أمريكا، وجهاد (الإخوان المسلمين) في فلسطين وفي القنال، وإلا فماذا كان يعني الجهاد وماذا تعني الشهادة؟

مهمة (اليسار الإسلامي) إبراز هذه الثورات والكشف عن الحركات الثورية العلنية منها والسرية في مقابل ما هو شائع عن استتباب الدولة السنية، وقبول الأمر الواقع،

---

[٢٩] أنظر كتابنا: لسنج: تربية الجنس البشري، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧.

والقبوع تحت سلطوية التصور، والخنـوع تحـت القضـاء والقدر[٣٠] ولكن لسوء الحظ ساد الفكر الـذي روجـت لـه السلطة السياسية القائمة والذي أخفى الفكر الديني الذي كـان وراء كثير من حركات المعارضة وما زال الأمر قائما حتى الآن.

كما يتأصل (اليسار الإسلامي) في ثورات الأديان فـي التاريخ البشري. فتاريخ اليهودية مليء بالثورات الدينية مثل ثورة ابن عقيبة ضد الرومان، وتاريخ المسيحية أيضا زاخر بالثورات مثل ثورة الفلاحين في ألمانيا في القـرن السـادس عشر بقيادة المصلح الديني توماس مونزر، وثورة القساوسة الكاثوليك في أمريكا اللاتينية، وثورة الكنيسة السـوداء فـي أمريكا الشمالية. ولم تقتصر ثورات الأديان علـى ديانـات التوحيد الثلاث بل ظهرت أيضا ثورة البوذية فـي فيتنـام، وثورة الكونفوشيوسية في الصين إبـان المسـيرة الكبـرى،

---

[٣٠] د. محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام.

وثورة بعض الديانات الأفريقية في جنـوب أفريقيـا ضـد المستعمر الأبيض مثل (أنبياء البانتو)[٣١].

وقد أصبحت ثورة الأديان موضوعا رئيسيا فـي علـم الأديان، وفي علم الاجتماع الديني وفي علم السياسـة. وتـم تصنيف الحركات الثورية الدينية في أنماط مثل المخلصـية Messianism التي تعتمد الثورة فيها على ظهور المخلص مثل المسيح أو المهدي، والألفية Millinairiansism التي يظهر فيها المخلص كل ألف سنة، والكاريسمية charisma التي يظهر فيها البطل أو الزعيم ليقود الشعب. ولكن كل هذه الأنماط مازالت تدور في الفلك المسيحي والوثني ولم تستطع بعد أن تصل إلى نمط ثورة الإسلام، وثورة التوحيد، أو ثورة الفقراء والمستضعفين من خلال العقيدة دون ما حاجـة إلـى تشخيص التحرر في صورة مخلص، وهو ما يحاول اليسـار الديني إبرازه.

وقد نشأ تيار جديد في علم (اللاهوت) الغربـي الـذي يعادل لدينا علم أصول الدين أو علم العقائد يأخـذ (الثـورة)

---

(٣١) أنظر كتابنا: الحوار الديني والثـورة، القسـم الثـاني عـن الثـورة (بالإنجليزية).

موضوعا له فيما يسمي (بلاهـوت الثـورة) الـذي يجمـع (لاهوت الأرض) و (لاهوت التنميـة) و (لاهـوت التغيـر الاجتماعي) و (لاهوت التقدم). وأصبح في الفكـر الـديني المعاصر من أهم فروع اللاهوت إن لم يكـن أهمهـا علـى الإطلاق[٣٢] وعاد لاهوت الذات والصفات أو لاهوت الماهية والوجود التقليدي إلى بطون الكتب القديمـة وتشـعب هـذا اللاهوت فأصبح لدينا (لاهوت الألم) أو (لاهـوت المعانـاة) عند بونهوفر و(اللاهوت العلمـاني) أو (لاهـوت المدينـة العلمانية) عند ألتزير وكوكس وفان بيرن، و(لاهوت التقـدم) عند بانبرج، و(لاهوت العمل) و(لاهوت التاريخ) و(لاهوت موت الإله) عند نيتشة وفهانيان، وخرجت لـذلك المجـلات المتخصصة وظهر اللاهوتيون الجدد مثل هوتار وجان بابتس ميتز يؤصلون التيار الجديد عند استبينوزا عامة وفيوربـاخ خاصة، وظهرت الدراسـات عـن (التعـاليم الاجتماعيـة للكنيسة)، وأخذ الرهبان أدوارا جديدة كعمـال فـي حركـة (العمال الرهبان).

---

[٣٢] أنظر مقالنا: كاميلو ثوريز، القديس الثائر، قضايا معاصـرة (١) ص ٢٨١ – ٣١٨.

اللاهوت الآن أصبح علم الجماهير، وعلـم الثـورات الشعبية في المجتمعات التي مازالت تستمد قيمهـا وأنمـاط سلوكها من تراثها الديني مثل المجتمعات في أفريقيا وآسـيا وأمريكا اللاتينية، واتحد بعلم الاجتمـاع السياسـي وبعلـم الاجتماع الديني. لقد فرض الواقع الثوري للمجتمعات الدينية نفسه على علماء اللاهوت، ولم يتركـوا ثـورة الجمـاهير ليعالجها رجال الشرطة والجيش وحـدهم بـأمر السـلطات القائمة بل تناولوها هم كموضوع للعلم ومنهم من انضم إليها، فالدين علم وعمل، توحيد واستشهاد!

٧ – الوحدة الوطنية:

ويرمي (اليسار الإسـلامي) إلـى عقـد حـوار بـين الاتجاهات الإسلامية كلها في العالم الإسلامي دون الـدخول في جدل أو مهاترات ودون إثارة لأحقاد أو بـث لضـغائن أو لإحداث فرقة بين المسلمين، لـيس (اليسـار الإسـلامي) مذهبا جديدا في الإسلام، وليس فرقة كلامية، وليست مدرسة فقهية بل محاولة للتوحيد بـين المسـلمين طبقـا لحاجـات عصرهم ومتطلباته من حرية وعدالة وتقدم بعـد أن شـتتهم المذاهب وتفرقوا شيعا (كل حزب بما لديهم فرحـون) (٣٠:

٣٢)، وتمكن الاستعمار منهم طبقا لشعاره (فرق تسد) فوحدة الفكر الشرط الأول لوحدة الأمة.

يوجه (اليسار الإسلامي) أولا نداء إلى (الإخوة في الله) القائمين على مجلة (الدعوة) الإسلامية، ويذكر لهم جهـادهم في مصر والعالم الإسلامي. صحيح أن بعض كتابها قد زاد وعيه بالقضية الاجتماعية ولكن ظل ولاء معظمهم للأصـل قائما، نعقد الحوار بيننا وبينهم، فيم نتفق وفيم نختلف، نتوحد على نقاط الاتفاق، ويحترم بعضنا بعضا في نقاط الاختلاف، قد يكون اختلافنا في الشكل لا في الجوهر، فـي الصـورة لا في المضمون، في اللغة لا فـي المعنـى، فـي المـنهج والوسيلة لا في الهدف والغاية، ومع ذلك فإن اختلاف الأئمة رحمة بينهم. وقد رأى جمهور الأمة إنه في ميدان الاجتهـاد لا يكون الحق واحدا بل تتعدى الحقائق ما دام فيها جميعا نفع عملي لجماهير المسلمين. و(الإخوان المسلمين) داخل مصر وخارجها يمثلون تيارا أصيلا فينا، لهم جهادهم الذي تـذكره لهم مصر والعالم الإسلامي كله في صراعهم ضـد الملكيـة والاستعمار، وجهادهم في فلسطين وفي القنال. وقع صـدام بينهم وبين الثورة المصرية، وهو أقسى ما وقع من صدام في

حياتنا المعاصرة، حدث أليم حز في نفوسنا جميعا، وعارض تاريخي خسرت مصر من جرائه الكثير، فقد كـان بإمكـان الإخوان أن يكونوا السند الشعبي للثورة، وهي التـي ظلـت حتى الآن بلا تنظيم سياسي شعبي قادر على تجنيد الجماهير، وكان يمكن للثورة أن تكون تحقيقا لأهداف الإسلام لولا أنها ظلت على مستوى الشعار في غالب الأحيان، لـم تتجـاوز العلمانية والوطنية إلى تراث الأمة وروحها تعيـد تفسـيره بحيث يكون محققا لأهدافها ومطالبها القومية فـي الحريـة والعدالة، ومنذ ذلك الصدام لم يبق الإخوان في الساحة لتربية النفوس فخربت الذمم وفسدت الضمائر، وتهرأ الناس، وضاع الولاء[٣٣]. لا نكفر أحدا ونرجو إلا يكفرنا أحد بـل نـدعو الناس إلى كلمة سواء بيننا وبينهم يكون فيها الحد الأدنى من وحدتنا الوطنية. نتجاوز الشعار إلى الواقع، ونترك الشـكل إلى المضمون، وقد استطاع النبي بحواره مع الناس وإقناعه

---

[٣] انظر مقالاتنا الثلاث: (ماذا خسرت مصر بالقضاء على الإخوان) (ماذا كسبت مصر من جماعة الإخوان) (كيف يمكن تطوير فكر الإخـوان) الجمهورية، ٧٦/٢٠، ٧٦/٥/١٠، ٧٦/٥/١٩. وأيضـا فـي الجـزء السادس: الأصولية الإسلامية.

لكافة الاتجاهات استمالتهم للإسلام أيام الحجيج ومقابلته لوفود القبائل. كما استطاع رسل علي إلى الخوارج إقنـاع الآلاف منهم بعدم الخروج على علي وإرجاعهم إليه. ولكنـا حتـى الآن لم نجرب الحوار في حياتنا بين القوى الوطنية، فيـرى الحكام أن فريقا واحدا هو الوطني والباقي خونـة عمـلاء. فحديث الفرقة الواحدة الناجية وضلال جميع الفرق الأخـرى ما زال يفعل في ثقافتنا الوطنية، ويوجه سـلوكنا اليـومي، ويحدد رؤيتنا للعالم، وأن جميع المحاولات التي نشأت فـي حياتنا المعاصرة باستثناء تلك التي كانت تقوم بحركة تحـرر وطني ضد الاستعمار الغربي، من أجل قيام وحـدة وطنيـة كانت مجرد ائتلاف سياسي له نفع عاجل وهـو معارضـة النظام القائم أو ستارا يخفي وراءه القبلية الفكرية أو التعصب الأيديولوجي، يحاول كل فريق أن يستأثر بأكبر قدر ممكـن من المناصب القيادية حتى تكون له الغلبة علـى الأخـرى، صراع مكتوم داخل بوتقة الوحدة[٣٤].

---

[٣٤] انظر مقالنا السابق: الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديمقراطية في وجداننا المعاصر، المستقبل العربي، ينـاير ١٩٧٩، وأيضـا الجـزء الثاني : الدين والتحرر الثقافي.

ونتوجه ثانيا بنداء إلى (الإخوة في الوطن) الماركسيين والناصريين والليبراليين أن يتحاوروا مع (اليسار الإسلامي) بالحسنى. فإن كنا نتفق في الأهداف: الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية إلا أن وسائلنا قد تكون أنجع وأسرع وأبقى باللجوء إلى تراث الأمة وتأصيل أهدافها فيها، وجعل مستقبلها استمرارا لماضيها، ووضع حاضرها في مسار تاريخها. فقد ساهموا جميعا في تاريخنا الوطني الحديث، ومسكوا بزمام السلطة قبل الثورة المصرية أو بعدها، في تآلف حزبي أو بمفردهم خارج مصر في عالمنا العربي والإسلامي. لقد أسس الليبراليون بدايات الاقتصاد الوطني في مواجهة الاستعمار الاقتصادي كما دافعوا عن حرية الفكر، وأذكوا الروح الوطنية، وبدءوا حركة التحرر الوطني، كما ساهم الماركسيون في الصراع ضد الاستعمار ومقاومة أعوانه في الداخل وتقوية الوعي الطبقي لدي العمال، وتكوين طليعة ثورية من الطلبة، والقيام ببدايات الوحدة الوطنية في لجنة الطلبة والعمال في ١٩٤٧. وقام الناصريون بأكبر إنجاز اجتماعي في تاريخنا الحديث منذ محمد علي بتطبيق

المبادئ الست الشهيرة: القضاء على الإقطاع، والقضاء على رأس المال، والقضاء على الاستعمار، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وتكوين جيش قوي، وإقامة حياة ديمقراطية سليمة. وقد تم بالفعل تطبيق قوانين الإصلاح الزراعي الأول والثاني والثالث، وأممت قناة السويس، ومصرت الشركات الأجنبية، وتكون القطاع العام، وصدرت قوانين يوليو الاشتراكية في ١٩٦١، واستطاعت الناصرية تأسيس حركة ثورية منذ دحر العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦، وتدعيم الحركات الثورية في العالم الثالث، والدفاع عن الاستقلال الوطني والإدارة المستقلة للشعوب وتحويل مصر إلى مكانها الطبيعي كمركز ثقل في العالم العربي والإسلامي، فتآمر الاستعمار العالمي عليها وألحق بها الهزيمة في عدوان ١٩٦٧ حتى اختفت الناصرية كزعامة سياسية في سبتمبر ١٩٧٠ وإن ظلت حية في وجدان الشعوب تظهر من جديد أو في الانتفاضات الشعبية في الثورة الإسلامية العظمي في إيران.

إن (اليسار الإسلامي) يمكن أن يلتقي عليه الاتجاهات التحديثية (الإخوة في الله) (الإخوان المسلمون) لا يرفضون

إبراز الجوانب التقدمية في تراثنا وديننا. والتقدم مطلب العصر لدي شعوبنا المتخلفة. يجمعنا الإسلام، ونلتقي على الوحي، ونستقي من نبع واحد. لا ينكرون علينا دفاعنا عن فقراء الأمة وأخذ حقوق مستضعفيها وقد كانوا هم البادئون بلسان الإمام الشهيد سيد قطب بالحديث عن (العدالة الاجتماعية في الإسلام) و (معركة الإسلام والرأسمالية). وكتاباتهم في الفقر والمال والمصاريف والثورة في الإسلام عديدة. فنحن منهم وهم منا لو صفت القلوب، وخلصت الضمائر، واستنارت العقول، وخفت حدة القبلية والعشائرية، وعدنا جميعا أبناء وطن واحد لا يتهم بعضنا البعض بالكفر والإلحاد أو العمالة والخيانة. ولماذا يكون كل من يركز على الفقراء والمستضعفين ماركسيا؟ ولماذا يكون كل من يدعو للحرية والديمقراطية شيوعيا؟ إننا بذلك نعطي المذاهب الغربية أكثر مما تستحق، ونترك لها جزءا من الإسلام ونفرغه منه. بل إننا نكون بذلك أكبر مانع أمام ترويج المذاهب التقدمية الغربية التي يرفضها الإخوة في الله لأننا نأخذ حقوق الفقراء من أموال الأغنياء باسم الله، ونثور على الطغيان باسم الله. نرجوا من إخواننا في الله ألا يكفرونا وألا

يلعنونا، فنحن منهم، ننضم تحت لوائهم. إنما نحن فقهاء وهم متكلمون، نحن نركز على الشريعة وهـم يركـزون علـى العقيدة، وكلانا يكمل بعضنا بعضا. كلانا أصـوليون، نحـن أصوليو فقه وهم أصوليو دين.

أما (الإخوة في الوطن) (الماركسيون) فإنهم لا يرفضون (اليسار الإسلامي) إذ يجمعنا وإياهم الوطن، فكلنا ثوريـون وطنيون ولكننا ثورة وطنية لها جذورها في ثقافة الأمة فـي تراثها الوجداني الذي مازالت تعيشه، ويمـدها بتصـوراتها للعالم، ويحدد قيمها، ويوجه سلوك أبنائهـا، وقـادر علـى تحريك الجماهير وحشدها، لا نحتـاج إلـى ثقافـة غربيـة أو مصطلحات فلسفية، ولا نجد عناء في التثقيـف السياسـي للأمة من خلال الخلايـا الحزبيـة والمعاهـد الاشـتراكية والمنشورات الثورية والمطبوعات السياسـية والاقتصـادية. كلانا يتنافس من أجل الدفاع عن المستضعفين، والتنافس في الخير، ولنحتكم في النهاية إلى جماهير الأمة أينا أكثر تعبيرا عن حاضرها وماضيها: الثورة العلمانية أم ثورة الإسلام؟ إن الثورة العلمانية التي يقودها الإخوة في الوطن هي جزء مـن ثورة الإسلام كما أن ثورة الإسلام هي التـي تجمـع بـين

الفريقين، لأنها الثورة الشاملة، الثورة الأم، ثورة الحضـارة والتاريخ، ثورة الأمة بكافة طبقاتها، ثورة الهوية الصدئة.

أما (الإخوة في الثورة) (الناصريون) فإنهم لا يرفضون (اليسار الإسلامي). فقد قامت الثورات العربية لسوء الحـظ واصطدمت بالإخوة في الله صراعا على السلطة في غيـاب الوحدة الوطنية، والعمل في سبيل أهداف قومية واحدة. ولكن مشروع الثورات العربية في معاداة الاستعمار والصهيونية، والقضاء على الرجعية والتخلف، وتحقيق مجتمـع الحريـة والاشتراكية والوحدة هو فـي صـميمه مشـروع (اليسـار الإسلامي) لقد حاولت الثورات العربيـة تأييـد مشـروعها بالإسلام فيما سمي بالإسلام والاشتراكية أو الاشتراكية فـي الإسلام ولكن الرباط بين الاثنين كـان مفـتعلا، خارجيـا، خطابيا، دفاعا عن النظام القائم، وتأييدا لقـرارات السـلطة الثورية دون طلب المزيد، ودون البداية بالدفاع عن مطالـب الجماهير، دون أخذ زمام المبادرة، وبالتالي تساوت اشتراكية الإسلام مع رأسمالية الإسلام كلاهما دفـاع عـن نظـامين قائمين، والإسلام ضائع في ركاب الحكام. لم يكن الإسـلام إلا وسيلة لتبرير النظم القائمة، ولم يتجاوز وضـع أجهـزة

الإعلام، وعمل مثقفي السلطة ورجال الدين المحترفين[٣٥].

ولكن (اليسار الإسلامي) هو القيام بنفس المشروع من داخل الإسلام ذاته يبدأ بالدفاع، وينقد النظم القائمة، ويقدم أكثر البرامج تطورا وشمولا، يقوم به فقهاء الأمة أي طليعتها الثورية في استقلال تام وليس تأييدا لأحد إنما رعاية لصالح الأمة واستمرارا لتاريخها.

أما (الإخوة في الحرية) (الليبراليون) فإنهم يعتزون بنا (اليسار الإسلامي) كجزء من تراث الأمة حفاظا على روحها وحضارتها وهويتها في التاريخ. بل إن الطهطاوي مؤسس النهضة الليبرالية الحديثة كان من علماء الدين، يكتب في سيرة الرسول، ويتحدث عن الأمة والحرية والدستور بآيات الله وسنة النبي، وظل الإسلام مصدرا أساسيا في كتابات الليبراليين (لطفي السيد، طه حسين، العقاد) وتحدثوا عن المعذبين في الأرض وعن الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية في الإسلام، ودافعوا عن نهضة الأمة الإسلامية،

---

[٣٥] انظر مقالنا: عبد الناصر والدين، مجلة سفير، عدد خاص بمناسبة الذكرى التاسعة لوفاة عبد الناصر ١٩٧٩/٩/٢٩. وأيضا الجزء الثالث: الدين والنضال الوطني.

وارتبطوا بالإصلاح الديني وبإحيـاء التـراث الإسـلامي، ودخلوا في المعارك الوطنية ضد الاستعمار، واعملوا العقـل في التراث، ونقدوا الحضـارة الغربيـة، وأبـانوا أخطـاء الاستشراق. وهذه كلها عناصر منذ القرن الماضي لم تتحول بعد إلى تنوير شامل، قادر على التصدي للموروث، وإعمال العقل والتحرر من التقاليد، والاعتزاز بقدرة الإنسـان علـى اكتشاف قوانين الطبيعة وتأسيس العلم ووضع الإنسان كبؤرة للكون.

و(اليسار الإسلامي) يهدف إلـى إكمـال مـا بدأتـه الليبرالية، ونقل الأمة من الليبرالية إلى التنوير حتـى تقـوم ثوراتنا الاجتماعية على ثوراتنا الفكرية وحتى لا تتعـرض نهضتنا الحديثة إلى انتكاسة أخرى[٣٦].

ولا يرى (اليسار الإسلامي) أي حرج فـي أن يعتبـر نفسه إسلاميا أو عربيا أو عالميا أو قوميا، دينيا أم علمانيـا، فالإسلام دين وقومية، عربي وعالمي، ديـن ودولـة، فقـد خرجت الحركات الوطنية في مصر مـن ثنايـا الإصـلاح

---

[٣٦] انظر مقالنا: الضباط الأحرار أم المفكرون الأحرار، قضـايا عربيـة سبتمبر ١٩٧٩. وأيضا الجزء الثاني: الدين والتحرر والثقافي.

الديني، وكان الأفغاني هو رافع شعار (مصر للمصريين)، ومفجر الثورة العربية، وداعية للعرب وللعروبة، وكان مصطفى كامل وطنيا مسلما، وكان سعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم من تلاميذ محمد عبده. وقد رفع الطهطاوي من قبل شعار (حب الوطن من الإيمان). فالمسألة ليست أكاديمية نظرية أو مماحكات سياسية أو ادعاءات البلاغة والدقة بل هي من نقص في الوعي الوحدوي ومن بقايا الاستعمار لبث الفرقة والتشتت من أجل السيادة والسيطرة. إن الوحدة الوطنية التي يمثلها (اليسار الإسلامي) تضم في ثناياها هذه الدوائر المتداخلة التي لا تعارض بينها إلا في الذهن العشائري.

و(اليسار الإسلامي) لا يعبر عن ثورة المسلمين وحدهم بل هو أيضا ثورة أهل الكتاب الذين يمثلون جزءا من تراث الأمة وتاريخها الوطني ونضالها ضد الاستعمار، بل إن الطليعة الثورية فيهم تعتبر الإسلام تراث الأمة وتسميه (الإسلام السياسي) وتربطه بنهضة مصر، وبحضارة الشرق، ولا فرق في ذلك بينه وبين الكنيسة الشرقية في مواجهة الاستعمار الغربي، يحافظ على إبداع الشعوب التاريخية،

ويسترد من الغرب (فائض القيمة التاريخي) ويرفض الهيمنة الحضارية للغرب[٣٧]. ومنهم من يكشف عورات (الحوار بين الأديان)، وسيطرة الاستعمار على مؤتمراته من أجل احتواء الشعوب الإسلامية وخداعها بالإخاء الديني، ووقوعها تحـت براثن الاستعمار الجديد من خلال الحب الإلهي في مواجهـة الخطر الإلحادي ومن أجل البقاء على النظم التقليديـة فـي البلاد الإسلامية، والوقـوف كبـديل أمـام الشـعوب ضـد التحركات الثورية وحركات التغير الاجتماعي، وبيان مواقف الكنيسة الوطنية في مواجهة الاستعمار الغربي، ووحدة الأمة في لحظات الخطر ومواقف النضال المشترك[٣٨].

٨- شبهات ومخاطر:

و (اليسار الإسـلامي) مسـتقل تمامـا عـن الغـرب أو الشرق، لا هي ماركسية جديدة ولا هي ليبرالية ثوريـة، ولا هي حركات خوارج أو شيعة ولا هي هرطقة قرامطـة

---

(٣٧) ويمثل هذا التيار صديقنا د. أنور عبد الملك فـي دراسـاته ومقالاتـه وآثاره العديدة.

(٣٨) ويمثل هذا التيار د. وليم سليمان في كتبه ومقالاته.

أو زنج، يمثل تيارا فكريا حضاريا، ويعبر عن واقع الأمة، ويؤصل حركة اجتماعية سياسية في تراثها القديم، يمتد جذوره في الكتاب والسنة ولا يبغي إلا مصلحة جماهير المسلمين.

وتخرج هذه الكتابات عن (اليسار الإسلامي) في مصر قلب العروبة، ومركز الثقل في العالم الإسلامي، ورائدة الثورات العربية المعاصرة، وباعثة النهضة منذ القرن الماضي، ولماذا تظل مصر قفرا وتخرج الدراسات والأبحاث في العواصم العربية والإسلامية؟ فمصر قلب الإسلام، وجندها خير أجناد الأرض، وباعها في النهضة والبعث والإحياء طويل، وأصالتها وحفاظها على تراث الإسلام يشهد له الجميع، في مصر المحروسة.

ليس (اليسار الإسلامي) حزبا سياسيا، ولا يمثل معارضة حزبية، ولا يتوجه ضد أحد. يرى السياسة في ثقافة الأمة ونهضتها، ليس موجهة ضد حكومات أو نظم. ولا يثير فتنا في إمارات أو دول، ولا يحدث قلاقل في ملكيات أو جمهوريات، فالمعارك أساسا في ثقافة الأمة وداخل وعيها الحضاري. وليس مقياس النجاح لأية حركة هو الوصول إلى

السلطة، فقد وصل الكثير منها إليها ولكنه فشل في إحداث التنوير الشامل، وقد لا يصل البعض منها إلى السلطة ويكون له أبلغ الأثر في حياة الأمة واستنارة الشعوب، وربما حكمت أحزاب دون أن تحدث أي تغيير في حياة الشعوب، وربما لم تحكم تيارات وأحدثت أعظم الأثر في عدة أجيال.

لا يهدف (اليسار الإسلامي) استنفار أحد أو الاستعداء على أحد بل يرمي إلى يقظة الأمة، واستئناف نهضتها الحديثة، وطرح البدائل أمام الناس، والاحتكام إلى جماهير الأمة، وتجاوز الحلول الجزئية والنظرات الفردية إلى تصور كلي وشامل لوضع الأمة في التاريخ وتحديد دورها مع نفسها ومع غيرها.

ليس (اليسار الإسلامي) مجرد إثارة للحمية الإسلامية في قلوب الناس، فهذه الوحيدة الباقية كرصيد للأمة وكمعين لا ينضب بل الهدف هو تحويل ذلك إلى عقل وحوار، واستنارة وتوعية حتى تتوجه هذه الحمية للدفاع عن مصالح الإسلام، وليس في الصراخ والعويل أو في الشعائر والطقوس، وإطالة اللحى والتسبيح في الطرقات، وقراءة القرآن في المركبات العامة، وبناء المساجد وإنارة المآذن،

وكتابة الآيات القرآنية بالنور على دور العبادة أو الشعارات الدينية على جدران الأبنية.

ولا تمثل هذه الكتابات تيارا واحدا. إذ يضم (اليسار الإسلامي) مجموعة من الكتابات والآراء المتعددة، وكل كاتب مسئول عن فكره ولكن تجمعها جميعا الرغبة في إبراز الجوانب التقدمية في الإسلام وعناصر الثورة في تاريخنا، قد يقترب بعض الكتاب من (الإخوة في الله)، وقد يقترب البعض الآخر من (الإخوة في الوطن) وقد يقترب فريق ثالث من (الإخوة في الثورة) وقد يقترب فريق رابع من (الإخوة في الحرية) ولكن يجمعهم البحث والاجتهاد، وللمخطئ أجر وللمصيب أجران، واختلافنا كاختلاف الأئمة، وكاختلاف الصحابة، كلنا يبغي الحق ويعمل له ويشهد عليه. ولا يدعي أحد إنه الحق ودونه الباطل بل يجتهد الرأي ويرشد إلى الحق، ويسدي النصح.

أما شبهات الإلحاد والكفر فهي شبهة تنم عن الضعف، وقلة الحيلة، وسوء النية، والتزلف إلى الحكام والدفاع عن المصالح الشخصية، وسيلتنا البرهان، وحجتنا الدليل. نحن مجتهدون كما اجتهد القدماء، لا نكفر أحدا ونرجو إلا يكفرنا

أحد. نسير في نفس التيار الذي سار فيه علماء الأمة الأجلاء الذين لاقوا صنوف العذاب من جراء قولهم الحق، ورفضهم إصدار الفتاوى لتأييد السلطان، طريقنا هو الصمود في الحق ضد نوازع الهوى. وما من فقيه أو عـالم حـاول ذلـك إلا وكانت نهايته السجن والتعذيب أو الموت والاستشـهاد منـذ الإمام أحمد بن حنبل في محنته حتى الإمامين الشهيدين حسن البنا وسيد قطب.

ليس (اليسار الإسلامي) إسلاما في ثوب الماركسية فذلك تفريغ للإسلام من مضمونه الثوري وإعطاء الماركسية أكثر مما تستحق، وإنكار لمصالح المسلمين وواقعهـم ومطـالبهم للتحرر من الاستعمار ولتحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية، وليس ماركسية في ثوب الإسلام فتلك سوء نية وخوف وجبن وانتهازية لا يتسم بها فقهاء الإسلام وينأى علمـاؤه عنهـا. وليس توفيقا بين الإسلام والماركسـية أو بـين الماركسـية والإسلام فالتوفيق ليس فكرا، ولا يمثل ارتباطا بواقع، وليس تأصيلا وبحثا في الجذور، إنها تهمـة المستشـرقين دائمـا للقضاء على حيوية الحضارة الإسلامية وقدرتها على التجديد

والتمثل والإبداع من أجل إنكار قدرة الإسلام ذاته على أن يكون نظاما للمسلمين في كل عصر ولكل جيل.

ليس في (اليسار الإسلامي) أي أثر ماركسي لا في الشكل ولا في المضمون بل فيها تعبير عن واقع المسلمين وتأصيل لثورتهم المعاصرة في تاريخهم وحضارتهم وفي أصولهم الأولى في الكتاب والسنة، وليس فيها أي أثر غربي على الإطلاق بل إنها تمثل أساسا تحديا للغرب. وليس التنوير قاصرا على الغرب بل إنها مرحلة تمر بها كل حضارة، وقد مررنا بها نحن أولا عند المعتزلة القدماء.

إن (اليسار الإسلامي) إنما يعبر عن حاجة المسلمين اليوم إلى فكر ونظام، إلى حركة وتغير، إلى قديم وجديد، إلى أصالة ومعاصرة، ولا يدعمه إلا الجهد الفردي حتى يحافظ على استقلاله وبالتالي تحيا الأمة من خلال تاريخها، ويكون (اليسار الإسلامي) من جديد هي (العروة الوثقى) التي حددت مشروع المسلمين في مقاومة الاستعمار، ومناهضة اليسار الإسلامي مظاهر الظلم والطغيان، وتحرير المسلمين وتوحيدهم، فنحن تلاميذ الأفغاني، نشارك في الثورة العربية، ولا نندم بعدها حتى ولو فشلت الثورة، ولا نحولها إلى مجرد

حركة سلفية بل تطورها وتقدمها ثورة للخلـف. ومـا زال الأفغاني بالنسبة لنا، وكما هو منقوش علـى قبـره بجـوار جامعة كابول بأفغانستان (رائد الحركة الثورية الإسلامية).

حوار حول الوحدة الوطنية *

لقد آن الأوان أن نفكر في وحدتنا الوطنية بعد احتـدام الصراع طويلا بين تيارين أساسيين فيها: السلفية والتحررية، المحافظة والتقدمية، الإسلامية والاشتراكية، ولا أقول بـين اليمين واليسار، يحدث هذا الحوار بين مجلة (الدعوة) ومجلة (روزاليوسف) كي نعرف أوجه الاتفاق والاختلاف بينهمـا، هل هناك اختلاف جوهري في الظاهر والباطن أم أن هنـاك اتفاقا باطنيا وخلافا ظاهريا؟ لقد آن الأوان أن نعرف الحـد الأدنى من الاتفاق بين مدارسنا الفكرية المختلفة حتى لو كان بين أكثرها تباينا. ومن يدري؟ فربما عـادت إلـى ثقافتنـا

---

* كتب هذا الحوار في الوقت الذي شعرت فيه أن مجلـة (روزاليوسـف) ومجلة (الدعوة) في أعوام ١٩٧١ – ١٩٨٠ يقولان نفس الشيء مـن حيث المضمون وان اختلفتا في المنطلق والمنهج. واحترت أن أبدأ هذا الحوار ابتداء من (الدعوة) أو ابتداء من (روزاليوسف) . ولكن لم يـر المشروع النور وظلت الدعوة إلى الحوار بين الفريقين مجـرد نـداء. وهو السبب الذي من أجله أنشأت فيما بعد مجلة مسـتقلة لـذلك هـي (اليسار الإسلامي) عام ١٩٨١ وقد كتبت هذه الصـياغة عـام ١٩٨٨ ابتداء من المسودة الأولى في السبعينات.

الوطنية وحدتها، وبالتالي تقوى وحدة علمنا السياسي علـى أساس مبدئي وليس مجرد تجمع فئوي مظهـري. فالوحـدة الوطنية ليست مجرد شعار أو دعوة أو تمثيل نسبي لها فـي المؤسسات القومية، بل هي وحدة تبنى بالحوار بين التيارات الفكرية المختلفة التي هي في جوهرها تيارات سياسية، لكـل منها جماهيره. وطالما يعقد هـذا الحـوار فسـتظل مصـر مشطورة إلى قسمين، يتنازعها ربانان، كل منهما يريـد أن يذهب بها إلى اتجاه، خطوة إلى الوراء وخطوة إلى الإمـام. ثم توقف عن السير حتى تهوي إلى القاع أو يضيع العمر ولم يتحقق شيء، وقد ضاعت الوحدة الوطنية التي قامت به لجنة الطلبة والعمال في ١٩٤٧ لنفس السبب، ولا نريد أن يكـرر التاريخ نفسه.

إن حديث الفرقة الناجية القديم (ستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة) وهـم أهـل السـنة والحديث أي فرقة السلطان، إنما هو حديث ضعيف يشـكك في صحته ابن حزم لأنه ضد روح الأمة التي لا تفترق على ضلال والتي فيهـا اخـتلاف الأئمـة رحمـة بيـنهم. وأن الصياغات المتعددة لهذا الحديث بين العام والخـاص، بـين

الإطلاق والتقييد لتدل على وضع هذا الحديث ضد فرق المعارضة الخوارج والشيعة والمعتزلة لصالح فرقة السلطان أعني الأشعرية[1] وفرق اليوم أربعة: الإخوان المسلمون أو الجماعات الإسلامية أو الحركات الإسلامية أو التيار الإسلامي بوجه عام، والشيوعيون أو الماركسيون، والليبراليون، والناصريون أو القوميون أو الاشتراكيون، وفي حقيقة الأمر يمكن رد هذه الفرق الأربعة إلى اتجاهين رئيسيين: الإخوان والشيوعيون، فالليبراليون قد يتحالفوا مع الإخوان، والناصريون قد يتحالفوا مع الشيوعيين، وبصرف النظر عن إمكانيات التحالف من الناحية السياسية الصرفة، مع أن ذلك واقع في جيلنا، إلا أن التحالف النظري وارد نظرا لوحدة الرؤية لكل من فريقي التحالف، الاقتصاد الحر بين الإخوان والليبراليين، والاقتصاد الموجه بين الشيوعيين والناصريين.

---

[1] أنظر تحليلا وافيا لهذه الصياغات في (من العقيدة إلى الثورة)، المجلد الخامس (الإيمان والعمل – الإمامة)، خاتمة: من الفرقة العقائدية إلى الوحدة الوطنية ص ٣٩٣ – ٤٠٧، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٨٨.

ولكن يظل السؤال: من الذي يبدأ بالحوار وأين؟ من الذي يمد يده للمصافحة وفي أي دار؟ (الدعوة) أم (روزاليوسف)؟ والحقيقة أن ثورة ٢٣ يوليو ما زالت هي المنوط بها عقد هذا الحوار باعتبارها الداعية إلى الوحدة الوطنية، وللتحالف القومي، وباعتبارها هي القادرة على صهر هذين التيارين، وباعتبارها هي المعبرة عن مصر وشعبها، فما زال الشعب يذكر نداءها الأول ومبادئها الستة، وصدها للعدوان الثلاثي، ووحدتها مع سوريا، وبناءها الاشتراكي، ومساندة اليمن، ومقاومة الأحلاف، والصمود بعد الهزيمة، وإعادة بناء الجيش، وحرب الاستنزاف، والإعداد للعبور. وبالرغم من تعثرها بعد ذلك إلا إنه لا يصعب إقالتها من عثرتها ما دامت قد قامت في مصر، واستمرت في مصر، وعملت لشعب مصر، واستلهمت روح مصر.

ويبدو الخلاف بين هذين التيارين الأساسيين في ثقافتنا الوطنية في النقاط العشرة الآتية:

١ - القديم أم الجديد؟: يبدو الخلاف بين هذين التيارين في موضوع اللغة، إذ يستعمل كل فريق لغة يرفضها الآخر، ويتم الرفض أساسا من الفريق الإسلامي الذي يرفض أية لغة

خارج لغة العقائد والشعائر، ولا يدرك أهمية ألفاظ الحريـة والعدالة الاجتماعية بالنسبة لوجدان العصر، فهـو يتحـدث، ويعبر عما يجيش في نفسه بلغة الدين، ولغة الـدين متغيـرة حسب العصور، فيمكن أن أعبر عن لفظ (الله) بلفظ العقـل، والمطلق، واللانهائي، والصورة كما فعل الحكمـاء القـدماء أو الوجود، والنور، والحق، والحبيب كمـا فعـل الصـوفية أو الخالق، والقديم والواحد كما فعل علمـاء أصـول الـدين أو الشارع كما فعل علماء أصـول الفقـه. وكلهـا ألفـاظ للاستعمال. ولما كانت المعركة في تراثنا القديم مـع المـل والنحل القديمة فقد اضطر القدماء للرد عليها، واستعملوا لغة العقائد القديمة التي ما زلنا نستعملها حتى الآن في عصر لم يعد عصر الملل والنحل بل في عصر التحرر والاسـتقلال والعدالة الاجتماعية، ومن ثم كان أقرب إلى الطبيعة أن تتغير اللغة أيضا وتصبح لغة العصر، فعندما يستعمل الفريق الأول لفظ (الله) مشيرا إلى أغلى ما لديه وأعلى قيمة عنـده فـإن الفريق الثاني يستعمل لفظ (الحرية) باعتبارها المطلب الأول للعصر. خطأ الفريق الأول إذن أنه يستعمل لغة قديمـة دون أن يبرز فيها مطلب العصر، وقد استطاع سيد قطـب فـي

(العدالة الاجتماعية في الإسلام) تجاوز هذا الخطأ وتفسـير التوحيد باعتباره تحـرر الوجـدان الإنسـاني، والمسـاواة الإنسانية، والتكافل الاجتماعي، أي أنه اسـتطاع أن يعطـي اللفظ القديم المضمون الجديـد مـن مقتضـيات العصـر، ومستعملا لغته، ولكن لسوء الحظ لم يكمل أحد من جيلنا مـا بدأه سيد قطب، فإذا ما تحدث الفريق الأول عن الدين فـإن ذلك يعني الأيديولوجية التي يتحدث عنها الفريق الثاني، وإذا ما تحدث الفريق الأول عن أمـور المعـاد أو مـا يسـمى بالأخرويات، ما يحدث في نهاية العالم بعـد المـوت، فإنـه المستقبل عند الفريق الثاني وما سيحدث في العالم فيما بعـد، وإذا ما استشهد الفريق الأول بقصص الأنبياء فإنه هـو مـا يفعله الفريق الثاني باستشهاده بالتاريخ. وإذا ما تحدث الفريق الأول عن الإيمان والعمل فهو ما يقصـده الفريـق الثـاني بالحديث عن النظر والعمل، وإذا ما تحدث الفريق الأول عن الإمامة والخلافة فإنه هو ما يقصده الفريق الثاني بحديثه عن الدولة والسلطة، وإذا ما تحدث الفريق الأول عن النبوة فـإن هذا ما يعنيه الفريق الثاني بحديثه عـن الزعامـة، وتجنيـد الجماهير، وقيام الثورة، وبناء الحـزب، وتأسـيس الدولـة.

ولا يعني ذلك أن المعنى عند الفريقين واحدا، ولكـن يعنـي فقط أن موضوع الحديث واحد ولكن بلفظين مختلفين، فـلا فرق بين أن يقول الفريق الأول (محمد رسول الله) وبين أن يقول الفريق الثاني (محمد رسول الحرية). فالله هو الحرية. إنما الخلاف في أن اللفظ (الله) لفظ قـديم و(الحريـة) لفـظ جديد.

تتحقق وحدتنا الوطنية إذن بأن يتخلى الفريق الأول عن اللغة الدينية التاريخية القديمة التي ورثناها من تاريخنا القديم والتي تطلبتها ظروف العصر القديمة، وبـأن يتبنـى لغـة العصر الحديث والألفاظ التي تثير وجـدان الشـباب مثـل الحرية، والعدالة الاجتماعية، والتقدم، والثـورة، والتغيـر، والتنمية، والاستقلال، والعـالم الثالـث، وعـدم الانحيـاز، والشعب، والجماهير، والتحالف، فهي القادرة علـى التعبيـر عن مضمون الإسلام بهذه اللغة، وهي الأقدر على التعبيـر عن مصلحة الجماهير خاصة وأن الفريق الأول هو المؤهـل لقيادتها. فهو موضع الثقة من الناس، يتكلم لغتهـا. ولـيس نخبويا يحدث الناس بما لا يفهمون مجتث الجـذور، ألفاظـا جوفاء كقرع الطبول.

٢- الاستنباط أم الاستقراء؟ ونقطة الخلاف الثانية تتعلق بالمنهج. إذ يستعمل الفريق الإسلامي مـا يمكـن تسـميته بالمنهج النازل. وهو المنهج الذي يبدأ من النص إلى الواقعة. وهو ما عرف بطريقة (قال الله) و (قال الرسول). فـالنص حجة للإقناع، وحكم للتنفيذ. ولكن عيوب هذا المنهج هو أنـه يبدأ من خارج الواقع أي لا يتعرض لمشكلة واقعية تحـدث في حياتنا. كما أنه يعتمد على السلطة، سلطة الوحي، ولـيس على العقل. وفي غياب العقل يسود الانفعال. كمـا أن هـذا المنهج كثيرا ما يسيء تفسير النص، ويخرجه عـن سـياقه. كما أن اختيار النص يقوم على ما يريـد المحـاور إثباتـه، والمحاور الآخر يجد أيضا نصا في صفه، يفسره لصـالحه، ويخرجه أيضا عن سياقه، وينتهي الأمر إلى معركـة بـين النصوص وبخلاف التفسيرات، ويصبح واقعنا فيه قـولان! لذلك جعل القدماء كل الحجج النقلية ظنية، وأن كل النصوص مهما تضافرت على شيء فإنها تظل ظنية، ولا ترتقي إلـى مرتبة اليقين. فاليقين لا يحدث إلا بالعقل.

أما المنهج الثاني الذي يستعمله الفريق المتهم فهـو مـا يمكن تسميته بالمنهج الصاعد. وهو المنهج الذي يبـدأ مـن

الواقع وبالمصلحة العامة ثم يختار النصوص طبقا لها
أو لا يشير إلى النصوص بتاتا لما كانت المصلحة العامة هي
أساس النص. وقد حدد القدماء مقاصد الشريعة الكلية بأنها
تقوم على المحافظة على الدين، والحياة، والعقل والعرض،
والمال. ولما كنا في كل يوم نعاني من قضايا مصيرية ثلاثة:
الاحتلال، والتخلف، ولا مبالاة الجماهير، فإن الفريق الثاني
يتحدث باستمرار عن تحرير الأرض، وعن القضاء على
مظاهر التخلف مثل الفقر فيعمل على تذويب الفوارق بين
الطبقات، والجهل فيعمل على محو الأمية، والمرض فيدعو
إلى التأمين الصحي، كما يحاول القضاء على سلبية الجماهير
وذلك بتبني مصالحها الأساسية، والدفاع عنها حتى تعود إلى
الجماهير ثقتها المفقودة في العمل السياسي وجدواه. وقد
حاول القدماء الجمع بين الحجة النقلية والحجة العقلية. ولكننا
نحن ما زلنا نتصارع ونختلف، كل فريق يأخذ بقسم،
ويعارض الفريق الآخر.

والخلاف حول المنهج خلاف طبيعي، إذ يتحمس الفريق
الأول للنص، ويتحمس الفريق الثاني للواقع. وقد وقع ذلك
أيضا بين الصحابة عندما كان أبو بكر يتحمس للنص، وعمر

يتحمس للواقع، وكان الرسول يدعو أبا بكر للنزول قليلا، وكان يدعو عمر للصعود قليلا. فائدة النص الالتصاق بالجماهير، وجذب انتباهها، وشحذ هممها، والوصول إلى قلبها، واستلهام تراثها، وفائدة الواقع مخاطبة الخاصة بلغة الإحصاء، وتوجيه العلماء نحو التحليلات الكمية، وسبر العلل وتقسيمها على ما يقول الفقهاء، وضبط النصوص المتشابهة وتأويلها طبقا لاحتياجات الواقع هو الوسيلة للتوحيد بين المنهجين كما فعل الأصوليون القدماء في القياس الشرعي استنباط العلة من الأصل وهو النص، واستقراء نفس العلة من الفرع وهو الواقع حتى يمكن تعدية حكم الأصل على الفرع. وقديما حاول الفارابي ذلك بين الفلاسفة في (الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطوطاليس الحكيم). وهذا هو روح الشافعية الذي يجمع بين أصل الحنفية وواقع المالكية.

٣- الله أم الإنسان؟ ويحدث خلاف آخر حول الغاية. إذ يصر الفريق الأول على الدفاع عن الإسلام. ويتصور أن الله هو الهدف الأسمى من هذا الدفاع. فيدافع عن حقوق الله، وعن شريعة الله، وعن عقيدة الله، وعن وجود الله، وعن

صفات الله، وكأن الله في حاجة إلى من يدافع عنه، وكأن الله لم يذكر عن نفسه (أن الله غني عن العالمين). فيضحي بالإنسان وبالواقع كله من أجل الدفاع عن الله في حين أن الله لا يحتاج إلى دفاع، بل الإنسان هو الذي في حاجة إلى دفاع، وواقعنا هو الذي في حاجه إلى رعاية، وأمتنا هي التي في حاجة إلى حماية، وأرضنا هي التي في حاجة إلى نضال. وكثيرا ما يتم الدفاع عن الله بمزايدة في الإيمان، يظن المدافع أنها تعطيه تفوقا على الآخر منذ البداية، وكثيرا ما تخفي إما ضعفا في الإيمان أو نقصا في العلم أو أخذا بأسهل طرف الحديث. ما أسهل الدفاع عن الله الذي يؤمن به كل الناس، وما أسهل الحديث في البديهيات التي لا يعارضها أحد. ونحن نعلم أن الله لم يجعل نفسه موضوعا للحديث أو للدفاع بل تحدث إلى الإنسان وجعله موضوع حديثه في الوحي الذي أرسله على لسان الأنبياء. فكيف يأتي الفريق الأول، ويقلب مقصد الله، ويغير اتجاه الوحي، ويأخذ الله موضوعا لحديثه بالدفاع عنه مع أن الله لم يأخذ نفسه موضوعا للحديث بالدفاع عن نفسه؟ بل إن حديث الله عن نفسه في الوحي كان من أجل تعريف الإنسان به، وتحرير

وجدانه، وإعطائه بعد الشمول، وكشفه له وجود القيم، وتمثل المبادئ.

أما الفريق الثاني فإنه يبدأ خلافا لـذلك بحديثـه عـن الإنسان، وعن واقع الإنسان، ويحلل الموقف الإنساني في كل أبعاده الفردية والاجتماعية، والنفسية والجسـمية، السياسـية والاقتصادية، دون مزايدة في الإيمان، فمن له إيمان لا يزايد على إيمان الآخرين. دون إحساس بالنقص. من يعيش فـي الواقع وليس خارجا عنه، ومن يعلم قدراته وإمكانياته، ومـن يقوم بواجبه الوطني لا يشعر بنقص إزاء الآخرين، بل يكون موضع ثقة من نفسه ومن مجتمعه على السـواء. والإنسـان لدينا هو الذي في حاجة إلى دفاع. فهو المطحون في أنظمتنا الوضعية، وهو المقهور في نظمنا السياسية، وهو المسـتغل في أوضاعنا الاقتصادية. واقعنا هو الذي فـي حاجـة إلـى دفاع. فالأرض محتلة، والموارد الطبيعية فـي حاجـة إلـى استثمار، والمجتمع في حاجة إلى تنمية، وبالتالي يكون منهج الفريق الثاني أقرب إلى منهج الوحي الذي هو أساسا دفـاع عن الإنسان، فلو أعاد الفريق الأول صياغة منهجه بدل هذه الثنائية بين الجامعة الأزهرية والجامعة الوطنية، وبدل هـذا

الفرق بين علوم الدين وعلوم الدنيا، بين علوم الغايات وعلوم الوسائل، وبالتالي يبطل اتهام الفريق الأول بالكهنوتيـة كمـا يبطل اتهام الفريق الثاني بالعلمانية، فلا كهنوتية ولا علمانية في الإسلام. لا يمكن الحديث عن الله بدون الإنسان، كما أن الحديث عن الإنسان هو في حد ذاته حديث عن الوحي وهو كلام الله.

٤- الصورة أم المضمون؟ وقد يكون الخـلاف حـول نظرية التفسير. إذ يفسر الفريـق الأول النصـوص الدينيـة تفسيرا صوريا خالص وكأن الدين موضوع مسـتقل بذاتـه خارج الزمان والمكان. وبالتالي تكثـر الأحاديـث الدينيـة، وتزدهر المجلات الإيمانية، ويتبارى الشراح والخطباء فـي فهم الدين، يظهر كل منهم براعته في الحديث، وقدراته فـي اللغة، وحفظه للقرآن، ووعيه بالتاريخ، ودرايتـه بالسـيرة. ولكن لا توجد إشارة واحدة إلى مضمون معاصـر أو إلـى قضية من القضايا المصيرية التي تواجهها البلاد، وكأن هذه القضايا أقل بكثير مما يثيره الشيخ المفضال.

أما الفريق الثاني فإنـه يتعامـل مـع المضـمون دون الصورة، ويعطي تحليلات للواقع، وإحصاء لمشاكله، ورصدا

لحاوله، معتمدا في ذلك على الإحصاء، وهو علـم الواقـع. فالواقع مضمون الدين. ويكون الخلاف بين هذا الفريق هـو في مدى التزام كل منهم بالواقع ومدى دفاعه عن الطبقـات الدنيا في مواجهة الطبقة العليا.

هناك إذن خلاف بين الفريقين. وبلغة الأصوليين نقول: إذا كان القياس الإسلامي يقوم على ركائز أربعة: الأصـل، والفرع، والعلة، والحكم، فإن الفريق الأول يمكث مع الأصل أي النصوص الدينية التي حوت كل الأحكام وعللها في حين أن الفريق الثاني يبرز الفرع، ويبحث عـن العلـة المـؤثرة أو المناسبة أو الملائمة. فالتفسير الصوري لن يغيـر شـيئا؛ لأنه لا يتحدث عن واقع معين بل يظل يشرح النص، ويجعل النص صورة ومضمونا في آن واحد. أما إبراز المضـمون وفهمه فهو الذي يعطي النص مادته وواقعه ومناطه. وبالتالي كان التفسير بالمضمون هو وسيلة تحقيق وحدتنا الوطنيـة. فكل نص لا يهدف إلى معالجة مشكلة واقتراح حل لها يكون تفسيرا صوريا خالصا.

وكل إبراز لمضمون دون ربطـه بالصـورة الثقافيـة أو القالب النظري الشعبي يكون دعوة للعلـم فـي مجتمـع

ما زال يرى في التراث علمه وفكره. فالشـعارات الدينيـة وحدها مثل (الله أكبر، ولله الحمد)، (الله اكبر، والعـزة لله)، (لا حكم إلا لله)، (قرآنية إسلامية) صـورة بـلا مضـمون، يطلقها الفريق الأول دون أن يعطيها مضـمونا مـن واقـع المسلمين. (الله أكبر، ولله الحمد) تعني لبلد محتـل تحريـر الأرض، و(الله أكبر، والعزة لله) تعني لبلد متخلـف التنميـة والتقدم، و(لا حكم إلا لله) تعني لبلد يسوده حكم الفرد، الحكم الديمقراطي ونظام الشورى، و (قرآنية إسلامية) تعني لبلـد مشكلته وجود فائض المال في أيدي الأغنياء وسـط أغلبيـة فقيرة كادحة، تعني مساواة اجتماعية، وعدالة فـي توزيـع الدخول، فإذا ما ركز الفريق الأول على الشـعار، وإذا مـا ركز الفريق الثاني على المضـمون فـإن تفسـير الشـعار بالمضمون هو الذي يحقق وحدتنا الوطنية.

٥- الإطلاق أم التقييد؟ وهناك اختلاف آخر من حيـث الفهم. فالفريق الأول يفهم الإسلام خارج الزمـان والمكـان، وفي نفس الوقت يوحد بين فهم معنى للإسلام وهو الإسـلام التاريخي كما ورثناه من أهل السنة وبـين الإسـلام العـام. وبالتالي يرتكب خطأين. فالإسلام ليس دعوة خارج الزمـان

والمكان بل دعوة في زمان معين بعد اليهودية والمسيحية في أول القرن السابع الميلادي في الجزيرة العربية حيث تتناحر القبائل وبين إمبراطوريتي الفرس والروم المتداعيتين واللتين أنهكتهما الحروب، تهدف إلى تحريـر الشـعور الإنسـاني. وبالتالي ما كان يمكن للإسلام أن يظهر بدل اليهوديـة فـي وقتها أو بدل المسيحية في زمانها. ووجود الناسخ والمنسوخ هو إثبات آخر لعامل الزمان والتطور. هذا هو الفـرق بـين الوحي والرياضيات، فالوحي مبادئ عامة لكنها تظهر فـي الزمان في حين أن المبادئ الرياضـية صـورية خالصـة لا تحتاج إلى زمان. والخطأ الثاني هو التوحيـد بـين هـذا الإسلام العام وبين الإسلام التاريخي الذي ورثناه مـن أهـل السنة والذي تمت صياغة عقائده وشرائعه على يد الأشاعرة، فظهر التركيز في العقائد على الإلهيات نظرا لأن المعركـة قديما كانت في الإلهيات. فقد ظهـر الإسـلام فـي عصـر ازدهرت فيه الملل والنحل والفرق الدينية القديمة. فكان لابد للإسلام أن يدخل معركة العقائد. وقد دخلها بالفعل، وانتصر فيها بإعلان التوحيد الصافي الخالص الذي لا تشوبه شـائبة من تجسيم أو تشبيه. ولم تكن هنـاك حاجـة إلـى تأسـيس

(لاهوت الأرض) فقد كانت الأمة الإسلامية منتصرة، وكانت الجيوش الإسلامية تجوب البلاد شرقا وغربا، ولم تكن هناك حاجة إلى تصور (لاهوت التنمية) أو (اللاهوت السياسـي) لأن النظام الاجتماعي السائد كان على أعلـى درجـة مـن الترشيد للحياة الاقتصادية. وكانت الجماهير غازية في سبيل الله، ليست بحاجة إلى تأسيس حزب لها. ولم تكن هناك حاجة إلى وضع (لاهوت الثورة) لأن المسـلمين، كـانوا ثـوارا بالفعل، ولا يؤسس الإنسان إلا ما يحتاجه، ولا يفكر إلا فيما يطلبه.

أما الفريق الآخر فإنه يركز على ضرورة صياغة دعوة لزمان معين ومكان معين. فهو يريد نظاما لمصر تحل فيـه قضايانا المصيرية: الاحتلال، والتخلف، وسلبية الجمـاهير. يريد حل إشكال جيلنا. وبالتالي ظهرت نزعتـه التاريخيـة، وذكر التطور والتقدم ودور الأجيال، وحصر المشاكل، وقدم الحلول، لا يعني ذلك شيوعية أو إلحادا أو مادية، ولا يعنـي إنكار الإسلام العام ولكنه يرتبط بالواقع، ويريد تحديد مهمـة الجيل الحاضر، كما يحدد دور الإسلام التاريخي في المرحلة الحاضرة، وكيفية معالجتها لقضايا العصر الأساسية، وتميزه

عن أيديولوجياته، وقدرته على صياغة قضاياه وأيديولوجيته دون أن يأخذ موقف الدفاع عن الذات أو الهجوم على الآخرين. فما يتركه الفريق الأول على مستوى المبدأ يحققه الفريق الثاني على مستوى الواقع. وما يتركه الفريق الثاني على مستوى الواقع يحققه الفريق الأول على مستوى المبدأ.

إن ما يهمنا الآن هو قضايا عدم الانحياز، والتحرر، والتنمية، والعدالة الاجتماعية، وتذويب الفوارق بين الطبقات. ليس المهم أن تبدأ النظريات السياسية ولا يكون الإسلام إلا تابعا ومقارنا ومكتشفا لذاته بل أن يكون بادئا وواضعا ومؤسسا. لقد ظل الفكر الديني متهما دائما بأنه يتسلق باستمرار على أكتاف الآخرين. تتم الوحدة الوطنية إذن إذا ما حصر الفريقان مشاكل العصر في الزمان والمكان، وقدما الحلول، دون الاكتفاء بالإعلان عن المبادئ أو تسجيل المواقف.

٦- النظر أم العمل؟ ويبدو الخلاف بين الفريقين في أن الأول لا يميز بين العقيدة والشريعة، ويجعل الاختلاف في العقائد أي في النظريات أساس الاختلاف في العمل، وبالتالي حدثت الاختلافات على المستوى النظري وتركنا واقعنا كما

هو بمشاكله وبأزماته لنتناقش في المادية والإلحاد، والعلم والإيمان والاشتراكية والرأسمالية، ونتكلم عن النظريات ونختلف فيها والاحتلال قائم، والتخلف سائد، والجماهير سلبية. وغالبا ما تكون هذه النظريات مشوهة في الثقافة الشعبية من خلال أجهزة الإعلام تحت سيطرة نظم الحكم، يساء فهمها عمدا أو عن غير عمد. تقوم على الأفكار الشائعة التي تروجها النظريات المضادة. فنقع في حبائل الاستعمار الثقافي، والتشويه الفكري المقصود، في حين يركز الفريق الثاني على أهمية العمل وعلى احتمال اختلاف الإطار النظرية مع وحدة العمل حتى عرف عنه إنه تيار عمل، يؤثر العمل على النظر، وأنه حركي نشط ملتزم بقضايا الجماهير. فإذا كان النظر يفرق فإن العمل يوحد، وإذا كان الفريق الأول قد خلط بين العقيدة والشريعة فإن الفريق الثاني قد فصل بينهما، ومع ذلك تتحقق وحدتنا الوطنية على وحدة العمل واختلاف النظر، وقد عرض لذلك فقهاؤنا القدماء عندما سلموا بوجود اجتهادات كثيرة حول عمل واحد. فوحدة العمل يقابلها تعدد النظر، مقاومة الاحتلال لا خلاف عليها مهما تباينت النظريات. يتطلب واقعنا وحده عمل أكثر مما

يتطلب خلافا حول نظريات تحقق وحدتنا الوطنية إذا أمكن صياغة برنامج عمل وطني موحد تتفق عليه كل التيارات الأساسية في ثقافتنا الوطنية.

٧- الكل أم الجزء؟ ويبدو الخلاف بين الجناحين الرئيسين في حياتنا القومية في التطبيق، وأسلوب العمل، وطريقة الممارسة. فبينما يريد الفريق الأول تطبيق الكل دون الجزء فإنه يبدأ بإدانة كل ما هو موجود مطالبا بهدمه حتى يعيد البناء كله من الألف إلى الياء. منطلقه هو الكل أو لا شيء، وقسمة العالم إلى عالم الكفر وعالم الإيمان، وقسمة الديار إلى دار الحرب ودار الإسلام حتى لقد اتهم هذا الاتجاه بالعداء للواقع، والعدوان على الناس، والخروج على الأمة، وممارسة أساليب العنف، وتدبير الانقلابات، والقيام بالاغتيالات السياسية. ينشأ هذا الاتجاه من بناء نفسي لجماعة محاصرة، لا تعمل بطريقة طبيعية، يتربى لديها العداء لكل ما هو موجود. في حين أن الوحي قد أخذ بأسلوب التدريج والمراحل، وتطوير الواقع شيئا فشيئا سواء على مستوى تطور الوحي ككل من نبوة إلى نبوة أو على مستوى تطور التشريع الإسلامي من منسوخ إلى ناسخ، فقد ساهمت

اليهودية في تقدم الإنسانية عن طريق تعود الوعي الإنسـاني على طاعة القانون ضد العصيان، وساهمت المسـيحية فـي تقدم الإنسانية بتعميق البعد الروحي للإنسان ضـد صـورية القانون اليهودي وبطش الرومان. ثم أتى الإسلام من أجل أن يتحقق على مدى ثلاثة وعشرين عاما بداية بتربية الرجـال، وتوسيطا ببناء الحزب، ونهاية بإقامة الدولة.

أما الفريق الثاني فإنه نظرا لإحساسه بالتاريخ فإنه يفكر مرحليا، ويعمل على تحقيق أهدافه جزئيـا، وبالتـالي فهـو صديق الواقع، وأليف الناس، يفرح بتحقيق جزء، ويحزن لما تبقى، لا أن يعبس دائما لأن الكل لم يتحقق بعد، لذلك أمكـن الفريق الثاني الحوار مع المناهج الأخرى، والتعـاون معهـا على تحقيق الأهداف المرحلية في حين تصلب الفريق الأول، وكفر كل الفرق الأخرى التي لا تشارك معه في تحقيق الكل، فمحاولة تحقيق الكل أو لا شيء مضيعة للوقـت، وضـياع للعمر، وهدم لما هو موجود، وعدم إعطـاء البـديل وإمـا الانعزال عن الواقع، وتكوين جماعات التكفير والهجرة. فـي حين أن التحقيق المرحلي هو الموقف البناء. لم يأت الإسلام هادما لليهودية أو المسيحية أو ناقما على كـل شـيء فـي

الجزيرة العربية، بل أتى مصلحا ومغيرا، مثبتا ونافيا، فبـين المستكين والشهيد هناك المصلح الذي لا يفسد فـي الأرض، ورسالة الإسلام رسالة الإصلاح. وهنا يمكن لوحدتنا الوطنية أن تتحقق.

٨ – الفرد أم الجماعة؟ كما يختلف الفريقان في منظور التطبيق ومدى ضيقه أو اتساعه. يتصور الفريـق الأول أن تطبيق الإسلام يأتي أولا بتطبيق الشعائر ثـم تقليصـا فـي قوانين الأحوال الشخصية والأحكام الفرديـة أو مـا يسـمى بمبادئ الأخلاق الإسلامية. وبالتالي يظهر النقاب كحد فيصل بين السلوك الإسلامي والسلوك غير الإسلامي. وكي تحمـي الدولة نفسها من خطر هذا الفريق، وتزايد عليه في الإيمان، تكثر من بناء المساجد، وتنشط البرامج الدينية فـي أجهـزة الإعلام، وكلها تدعو إلى الفضيلة، والأخلاق، وتنعي الفسـاد والانحلال. وغالبا ما تتركز الأخلاق فـي علاقـة الرجـل بالمرأة بل وفي المرأة وحدها. فالرذيلة عريها، والفضيلة في غطائها. وبالتالي يقوم التطبيق كله على تصور جنسي للعالم، تعبيرا عن الكبت الذي يتحول إلى إشباع بمجرد الحديث عنه والتفكير فيه حتى ولو بطريق الرفض وبأحكـام التحـريم،

ويصاحب ذلك تحريم الخمر والقمار والاختلاط. وهكذا يركز الفريق الأول همه كله في موضوع الجنس بوجـه خـاص، وفي المحرمات بوجه عام. وبالتالي يظهر الدين على أنه في جانب والواقع الإنساني في جانب آخـر. وأن الـدين أتـى لمقاومته وليس للتعبير عنه، وكأن الحياة الخلقيـة لا تتحقـق إلا بهذا الصراع الداخلي بين الخير والشر أي بـين الـدين والغرائز، وهو حيلة العاجز المحروم الذي لا يري أبعد مـن أنفه، ويحقق إشباعه بالوهم والتمني، الإسـلام نظـام كلـي اجتماعي أساسا يهدف إلى تكوين مواطن، وتأسـيس دولـة. فهو أوسع رحابا وأفقا من تركيزه على الجـنس والأخـلاق الفردية.

أما الفريق الثاني فإنه يكسر هذا النطاق، ويفـك هـذا الحصار، ويخرج من نطاق الأخلاق الجنسية الضـيقة إلـى ميدان الاجتماع والسياسة الرحب، يتحدث عن المرأة العاملة المنتجة، وليس عن سفور المرأة العارية، يتحدث عن الإنسان من حيث هو إنسان بصرف النظر عن تصنيفه الجنسي إلـى ذكر أو أنثى، كما يتحدث عن الميول والرغبـات والغرائـز باعتبارها جزءا من طبيعية الإنسان خارج نطـاق الحـلال

والحرام، مثل الشعر والفن والأدب والجمال. وإذا أراد التغيير فإنه يعتبر قانون الأحوال الشخصية جزءا من قانون عام آخر وهو النظام الاجتماعي السائد، وعلاقة الإنسان خارج الأسرة في المجتمع العام وليس داخل الأسرة في المجتمع الخاص، وإذا أراد أن يفسر الظواهر فإنه لا يلجأ إلى التفسير الفردي الخلقي بل يلجأ إلى التفسير الاجتماعي السياسي.

تتحقق وحدتنا الوطنية إذن إذا ما ركزنا الجهد على تغيير أوضاعنا الاجتماعية. فالأخلاق ما هي إلا سلوك اجتماعي. وقد طغت على تفسيرنا للنصوص الدينية النظرة الفردية كما نفعل في آية (**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**) مع أن آيات أخرى تبدأ بالواقع وتنتهي بالنفس مثل (**وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون**). إن تغيير الأفراد ضروري في البداية من أجل بناء الكوادر السياسية والطليعية الواعية. ولكن تغيير الأوضاع الاجتماعية ضروري في النهاية في مرحلة تأسيس المجتمع وبناء الدولة، الأفراد طيبون في مجتمعنا ولكن ما ينقصهم هو النظام الاجتماعي الذي يعملون فيه.

٩- الواجبات أم الحقوق؟ ويبدو الخلاف أيضا بين الفريقين في أولويات التطبيق. إذ يركز الفريق الأول على أهمية الحدود والعقوبات، وأن الإنسان مستهدف، معاقب، مجازى، يقف الله والسلطان له بالمرصاد، بقطع اليد، وبالرجم، وبالجلد، وبالتغريب، فيظل العقاب شبحا يطارد الإنسان أينما حل. وكأن الدين لم ينزل رحمة للعالمين، وكأن الله ليس أرحم بعبده من الأم بولدها. في حين أن الشرعية قد وضعت الحدود بعد الحقوق وليس قبلها. يأخذ الإنسان أولا حقه في العمل والكسب، في المأكل والمشرب، في الملبس والمسكن، في الرعاية والعناية، في التعبير والمشاركة قبل أن تطبق عليه الحدود. لا توضع العربة أمام الحصان. قبل أن يطالب الإنسان بواجباته علينا أن نعطيه حقوقه. وقبل أن تطبق الحدود والعقوبات على المحرمات علينا أولا التمتع بالمباحات، وبيان أوجه النفع التي تعود على الإنسان من القانون، وليس وجه العقوبة فيه. العقوبة وسيلة لا غاية. وكثيرا ما تتحقق الغايات بوسائل أخرى. تتوقف الحدود ولا تتوقف الحقوق.

أما الفريق الآخر فيركز على حقوق الإنسان و نضـاله في سبيلها قبل تطبيق الحدود عليه، وعلى أن القانون تعبيـر عن مصالح الناس وبالتالي فلا يعصاه الإنسان إذا كان معبرا عن مصلحته. وكيف نطالب بتطبيق الحدود في مجتمـع لـم يحصل الإنسان فيه على حقوقه؟ فليكن لكل إنسـان عملـه وقوت يومه ثم بعد ذلك نفكر في حد السارق. وليقم المجتمع على ترسيخ الفضيلة، وإشراك الجماهير في تحقيق المشروع الوطني. وترك الإشارة بيده والتلويح بالعقاب باليد الأخرى. فرحابة الأفق، وسعة الصدر، واحترام الإنسان هو الموقـف الطبيعي وليس ضيق الأفق، والحنـق، واحتقـار الإنسـان، والتمتع بتعذيب الآخرين، وصادية دعـاة تطبيـق الحـدود بلا شروط تتوافر أولا.

تتحقق الوحدة الوطنية إذن إذا ما أعطينا الإنسان حقوقه أولا ثم طالبناه بواجباته ثانيا. وقد يطول موضوع الحقـوق، ولا نحتاج على الإطلاق لتطبيق الحدود التي كانت تهدف إلى مجرد الردع. فكلما تحطمت قوة الردع كان المجتمع أقـرب إلى العدالة والاستبصار. ولم التخويف؟ الأفضـل أن يـأتي الإسلام محمولا على الأعناق وتحت إلحاح الجماهير وطلبها

بعد أن سئمت من الأيديولوجيات العلمانية للتحديث بالطريق الديمقراطي الحر لتحقيق مصالحهم، وتلبية حاجاتهم، وقضاء مطالبهم وليس لقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم على جذوع النخل وكأنهم قطاع طرق.

١٠- التعصب أم التسامح؟ وقد يكون الخلاف أخيرا في روح كل فريق. فالفريق الأول يؤثر المنغلق على المنفـتح، والتعصب دون التسامح، والغرور بعيدا عن التواضع. هـو منغلق لأنه يشعر بأنه مكتمل الذات، لا يحتاج إلى الآخرين. احتوى كل شيء، وأن ما لديه هو الحق، وليس لدى الآخرين إلا الباطل. ينغلق على نفسه، مكتفيا بذاتـه حتـى يضـمر ويتحجر ويتصلب، فيتعصب ولا يتسـامح، ويضـيق خلقـه ويحنق ويغضب، ويحتد ويتشنج. ولماذا لا تأخذه الحمية في الدين، والغيرة على الله؟ وهو في هذا كله يركبـه الغـرور. فهو فارس الله الأوحد في الميدان. وهو القيم على هذا الدين، وهو الأقرب إلى الله. وبالتالي ينفر الفريق الأول الناس منـه مع إنه في الوحي (**ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا مـن حولك**) وأيضا (**أشداء على الكفار رحماء بينهم**).

أما الفريق الثاني فإنه يؤثر المنفتح على المنغلق، والتسامح دون التعصب، والتواضع بعيدا عن الغرور. فهو لا يخشى الآخرين بل يعتبر تجربته تراكما لتجارب التاريخ وجزء من تاريخ البشرية العام. يستفيد من التجربة، ويكيف نفسه طبقا للواقع، ولا يفرق بين مجتمع ومجتمع أو حضارة وحضارة أو تراث وتراث. يقبل الحوار والمناقشة، ويقبل المراجعة والنقد، لا يفرض وصايا على أحد، ولا يعطي لنفسه دورا في التاريخ السابق عليه واللاحق له. فلكل جيل رسالة. وتكون الجماهير وحرية الشعوب هي وحدها الباقية على مر التاريخ، وتكون هذه الحركة ذاتها هي هذا التيار المستمر الذي تساهم فيه كل تجربة تاريخية بنصيب. على هذا النحو تتحقق وحدتنا الوطنية.

وفي النهاية قد يقال إن هذا التصوير للفريقين يتضمن انحيازا لفريق دون آخر، للفريق الثاني دون الأول، وإنني قمت برسم صورة (كاريكاتيرية) للفريق الأول أقرب إلى السخرية منها إلى الحقيقة وأنني رسمت صورة (وردية) للفريق الثاني جعلته أقرب إلى المثل الأعلى، وأنني أصدر حكما باطنيا على الأول بأنه شر وعلى الثاني بأنه خير، وبأن

الأول على خطأ والثاني على صواب، وأن الحوار عندي يعني أن يتنازل الفريق الأول عن موقفه ليلحق بالثاني، وأن التنوع في كل فريق ووجود أجنحة فيه تجعل هذا التقابل بين نموذجين كليين غير علمي وغير صحيح، فهناك يسار إسلامي منفتح، وهناك يمين تقدمي منغلق، هناك إسلامي جديد، وتقدمي قديم، هناك إسلامي استقرائي، وتقدمي استنباطي، وإسلام يدافع عن الإنسان، وتقدمي يدافع عن الحزب، وإسلامي ذو مضمون، وتقدمي صوري، وإسلامي متعين الزمان والمكان وتقدمي مطلق طوباوي، وإسلامي عملي وتقدمي خيالي، وإسلامي فقيه يرعى مصالح الناس وتقدمي راديكالي يقع في جدل الكل أو لا شيء، وإسلامي جماعي وتقدمي أناني، وإسلامي يرعى الحقوق وتقدمي يلتزم بعقوبات الحزب، وإسلامي متسامح وتقدمي متشنج، وأن الحركة الإسلامية متطورة في التاريخ، بدايتها المنفتحة المجددة الإنسانية غير نهايتها المنغلقة السلفية التي تركز على الحاكمية، ويكفي في ذلك تطور سيد قطب من النوع الأول إلى النوع الثاني، وأنني ضخمت عيوب الفريق الأول وصغرت مزاياه وأنني على العكس ضخمت مزايا الفريق

الثاني وقلات عيوبه، وأنني على هذا النحو أعير بمعيـارين، وأقيس بمقياسين مما ينافي أصول العدل ونزاهـة القضـاء، وعلى الرغم من قوة هذه الاعتراضات وإمكانية الرد عليهـا بل وإجراء بعض التعديلات عليها توخيا لمزيد من الدقة في عرض كل من الموقفين إلا أن الغاية من هذا التعمـيم هـو إثارة الأذهان ودعوة كل فريق للـرد والاعتـراض علـى صورته المرسومة حتى يحاول تصـحيحها أولا ثـم رسـم صورة للآخر ثانيا، فرؤية النفس ورؤية الآخر بداية لإجراء الحوار.

إن الغاية من رسم هذه الصورة العامة لكل من الفريقين على الرغم من عدم دقتها هو الدعوة إلى إجراء حوار حول الوحدة الوطنية.

وأرجو أن يكون لهذا الحوار صدى في ثقافتنا القومية، وأن يدخل فيه كتاب مجلة (لدعوة) ومفكروها بعـد أن يبـدأ كتاب (روزاليوسف). وقد يتحول الأخوة الأعداء في النهايـة إلى أخوة أصدقاء، ونكون بذلك قد أرسينا قواعـد الوحـدة الوطنية، فلا يوجد حوار بين طرفين إلا وتتم الوحدة بينهمـا

بالرجوع إلى طرف ثالث يحتكم إليـه المتحـاوران. وهـذا الطرف الثالث هو مصر التي منها نبدأ وإليها ننتهي.

ضرورة الحوار*

أولا – مقدمة:

نحن أمة واحدة، ننتسب إلـى وطـن واحـد، داهمنـا الاستعمار، احتل الأرض، ونهب الثروات، واستلب العقول، فخيم التشتت، وافترقنا شعبا وأحزابا (كل حزب بمـا لـديهم فرحون). والسؤال لماذا الفرقة؟ وعلي أي شـيء نختلـف؟ ومن الخاسر ومن الكاسب؟ ألسنا كلنا خاسرين؟

لقد كان التعدد أحد مظاهر نهضتنا الإسلامية الأولـى. وكانت الفرق الإسلامية كلها، في الأصول أو في الفـروع، تجتهد رأيها قبل حديث (الفرقة الناجية) وتكفيـر اجتهـادات الأمة، وهي فرق المعارضة لحساب الفرقة الناجيـة وهـي فرقة (الحكومة)، فرقة السلطة القائمة، مع أنه فـي أصـول الفقه، منطق الأمة ومنهج فكرها، أجمع الفقهاء على أن الحق النظري متعدد وأن الحق العملي واحـد أي أن الاجتهـادات

---

* كتب ذلك عام ١٩٨٣ أثناء وجودنا بالمغرب مشاركة في الحوار القومي في مصر وفي المغرب ولكنه لم ينشر حتى الآن.

النظرية كلها ممكنة، ما دامت كلها تؤدي إلى المصلحة العامة، وأن اختلاف الأطر النظرية وارد ما دامت كلها تهدف إلى وضع برنامج عملي واحد للفرد وللجماعة. لذلك كان خبر الواحد ظنيا في النظر، يمكن أن تحدث فيه الاختلافات من حيث الصحة التاريخية وبالتالي الصدق النظري، ولكنه يقيني في العمل به صالح الناس فيما تعم به البلوى. لذلك أيضا كان للمخطئ أجر وللمصيب أجران، وكانت الأعمال بالنيات.

فلماذا إذن التخوين المتبادل؟ ولماذا إشهار سلاح التكفير في وجه بعضنا البعض؟ ولماذا اتهام بعضنا بعضا بالفسق أو النفاق؟ ولماذا افتراض سوء النية في عقل الأمة وقصدها، وأن التاريخ ما هو إلا حلقة متصلة من المؤامرات التي دبرها ذوو السوء؟ فمن منا يبغي بالإسلام أو بالمسلمين شرا؟ أليس الإسلام تراثنا وروحنا، ماضينا وحاضرنا، تاريخنا ومستقبلنا؟ ألم يشكل الإسلام حياتنا، وكان وراء كل روافدنا الفكرية بالرغم من تباينها؟ ولماذا لا يفترض كل منا حسن النية في الآخر (**يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم**) (٢٦: ٨٩)؟

فيم الخلاف، والمخاطر واحدة، تهدد الجميع، لا فـرق بين حركة إسلامية محافظة، وحركة علمانية ثورية؟ وهـل فرق الغزو الصهيوني للبنان بين إسلاميين وعلمانيين، بـين سنة وشيعة، بين سلفيين وثوريين؟ ألم يعارض كلاهما التسليم بالصهيونية والاعتراف بها والتفاوض معها؟ ألـم يصـاحب ممثلو الحركتين بعضهم بعضا في السـجون والمعـتقلات، وعانوا معا غياهب الجب ونوم الحصير؟ ألم تختلط دماهمـا معا على أرض فلسطين؟ ألم تئن الحركتان معا مـن سـوء توزيع الثروة، وتعمل كل منها على توزيعها بما يحقق مزيدا من العدالة الاجتماعية والمساواة؟ ألا يبغي كل فريق وحـدة الأمة بشكل من الأشكال، وحدة عربية، وحدة إسلامية، وحدة للمضطهدين في كل مكان؟ ألا يطالب كلاهما بوحدة الأمـة واستقلالها عن الشرق والغرب. حفاظا على هويتها ورفضـا للدخول في سياسة الأحلاف ومناطق النفوذ؟ ألم يكن الشـهيد (سيد قطب) محورا للحياة الوطنية، يجتمـع فيـه التيـاران المتخاصمان، يكتب عن (العدالة الاجتماعية فـي الإسـلام) ويتحدث عـن البطـون الجائعـة فـي (معركـة الإسـلام والرأسمالية)، ويؤسس حركة السلام العالمي فـي (السـلام

العالمي والإسلامي)؟ وما هو العالم الأفريقي الأسيوي؟ أليس هو العالم الإسلامي؟ وما هي شعوب العالم الثالـث أو دول عدم الانحياز؟ أليست هي الشعوب والدول الإسـلامية؟ لقـد اختلفت الأسماء والمسميات واحدة. مما يدل على أن الخصام بين الأخوة الأعداء إنما في بعض حالاته قد يكـون بسـبب اللغة والمفاهيم أكثر منه بسبب التصورات والأشياء ذاتهـا. إنه لا يجوز خصام الأخ لأخيه أكثر من ثلاث ليال. وها نحن جيل بأكمله يخاصم بعضنا بعضا، ويعتبر كل منـا الآخـر عدوه اللدود، ويقف له بالمرصاد ويجرحه، ويتـربص بـه، ويرفض أي محاولة للاقتراب منه، ولا يغفـر لـه هفواتـه أو خطاياه، لا يرى كل منا من الآخر إلا سـلبياته وعيوبـه وكأنه هو الكامل الأوحد الخالي من كل العيوب (ومن كـان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر!).

فلنجرب الحوار هذه المرة بـدل التكفيـر والملاعنـة والتخويف والشك وسوء الظن، فلنجـرب الحـوار الهـادئ الموضوعي الرصين، فلربما، على أيـدينا، تنـدمل جـراح الأمة، وتعود إليها وحدتها. وهل ما زالت نار الفتنة الأولـى في قلوبنا لم تنطفئ بعد؟ ولماذا يبقى الغـل فـي الصـدور؟

ولماذا لا نتمثل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؟ ألا يعبد كلانا إلها واحدا؟ ألا يقرأ كل منا (**وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**) (٢٣: ٥٢)؟ ألا يتلو كل منا (**وإلهنَا وإلهكُم واحِد ونَحن له مسلِمون**) (٢٩: ٤٦)؟ إنه ليس عجبا أن يتوحد قصد الأمة، وتوحد فرقها، وأنه لا يدرك الوحدة إلا غير المسلم الذي يقول (**أجعلَ الآلِهةَ إلَها واحِدا إن هذَا لَشَيء عجاب**) (٣٨: ٥). وأيهما أفضل؟ أن نتفرق شيعا وأحزابا تداعي الأعداء علينا، هذا اليوم، وذلك الغد، أم نسعى إلى وحدة الأمة بادئين بوحدة القصد والغاية؟ (**أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار**) (١٢: ٣٩).

إننا لا نبغي من الحوار الرد على أحد، فالرد على الآخر هو أسوأ أنواع الحوار. فمن خلال الرد يضيع الموضوع، وتزداد الانفعالات، وتتشخص المواقف، وتتباعد الآراء، وتضيق النفوس، وتتبادل الاتهامات، كل فريق يود الانتصار وهزيمة الآخر، فقسمنا أنفسنا فريقين عدو وصديق. إنما نعرض فكرا إسلاميا بناء على متطلبات الحاضر، وتلبية لحاجات الأمة، قد يلقى الاتفاق من الجميع ويرضى بها جناحا الأمة: الحركة الإسلامية والحركة العلمانية. حتى

الآن، لم يحاور كل منا الآخر. فقد أصبح الخصـام موقفـا مبدئيا أو مقدمة بديهية أو مسلمة منطقية لا تخضع للنقـاش. لقد حاول كل فريق أن يرسم للآخر صورة (كاريكاتوريـة) حتى يسهل نقده فالحركة الإسلامية في ذهن التيار العلمـاني رجعية سلفية محافظة، تتجه إلى الماضي، شـكلية هامشـية تعطي الأولوية للشكل على المضمون، ترفض الدخول فـي تحديثات العصر، والحركة التقدمية في ذهن التيار الإسلامي إلحاد وكفر وعمالة وموالاة للأجنبي، وعلى أكثر تقدير نفاق وتشدق بالدين وإلباس التقدمية ثوب الإسلام، والإسلام منهـا براء، وكلنا يعلم مدى خطأ هاتين الصـورتين الحـزبيتين، وكأن كل فريق يحارب عدوا خلقه بنفسه، وشخصه بفكـره وإلا فمن يقتل؟ ومن يبارز؟ وعلى جثة من يقف رافعا رأسه إلى أعلى، هازا بيده سيف الانتصار؟

ولماذا يسيء الظن كل فريق بالآخر وجهاده في تاريخنا المعاصر شاهد للعيـان، فباسـم الإسـلام قامـت الحركـة الإصلاحية، وشكلت أهم رافد في النهضة العربية المعاصرة، وكانت (العروة الوثقى) و(المنار) مدارس لتربية أجيال مـن المفكرين والأدباء والسياسيين. وكانت الحركات الإسـلامية

في العالم الإسلامي كله التي ناهضت الاستعمار وعملت على استقلال الأوطان سلفية، المهدية في السودان، والسنوسية في ليبيا، وجمعية علماء الجزائر.. الخ. فالحركة الإسلامية أحد منابع الحركة الوطنية. ومن ينكر ذلك؟ كما أن الحركة التقدمية العلمانية كانت أحد جذور نضالنا الوطني. فمن خلالها قامت الحركات العمالية والتنظيمات النقابية والاتحادات الطلابية والأحزاب الوطنية بل والثورات العربية، بل وحكمت الليبرالية باسمها في الجيل الماضي. وقد كانت مرادفة أحيانا للحركة الوطنية ولتاريخنا الوطني الحديث كله. وبالرغم من غربتها إلا أنها قاومت الاستعمار، وعلى أيديها نالت أوطانا الاستقلال في مصر وسوريا ولبنان والعراق وتونس والجزائر والمغرب. إذن فرصيد كل فريق ضخم في أجيالنا الحاضرة، مما يمنع سوء النية بأحدها أو بغي الشر بها أو الترصد لها، فشواهد التاريخ أقوى من جيل الأفراد.

ومما لا شك فيه أن (الإخوان المسلمين) هي كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة، إن لم تكن الحركة الأم التي منها خرجت، كفعل أو كرد فعل، كل الجماعات الإسلامية

المعاصرة، والتي ما زالت تلاقي نجاحا بين الشباب واحتراما بين المواطنين، وتقديرا من الخصوم ورهبة في قلوب الأعداء. ما زالت صامدة بالرغم من قرار الحل وما وقع لها من تعذيب واضطهاد على مدى ثلاثين عاما هو عمر الثورة العربية في انتصاراتها وهزائمها، إبان مدها أو جذرها. والحركة العلمانية تتمثل في الليبرالية والناصرية والماركسية، لكل منها رصيده الضخم في تاريخنا المعاصر. فقد قامت دولنا الحديثة على الليبرالية حتى قيام الثورة العربية أي الناصرية. وكانت الماركسية جناحا رئيسيا مثل الجناح الإسلامي، يساهم في الحركة الوطنية قبل الثورة العربية وبعدها بالرغم من فترات الاضطهاد والتعذيب التي مر بها أسوة بالجناح الإسلامي. وما زالت هذه الحركات الثلاث حاضرة في النفوس تتحدى أي تيار آخر، تنحو نحو الوحدة مرة، وتتعثر مرات أخرى.

ولما كان لكل حركة مميزاتها وعيوبها، كمالاتها وأوجه نقصها، فالكمال لله وحده، كان على كل فريق أن يعي بها حتى يمكنه معرفة مواطن قوته، ومظاهر ضعفه، فيزيد من الأولى، ويتجاوز الثانية، فيحيل ضعفه قوة. وعلى هذا النحو

تعود إلى الأمة وحدتها، ويكمل كل فريق أوجه نقصه من كمالات الآخر حتى تظهر كمالات الفريقين معا كعناصر قوة في الأمة. فقد نشأت عيوب كل فريق ردا على عيوب الفريق الآخر، ولما كان مجموع خطأين لا يكون صوابا، تكون مهمة الحوار العودة إلى الوحدة المفقودة بالعودة إلى الأشياء ذاتها. ومن يدري فلربما وجد كل فريق الآخر أقرب إليه من نفسه (**وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون**).

ثانيا – مميزات الحركة الإسلامية وعيوبها.

(أ) مميزات الحركة الإسلامية.

مما لا شك فيه أن الحركة الإسلامية المعاصرة تتمتع بمميزات عديدة جعلتها في مقدمة الحركات الفكرية والسياسية الحديثة والتي تمثل قطب جذب رئيسي في وجداننا المعاصر. وهي مميزات عديدة على رأسها:

١- الغيرة على الإسلام، والحماس له، والحرص على تراث الأمة، وشخصيتها المستقلة، والدفاع عن هويتها ضد التغريب، والإبقاء على التواصل، والتجانس بين

الماضي والحاضر. وعلى هذا النحو تأمن الأمة مـن الانقطاع والردة والتغريب، وهـذه ميـزة الاقتـداء بالسلف الصالح والالتزام بالسنة والإحساس بالأصالة، والبداية بالأنا في مقابل الآخر كرد فعل على الحركة العلمانية التي كانت ترى في الأنا مرآة الآخر، وتأخذ الآخر نمطا للتحديث فاستبدلت تقليـدا بتقليـد، تقليـد القدماء بتقليد المحدثين.

٢- صياغة فكر إسلامي بسـيط يقبلـه الجميـع، يفهمـه الصغار والكبار، يعقله المثقفون وغير المثقفين بعـد إسقاط الخلافات القديمة، واستبعاد الهوامش والحواشي والشروح، وتخليص التراث مما علق به من نظريات قديمة ارتبطت بظروف عصـرها وبيئاتهـا الثقافيـة القديمة، فلم تعد بذي دلالة حاضرة في النفوس مثـل الفيض والصدور والعقول العشرة والأفلاك والاتصال بالعقل الفعال وعقول الأفلاك ونفوسـها المجـردة... الخ. قرأت حاضر الأمة في تاريخها، ورأت واقعهـا في فكرها، وعادت بساطة الإسلام وسماحته إلى فكره وعقيدته فاكتشف المسلمون الإسلام من جديد. وخرج

مفكرون إسلاميون ومجتهدون مثل عبد القادر عـودة وسيد قطب وغيرهم ما زالوا يؤثرون في فكر الأمـة حتى الآن.

٣- جذب المثقفين إلى الإسلام، وانتساب الحركة الطلابية في مجموعها إلى الحركة الإسلامية، وبالتالي القضاء على مخاطر التغريب الذي اشـتهر بـه العلمـانيون المثقفون. فتوحد في المثقف الإسلام والثقافة، وأصبح المثقف مؤمنا بالإسلام عن اقتناع، يجتهد رأيه، ويبدع في العلوم، يقبل تحديات العصر، ويكثـر التـأليف، متجها نحو الجديـد مستأنسـا بالقـديم، فأصـبحت الجامعات، في أوائـل الخمسـينات بـؤرة للحركـة الإسلامية ومظهرا لها، كما تحـرك طلبـة الأزهـر وأساتذتها وتلاقوا مع مثقفي الجامعة. وبـدأت نـواة الوحدة الوطنية الثقافية بـين العلمـاني المسـلم فـي الجامعة والمسلم العلماني في الأزهر، بـين المثقـف الذي اكتشف الإسلام، والمسلم الذي اكتشف الثقافـة، وعاد إلى الأزهر روحه، وتصدر الحركـة الوطنيـة أسوة بالجامعة العلمانية.

٤- تربية الأمة، وتكوين النشء، وإعداد جيل يعتز بالإسلام، ومستعد للشهادة، مخلص لله ولرسوله، يعمل لتحقيق أهداف الأمة، وأصبح يضرب به المثل في التضحية والفداء، والصلابة في السجون، والصمود في وجه التعذيب، ويتضح ذلك في هتافات الجماعة الإسلامية في المحاكمات الأخيرة، ولقد خسرنا كثيرا بحل كبرى الحركات الإسلامية وانعدام تكوين النشء وظهور جيل جديد متغرب مهاجر يبحث عن الكسب والرزق ويلهث وراء الدنيا. لم يعد للشباب قدوة أو نموذج فكر أو عقيدة، مبدأ أو قضية.

٥- وضع برنامج وطني يكاد تتفق عليه الاتجاهات الوطنية كلها مثل الاستقلال الوطني، العدالة الاجتماعية، وحدة المنطقة ابتداء من مصر، الحريات الديمقراطية، ظهر ذلك في أوائل الخمسينات كما ظهر أيضا في أوائل الثمانينات، قبل الثورة المصرية وبعدها، وأثناء انتكاستها وردتها وقرب نهايتها، كان بإمكان الحركة الإسلامية لو عاشت أن تكون بوتقة للوحدة الوطنية، وبؤرة للعمل الوطني الوحدوي

تجتمع فيها المعارضة الدينية والمعارضة السياسية من أجل تغيير الوضع القائم كما حدث في الثورة الإسلامية في إيران.

٦- تجنيد الشعب، وتكوين جماعه دينية أقوى من أي حزب سياسي عرفه تاريخنا الحديث، تدعو الآلاف في غمضة عين، وهو الأمر الذي فشلت الثورات العربية فيه باعتمادها على الجيش أو على موظفي الدولة. كان نظام الأسر الهرمي فعال للغاية في تجنيد الشعب بكافة طبقاته الاجتماعية عن طيب خاطر، وكان بالإمكان دعوة الآلاف إلى التظاهر في حرم الجامعات أو أمام المركز العام أو في الميادين العامة دون ما فرار أو هروب بل بالتصدي للرصاص بالصدور. وتجاوز الأمر العمال إلى الفلاحين، ودبت الحياة في المصنع وفي الحقل، وكانت قرى بأكملها خاصة في الشرقية في مواجهة جنود الاحتلال أشبه بجيش الشعب.

٧- دخول الحركة الإسلامية في معترك الحياة الاجتماعية والسياسية المعاصرة فكانت أحد مصادر الحركة

الوطنية سواء في جمعية علمـاء الجزائـر أو فـي شخصيات مثل علال الفاسي وأمين الحسيني، وعبـد الكريم الخطابي،أو في حركات مثل السنوسـية فـي ليبيا، والمهدية في السودان، ولم تنعزل حتـى عـن الكفاح المسلح مثل الإخوان المسلمين فـي فلسـطين وعلى ضفاف القناة، وقد كانت فرق الجوالة والكشافة تمثل نوعا من المرابطين الجدد، لا فرق بين النضال السياسي والكفاح المسـلح (رهبـان بالليـل فرسـان بالنهار).

٨- توحيد الأمة، وجعل مصر مركـز العـالم العربـي والإسلامي، فقد كان (المركز العام) محط كل دعـاة الإسلام وممثلي الحركات الوطنية سواء علال الفاسي ونواب صفوي أو ياسر عرفات وهواري بومدين. كما قامت الحركة الإسلامية بمهمة التعريف بفكر العـالم الإسلامي وتقديمـه للمسـلمين مثـل أبـي الأعلـى المودودي وأبي الحسن الندوي ومصطفى السباعي... الخ. لقد كان الصراع بين الوحدة الإسلامية والوحـدة العربية أو بين الإسلام والقومية مجرد صراع فقهـي

يخفي وراءه صراعا على السلطة. وكان الكل يعلم أن وحدة الأمة العربية هي مقدمة لوحدة العالم الإسلامي كما بدأ الإسلام أولا بتوحيد الجزيرة العربية والقبائل المتناحرة قبل مد جناحيه بعد ذلك على إمبراطوريتي الفرس والروم.

هذه بعض من مآثر الحركة الإسلامية المعاصرة. وهي شاهدة للعيان أمام الجميع لا ينكرها إلا مكابر أو معاند. فمن يقدر أمام هذا الإنجاز الضخم أن ينال من الحركة الإسلامية أو أن يبغي شراء بها أو أن يترصد لهـا أو أن يوقـع بهـا أو يناصب أنصارها العداء؟

(ب) عيوب الحركة الإسلامية.

ومع ذلك، فمما لا شك فيه، خاصة تحت ظروف القهر والاضطهاد، وتحت أهوال التعذيب في السجون والمعتقلات، وإثر إبعاد الحركة الإسلامية عن الساحة الوطنية على مـدى ثلاثين عاما، وتحت اتهامات التخوين، وقلب نظـام الحكـم، وتدبير الاغتيالات، واستعمال العنف، ظهرت فـي الحركـة الإسلامية بعض السلبيات قد تمتد جذورها إلـى (الإخـوان

المسلمين) وقد يعود البعض منها إلى ظروفها في العشر سنوات الأخيرة، وعلى رأسها:

١- الحركة الإسلامية دفاع عن حق الله وليس دفاعا عن حق الإنسان، دفاع عن الدين أكثر منها دفاعا عن الدنيا، دفاع عن الإسلام أكثر منها دفاعا عن المسلمين، غلب على الحركة المنطلقات الدينية النظرية في علم أصول الدين أكثر مما غلبت عليها البرامج العلمية الفقهية في علم أصول الفقه، وبالتالي ظهر التباعد بينها وبين الحركة العلمانية، وأصبح الخلاف نظريا أكثر منه عمليا. وأصبح التكفير المتبادل حول نظريات ميتافيزيقية خالصة حول أصل العالم، ونشأة الإنسان، روح أم مادة، وأنصار كل فريق يعانق بعضهم بعضا في الشهادة من أجل طرد المحتل وتحرير فلسطين أو ينامون معا على (برش واحد) وبقرار جمهوري واحد في السجون دفاعا عن الحريات وضد الاستسلام للاستعمار والصهيونية، مع أن علماء أصول الفقه القدماء تكلموا عن الشريعة التي وضعها الشارع ولم يدخلوا الأطر النظرية في حسابهم عند التشريع. بل إن كل مسألة نظرية لا ينتج عنها أثر عملي فهي عارية عن علم أصول الفقه أي ليست جزءا

منه. والشريعة في مقاصدها دفاع عن المصالح الضـرورية التي من أجلها وضعت الشريعة ابتداء، وهي المحافظة على الحياة والدين والعقل والعرض والمال. وهنا تجـد الحركـة العلمانية عن الحق مبرر وجودها بدفاعها عن مصالح الناس وإن كانت تقع أيضا في مزالق المناقشات النظرية الخالصـة تعاليا وادعاء وتفاخرا بالعلم الحديث. ولكن عند عمـر بـن الخطاب تكتمل الرؤية: الإسلام من أجـل رعايـة مصـالح الناس، ورعاية مصالح الناس باسم الإسلام حتى ولو كانـت عثرة بغلة في العراق!

٢- الابتداء من الحاكمية، وكـأن حاكميـة الله تـأتي بالضرورة معارضة لحاكمية البشر وعلى نقيضـها، وكـأن الذي يحكم الناس هو الله أو ممثل الله مـع أن الله لا يحكـم بنفسه ولكن أقام الشريعة على مصالح العباد، ومن ثم يكـون الحكم بالمصلحة حكم بشريعة الله، فحاكم المسلمين يأتي ببيعة واختيارا، عقدا وشورى، بإجماع فقهاء الأمة، ولا يمثـل الله بل يمثل الأمة، وليس خليفة الله بل خليفة رسول الله، صحيح أن (الحاكمية)، حاكمية الله إنما قويت في نفوس الجماعة كرد فعل على حاكمية البشر التي قامت بأبشع اضطهاد للحركـة

الإسلامية إبان الثورة العربية وقبلها في الـنظم البرلمانيـة الدستورية كنقيض لها وبديل عنها، كما إنه يسهل إقناع الناس بها بعد أن ضجروا من حاكمية البشر، ضـاعت حقـوقهم، وجاعوا، واضطهدوا، وتشرذموا بسببها، حاكمية الله إذن فيها الخلاص والنجاة من حكـم الطـاغوت، والإيمـان والكفـر لا يجتمعان، بقاء أحدهما مرهون بفناء الآخر، وأيهما أفضل عند المؤمنين، حاكمية البشر أم حاكمية الله؟ إن الحاكميـة لله توحي للجاهلين أن يجعلوا منها حكمـا (ثيوقراطيـا) فينفـر المثقفون من الحكم الإسلامي، وهم الـذين عرفـوا مثالـب الثيوقراطية في الغرب، ويـدعون للعلمانيـة. وهنـا ينشـأ الصراع الوهمي بين جناحي الأمة، ويظل قلبها طائرا بـين الفريقين المتنازعين.

٣- ويتم تطبيق حاكمية الله ابتداء من السلطة فـإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وأن الذي بيـده السـلطة قادر على تطبيـق الشـريعة الإسـلامية وإقامـة الحـدود، والسيطرة على أجهزة الإعلام وبالتـالي يتأسـس المجتمـع إسلاميا، ويصبح الإسلام منهج حياة للناس. مع أن الإسـلام في نشأته الأولى لم يكن طالب سلطة بل كان مربي أفـراد.

واستغرقت تربية الأفراد ثلاثة عشر عاما أطول مما استغرقه تأسيس الدولة في عشر سنين. وهل يمكن في أنظمتنا السياسة الحالية التي أتت إلى السلطة إما على أكتاف الجيش والتي تحكم بكل أجهزة القمع الممكنة أو التي تقوم على الملكية الوراثية أن تسمح بأن ينازعها أحد في السلطة؟ لن تستطيع الحركة الإسلامية إذن إلا أن تعمل سرا وبطريقة لا شرعية معادية للنظام القائمة بالضرورة وبديلا عنها. ومع أنها قد تكون كذلك كحركة تاريخية إلا أن المستقبل لم يبدأ بعد، ولم يعد له بما فيه الكفاية، إن الأولى بالحركة الإسلامية أن تأتي محمولة على الأكتاف، بناء على اختيار حر للأمة كما كان يأتي اتحاد الطلاب في أوائل الخمسينات في الجامعات المصرية بانتخاب حر. ولماذا يدعى إلى الإسلام سرا وهو في قلوب الناس وما تعتقده الأمة بل والذي يعطي الشرعية للنظام القائمة؟ وهل يمكن أن تنجح حركة سرية في نظم تعلم أجهزة الأمن فيها خافية الأعين وما تخفي الصدور؟ والقول العلني فيه تحد موضوعي للنظام القائمة وطرح البديل العملي أمام الناس، والاحتكام إليهم، وبالتالي كان إعداد الأمة للحكم الإسلامي أسبق من الوثوب على السلطة لإقامة الدولة

الإسلامية. وقد لا تختلف الحركة الإسلامية هنا عن غيرها من الحركات الثورية العلمانية، فذلك سمة عامة من سمات التخلف، والتفكير في التغيير عن طريق القمة وليس عن طريق القاعدة سمة الفكر الديني القديم الذي يظهر صريحا في الحركة الإسلامية مرة ومؤولا في الحركة العلمانية مرة أخرى. يساعد على ذلك غياب الحريات، حريات التعبير في النظم القائمة. فلا تجد الحركتان أمامهما إلا التعبير العملي من أسفل طالما أن التعبير النظري من أعلى مكتوم في الصدور.

٤- وفي الممارسة يأتي الحكم الإسلامي ليس فقط كبديل عن الأنظمة القائمة بل كنقيض لها. لا يقبل معها تعاونا في أي شيء حتى فيما يمكن الاتفاق عليه مثل تحرير الأرض أو مقاومة الفساد. فاحتلال الأرض قد يكون انتقاما إلهيا من النظام، وانتشار الفساد في البر والبحر قد يكون دليلا على إفلاس حكم البشر ومقدمة للحكم الإلهي، وكأن حكم الإسلام لا يقوم إلا على أنقاض النظم القائمة وبعد العماء الشامل. وبالتالي تعطى الأولوية للنظم السياسية ونوعيتها وأسسها النظرية على حقوق الإنسان واستقلال

الشعوب والمعطيات العملية مع أن الله قد ينصر هذا الـدين بالرجل الفاجر. وكأن الخير المطلق لا يأتي إلا بعـد الشـر المطلق، فالملاك نقيض الشيطان، والأبيض لا يجتمـع مـع الأسود، والحق ضد الباطل، والنور متناقض للظلام، كلاهما لا يجتمعان، ووقعت الحركة في جدل الكل أو لا شيء، وقد أدى هذا المنطق الصارم في الممارسة إلى الحصـول علـى لا شيء بل خسرت الحركة الإسلامية مكتسـباتها الأولـى، وأزيحت عن الطريق، وابتعدت عن الساحة الوطنية، وظلت هامشية في المجتمع، تتربص به، وتنتهز فرصة الدخول إلى قلبه لأداء الدور، فاتسـمت بالعقليـة الانقلابيـة وبـالمنهج الانقلابي. وبالرؤية الانقلابية، مع إنه في العـادة لا تحـدث مثل هذه الانقلابات في التاريخ، والثورات نفسها تراكمـات كمية تحولت إلى تغيرات كيفية في لحظة معينة هي لحظـة الثورة، فلا شيء ينتج من لا شيء. وقد أتى الإسـلام فـي نشأته أيضا بعد إعداد طويل في اليهودية والمسـيحية، بـل وابتداء من تراث إبراهيم، وبعد تأهيل الجزيرة العربية نفسيا وفكريا نفورا من الجاهلية والتشتت وتطلعهم إلى دين جديـد يوحد شملهم، ويقوي شوكتهم، ويقضي على مفاسدهم، ويغير

قيمهم، فحارب الإسلام وأد البنـات، والغـش فـي الكيـل والميزان، ودافع عن كرامة المرأة وحقها، وجعـل الإسـلام إصلاحا في الأرض لا إفسادا. فـنهج الإسـلام إصـلاحي تدريجي، يبدأ بما هو موجود مثل شعائر الحج، ويطورهـا، ويدخلها في الدين الجديد.

٥- وتبدو العبادات وكأنها ذروة الحكم الإسلامي، إقامة الأركان الخمس، ويكون محك الدولة الإسلامية مقدار ما فيها من مساجد تنافس الكنائس والمعابد، وإقامة للشعائر، ونـداء على الصلاة في أجهزة الإعلام، ومن مكبرات الصوت فـي المآذن، وبرامج إعلامية دينية تطغى على كل شيء، ولباس وهندام، وهي كلها مظاهر الحكم الإسلامي ولبسـت أسسـه وأبنيته، مع أن الدولة تقـوم علـى المعـاملات، والأحكـام السلطانية بكل ما فيها من خراج وإحيـاء المـوات، وأرض وزراعه وصناعة وتعـدين وتجـارة وسياسـات للأجـور. لا يوجد دستور إسلامي واحد حتى الآن كي يعرف النـاس ماذا تعني الدولة الإسلامية وما نظامها. مـاذا عـن ملكيـة الأرض، وإدارة المصنع، وبرامح التعليم، ومراكـز البحـث العلمي، وتوزيع الدخل القومي في كل بلد إسلامي أولا قبـل

توزيعه على الأمة الإسلامية من شرقها إلى غربها؟ ماذا عن النشاط الاقتصادي العام، حر في يد الأفراد أم موجه تحـت سيطرة الدولة؟ هناك عشرات من الدراسات فـي الإسـلام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والقانوني، ولكن الاختلاف بينها لا يعطي تصورا إسلاميا صحيحا لدولة إسلامية تقـوم في هذا العصر، كما أن العموميات لا تغني عن التطبيقـات التفصيلية في هذا الميدان أو ذاك. يبدو أن الحركة الإسلامية نظرا لظروفها التي مرت بها أخذت بالطريق الأسهل والأكثر وضوحا وظهورا أمام الناس حتى تثبت نفسها على السـاحة وتركت الأصعب وهو بنيان الدولة الذي فاضت فيه الحركـة العلمانية.

٦- وقد يتم تجاوز العبادات إلى الأخلاقيات العامة، ضد أخلاقيات الجنس والانحلال والإباحية، فيعني الحكم الإسلامي قلب موائد القمار على رؤوس المقامرين، وإغلاق الحانـات والملاهي الليلية، وكسر زجاجات الخمور وسكبها في الطرق العامة والتصدي للعري، والالتزام بالحجاب، وفصل الطلبـة عن الطالبات في دور العلم، ودعوة المرأة إلى العـودة إلـى بيتها، وترك الوظائف العامة، كل ذلك وارد إسلاميا لا شـك

فيه ولكن متى؟ أين الأولويات؟ وبأيهما نبدأ؟ بتكسير الحانات أم بإقامة المستشفيات ودور العلم؟ بشراء مكبرات الصـوت للآذان أم بتصنيع السلاح لمقاومة العدو وتحرير الأرض؟ إن الأصوليين القـدماء فرقـوا فـي مقاصـد الشـريعة بـين الضروريات والحاجيات والتحسينات، والضـروريات هـي المحافظة على مصالح الناس الأساسية، صحيح أن النظـرة المتطهرة ضرورية ولكن الطهارة لا تظهر فقط في الأخلاق بل في السياسة والاجتماع والاقتصاد والقانون وشتى مظاهر النشاط الإنساني. لم يأت الإسلام للتحريم واللعنة وللقلب، تلك صورة المسيح عندما دخل المعبد وقلب موائد التجار الـذين حولوا معبد الله إلى حانوت، ولكنه ليس منهج الإسلام الـذي يبغي نقل المجتمع كله من مرحلة إلى مرحلة، وتغيير الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كلها، وليس فقـط تغييـر السلوك الخلقي للأفراد. الأشياء فيه على البراءة الأصـلية، الأصل فيها الإباحة.

٧- فإذا لم يستطع الأفراد الالتزام بالشريعة الإسـلامية على هذا النحو أتت الحدود لتردعهم، وتكون مهمـة الدولـة ومقياس الحكم الإسلامي هو تطبيق الحدود، قطع يد السارق،

ورجم الزاني إلى آخر هذه التحديات التي تعرضها الحركة العلمانية والغرب للإسلام للرد عليها، وهل يمكن تطبيق الحدود قبل التحقق من الأسباب؟ هل يمكن مطالبة الناس بأداء واجباتهم قبل أن يعطوا حقوقهم؟ هل العربة أمام الحصان أم الحصان أمام العربة؟ بأيهما نبدأ، بتطبيق الحدود في دولة لا تحكم بالشريعة الإسلامية أم بتطبيق الشريعة الإسلامية أولا بعد إعداد الناس، فإذا أخلوا بواجباتهم طبقت عليهم الحدود؟ هل تقطع يد الجائع؟ هل يرجم الزاني المثار يوميا في أجهزة الإعلام بالعري والرقص والجنس، ومن السارق الذي سرق كسرة ليأكل أو أكثر من ذلك في مجتمع كله يسرق، أم ناهب ثروات الأمة ومهرب أموالها في البنوك الأجنبية، ومبددها على موائد القمار، مالك الإقطاعيات، سارق خزائن السماوات والأرض؟ وماذا عن الزاني، هل هو المتسكع في الطرقات الذي لا يجد زواجا لانعدام ذات اليد أم فسق القصور والأبواب المغلقة؟ وماذا عن الشارب، هل هو الذي يشرب لينسى همومه وفقره وحرمانه وأحزانه، أم الدولة التي تبيع الخمور وتقدمها للسائحين وتعرضها في الأسواق الحرة للحصول على العملة الصعبة؟

٨- وهل يمكن إقامة حكم إسلامي دون إقناع النـاس؟ وكيف يتم الإقناع بالتعصب والتصلب وضيق الأفق والتحزب والتشنج والغضب والخصام؟ كيف نقرأ إذن (**لو كنـت فظـا غليظ القلب لانفضوا من حولـك**) (٣: ١٥٩). صـحيح أن الضحك الكثير يميت القلب وأنه لا بديل عن الجدية وتوضيح المواقف وعدم التنازل أو المساومة ولكن لا بديل عن الإقناع والاقتناع، وافتراض أن الخصم على خطأ ولكنه قـد يكـون على صواب، وأن الإنسان على صواب ولكنه قد يكون على خطأ على سنة الفقهاء القدماء، إن الأفضل للحركة الإسلامية أن يتسع صدرها دون أن تلقي باللعـان والسـباب ودون أن تلقي بالتهم وتسيء الظن بالمخالفين، فمن قال لأخيـه أنـت كافر فقد باء بها، وهي لم تشق قلوب الناس، وأن تنظر إلـى الحركة العلمانية باعتبارها من المؤلفة قلوبهم، تتـودد إلـى أنصارها، فقد نشأت الحركة العلمانية فـي غيـاب البـديل الإسلامي الثوري. وقد آن الأوان لإعادتهـا إليـه بعـد أن خرجت في غفلة من الحركة الإسلامية وعلى نقيض منهـا، فنشأ العداء بين خطأين تـاريخيين لا ذنـب لأحـد فيهمـا إلا قوانين التاريخ. علاقة الحركة الإسلامية بالحركة العلمانية

علاقة الأم بأبنائها، فلا غلظة ولا إدانة حتى ولو قال العلمانيون لها أف ونهروها!

ثالثا: مميزات الحركة العلمانية وعيوبها.

ونعني بالحركة العلمانية التيارات السياسية الثلاثة التي ظهرت في تاريخنا الحديث بالليبرالية والناصرية (القومية العربية) والماركسية، الأولى منها حكمت قبل الثورات العربية الأخيرة وما زالت تحكم في بعض الأقطار العربية والإسلامية. والثانية ما زالت يحكم باسمها بالرغم من انتكاساتها وردتها وانقلابها أحيانا إلى عكس مبادئها، ونقيض دعوتها، والثالثة لم تحكم بعد إلا في قطر عربي واحد ولكنها دخلت في ائتلاف حاكم في بعض الأقطار العربية الأخرى. وبالرغم من وجود اختلافات جذرية بينها وصلت حد الصدام والصراع والإعدام المتبادل إلا أنها تشارك جميعا في صفة العلمانية وترفضها الحركة الإسلامية رفضا كليا، وهي في صراع معها منذ جيلين سواء أثناء حكم الليبرالية أو بعد اندلاع الثورات العربية أو مع الجناح الآخر وهي الماركسية كمتنافسين محتملين على السلطة في المستقبل وكبديلين مطروحين بنفس الحدة عند أنصارهما للنظم الحاكمة القائمة.

فإذا كان الصراع بين الحركة الإسلامية والحركة العلمانيـة صراعا على السلطة فإنه يأخذ شكلا خاصا مـع الماركسـية وهو العداء المبدئي حتى ولو كان هناك بعض أوجه الاتفـاق العرضي. وبالرغم من ارتباط كل من التيـارات العلمانيـة الثلاثة بالإسلام بطريق أو بآخر في الأدبيات عن الحريـات في الإسلام والاشتراكية في الإسلام والمذاهب المادية إلا إنه ارتباط دفاعي خارجي سطحي من أجل التكيف مـع الواقـع وتفنيد حجج الخصوم. وتظل التيارات الثلاث في جوهرهـا ونشأتها علمانية خاصة.

والحركة العلمانية أيضا حركة شرعية في تاريخنا القديم والحديث لها رصيدها الوطني، وإنجازاتها واضحة العيان في تاريخنا المعاصر ساهم فيها جيلنا، ومن ثم فهي أيضا جـزء منا ونحن جزء منها، يعز علينا انكسارها، ونقـاوم ردتهـا، ونفكر معها في وسائل رأب الصدع، ونفكـر رغمـا عنهـا أحيانا في توثيق عرى الأمة والعمل على وحـدتها، فلـيس هناك جناح للأمة عدو للجناح الآخر وإلا فما نهاية التكفيـر المتبادل؟ وماذا نفعل في الخصم؟ نكمم أفواهه، ونلقي به بين جدران السجون، وهو ما عانت منـه الحركـة الإسـلامية

أم نقتله ونتقي شره مرة واحدة وإلى الأبد؟ إن فعلنا سيخرج آخرون غيرهم أكثر انتقاما وأقوى شوكة وأصلب عودا وأشد شراسة. فالفكرة ما زالت موجودة بالإضافة إلى الرغبة فـي الثأر والانتقام.

(أ) مميزات الحركة العلمانية.

وكما أن الحركة السلفية لها مميزات ثابتة دائمة تجعلها باستمرار بديلا مطروحا أمام الناس، ولهـا عيـوب وقتيـة عرضية يسهل تغييرها، فكذلك الحركة العلمانية لها مميزاتها التي تجعلها أيضا اختيارا ثابتا ودائما أمام جمهرة المثقفـين كالليبرالية وأمام جماهير الأمة العربية كالناصـرية وأمـام الصفوة أو الطليعة الماركسية، ولها عيوبها التي تجعل مـن الناس تتحسر عليها وتتأسى عليها وتبغـي لهـا الخـلاص والفكاك من الحصار الذي فرضته على نفسها. وأهم مميزات الحركة العلمانية:

١- استطاعت الحركة العلمانية أن تجـد لنفسـها لغـة تعبير مفتوحة عقلانية يقبلها الجميع بـل وتجـذب جمـاهير المثقفين فتتحدث بلغة العقل والمنطق، وتعتمد على معطيـات الإحصاء وتحليل الواقع. فالحكم للشعب، والحرية للجميـع،

وتطالب بإعادة توزيع الثورة، وبتحقيق العدالـة الاجتماعيـة والمساواة، وتذويب الفوارق بين الطبقات، وتنادي بالدستور، وبالمجالس النيابية الحرة وبالديمقراطيـة، وتجعـل العمـل مصدر القيمة، وتدعو إلى مناهضة الاستعمار والصـهيونية، تضع شعارات براقة يكون لها السحر والبريق الذي للآيـات القرآنية والأحاديث النبوية عند الإسلاميين، والأمثال العامية والحكم والسير الشعبية عند بسطاء الناس للاستشـهاد بهـا وكحجة يعتمد عليها. وهي قادرة على الحوار مع الآخـرين، ولا ترفض أشكال الوحدة الوطنية، لهـا خطـة تدريجيـة، وبرامج عملية مفصلة، تستعمل لغة العقل والحـوار وتفـتح باب النقاش، لا تكفر أحدا، ولا يضيق صدرها بأحد، تتحدى الجميع بوضوح رؤيتها ولكنها لا تجد إلا صـدا أو تكفيـرا مبدئيا رافضا.

٢- المناداة بالحريات العامة للجميع، وبحق التعبير لكل التيارات السياسية، وللخصوم قبل الأصدقاء. فالحريـة حـق الإنسان الطبيعي، والديمقراطية أسلوب مثالي للحكم مـا زال يمثل غواية بالنسبة للشعوب المقهورة. الاختيار حر للشعب، والمجالس النيابية المنتخبة تمثل الأمة. وتـزداد الشـعارات

بريقا عن الحرية والاشتراكية والوحدة تعبيرا عن أهداف الأمة. و(محمد رسول الحرية) وهناك (المعذبون في الأرض) و (قرية ظالمة) ولماذا لا يكون الحكم للأغلبية وللجماهير الكادحة، العمال والفلاحين؟ العمل مصدر القيمة وإلا فلماذا حرم الربا؟ والأرض لمن يفلحها، وإعطاء العامل أجره قبل أن يجف عرقه، هذه اللغة الواضحة قادرة على إلهاب خيال الشاب، وتحريك وجدان الأمة وتعبر عن الحرية المكبوتة في الصدور وعن أمل التحرر في المستقبل.

٣- ظهرت فيها الأفكار الاشتراكية، وتكونت فيها الأحزاب التقدمية، وتبلورت من خلالها أيديولوجيات المساواة والعدالة الاجتماعية، وتكونت أجنحة جذرية في الأحزاب الليبرالية. ثم حملتها الثورات العربية المعاصرة وحققت بعض أفكارها. كانت مدرسة. تعلم فيها جيلان الأفكار التقدمية والمذاهب الاشتراكية ابتداء من هذا القرن قبل أن يقعا في العداوة المتبادلة في هذا الجيل. ومن خلالها تمت الدعوة إلى العلم والتصنيع والتحديث حتى أصبحت معادلة للحداثة كما كانت الحركة الإسلامية ممثلة للأصالة.

٤- ازدهرت الحركة الثقافية فيها، وتكونت من خلالهـا مجموعات من المثقفين والأدباء استطاعت القيام بدور الريادة في التعليم والثقافة والفنون والآداب، ومنها تأسست الجامعات وتطور الأزهر، وأصبح التعليم مجانيا كالماء والهواء، وكان ينشأ في أوائل الثورة المصرية مدرسة كل يومين، انتسـب إليها معظم مفكرينا وأدبائنا وفنانونا الذين ما زلنا نعتز بهـم حتى الآن والذين نتحسر على انقضائهم دون خلف لهم، وفيها نشأت الصحف الحديثة، كمنبر حديث للرأي الحر. وازدهرت مجلاتنا الثقافية، وتأسست لجان التأليف والترجمة والنشـر، وأرسلت البعثات إلى الخارج في شتى أنواع العلوم والفنـون والآداب.

٥- ارتبطت أيضا بالإسلام بشكل ما. فحب الوطن من الإيمان، والإسلام دين علماني منذ البداية ليس فيـه رجـال دين، يقوم على رعاية المصالح العامة، ويرعى شئون الدنيا، ظهر من خلالها عدد من الكتـاب والمفكـرين الإسـلاميين يتحدثون عن حياة محمد وعبقريـات الصـحابة وفتوحـات الإسلام ومآثر الحضارة الإسلامية وفضلها على الغرب، بل إنها لم تكن بعيدة تمام عن الإصلاح الديني أو منفصلة عنه،

فقد كان الغرب الليبرالي نموذجا للإصلاح كما كان الإسـلام نموذجا للحكم الليبرالي الذي لا يستعبد الناس وقـد ولـدتهم أمهاتهم أحرارا.

٦- تعبر الحركة العلمانية أيضا عن تيار أساسي فـي تاريخنا المعاصر منذ محاولة إنشاء الدولة الحديثة في مصر منذ محمد علي حتى ناصر، وارتـبط بهـا رواد النهضـة العربية المعاصرة برافديها السياسي والعلمي. ومن خلالهـا قامت محاولات التحديث والتصنيع وشـق الطـرق وإقامـة الجسور والسدود واتساع رقعة الأراضي الزراعية وإرسـاء قواعد العمران، بل أيضا قامت النهضة الأدبية من خلالهـا. وكانت الحداثة هنا تعبيرا طبيعيا عن روح العصر بالإضافة إلى كونها نتاجا إراديا مقصودا.

٧- ارتبطت بالحركة الوطنية ولازمتها، واسـتطاعت التعامل مع الآخر أي الغرب بلغته ومفاهيمه وأسـاليبه. بـل إنها أحيانا قادت الكفاح المسلح والتف حولها الشعب ممـثلا في قيادات تاريخية تم على يديها الاستقلال الوطني، وإن لـم تستطع تجنيد الجماهير في حزب منظم له أطر باقيـة عبـر الأجيال. كانت شعبيتها تلقائية تعبر عن مصالح الأمة تعبيرا

مباشرا عن طريق تجسد الحق في الزعامة كمفهوم تقليـدي موروث، وفي بعض الأحيان أصبحت تاريخ الحركة الوطنية كلها.

٨- حققت مطالبنا القومية، فقد استقلت أوطاننا بالفعـل على يديها، وقادت كفاحنا الوطني، وتأسست دولنا المسـتقلة من خلالها وعلى رغم من معارضة الحـركتين الأخـريين، الإسلامية والماركسية كجناحين أو كطرفين يجـذبان القلـب أو الوسط الذي يعبر عن جماهير الأمة بصرف النظر عـن مدى ثقلها فيه، وبالتالي أصبحت المكـون الرئيسـي لكـل مواطن، وصوت تاريخي واختيار فعلي، وبقـي الجناحـان مجرد بديلين محتملين مستقبليين.

(ب) عيوب الحركة العلمانية:

وبالرغم من هذه الإنجازات الضخمة للحركة العلمانيـة ومميزاتها في تاريخنا المعاصر إلا أنها لم تخل من عيـوب جعلتها ربما في انحسار مستمر وظهور البـديل الإسـلامي كمنافس خطير لها، تخشاه وتصارعه وتتهمه بقلب السـلطة واستعمال العنف وهي تخشى نفسها وتستعمل العنـف فـي الدفاع عن مواقعها. وأهم هذه العيوب:

١- معاداة الحركة الإسلامية عندما وجدت أنها منـافس خطير لها في السلطة وبالرغم من ظهور بعـض المفكـرين الإسلاميين ودعاته من ثنايا الحركة العلمانية، ووصل الأمر إلى اضطهاد أعضاء الحركة الإسلامية وقتل زعمائها وسجن أعضائها وتعذيبهم وحل جماعتها ومنع صحفها، كما وصـل الأمر خاصة في الثورة العربية إلى تعليق المشـانق وأبشـع أنواع التعذيب الجسدي. وفي نفس الوقـت شـق الحركـة الإسلامية العامة واستعمال رجال الدين الرسـميين لتبريـر السلطة القائمة وهم الغالبية، وبشق صف الحركة الإسـلامية إلى خوارج عاصين، خارجين على القانون، أقلية تبقى فـي الحكم، وتستعمل وسائل العنف وتقتل الأبرياء، والإسلام دين سماحة وسلام وإلى أهل سنة وجماعـة يطيعـون الأئمـة، ويطلبون لهم النصر، ويدعون لهم على المنابر، ويصـدرون لهم الفتاوى، أي فقهاء للسلطان، وبالتالي خاف النـاس مـن الأولين وفقدوا احترام الآخرين. حوصر الأولون وضـاعت الثقة فيهم، يحللون اليوم ما يحرمونه بـالأمس، ويحرمـون اليوم ما يحللونه بالأمس، يأكلون على موائد كل الملوك حتى

أفتت الحركة الإسلامية بعدم جواز أئمتهم أو الصلاة في مساجدهم.

٢- الانفصال عن التراث وعدم الغوص فيه سواء عند القدماء أو كمخزون نفسي في وجدان المعاصرين لفهم معوقات التقدم ولمعرفة البواعث عليه وكأن التغير الاجتماعي يحدث من لا شيء، مجرد الهياكل التحتية دون الأبنية الفوقية، وكأن السياسة ليست لها جذور في التاريخ، وكأن التحليل السياسي لا يقوم أساسا على وعي بالتاريخ، فأصبحت النهضة أقرب إلى فقاعة في الهواء، والليبرالية بالون منتفخ، والاشتراكية مجرد خطابة تدخل من أذن وتخرج من الأخرى. وانتهت النهضة بعد الجيل الرابع، جيلان بدآ في القرن الماضي وجيلان أنهاها في هذا القرن، فسقط الصاروخ بمجرد انطلاقه ولم يستطع خرق حجب الفضاء. على حين استمر التراث في تغذية الحركة السلفية ويمدها بأعماقها في التاريخ وتنشر جذورها فيه. ولم توضع قضية التراث إلا بعد انتكاسة الثورة العربية في السبعينات بعد هزيمتها في الستينات حتى يمكن وضع المشكلة، مشكلة النهضة من الجذور.

٣- ونتيجة للانفصال عن التراث، وضرورة الارتبـاط بتراث ما، ارتبطت الحركـة العلمانيـة بـالتراث الغربـي، ووقعت في (التغريب) وامتدت روافدها وجذورها في الغرب سواء في العقلانية أو العلميـة أو الليبراليـة أو الاشـتراكية أو القومية، عن وعي أو عن لا وعي. ولم تنجح محـاولات التكيف مع الواقع أو التبرير بالتراث وعمل عقلانية أو مثالية إسـلامية، أو وجوديـة إسـلامية أو وضـعية إسـلامية أو شخصانية إسلامية أو مادية إسلامية، التراث استعمل هنا كوسيلة تبرير اختيار مسبق من الغرب وليس كأداة تطـوير للواقع الاجتماعي المحلي ذاته. لقد تعلم القادة والمثقفون فـي الغرب وعادوا منذ الطهطاوي يبشـرون بـنمط الحضـارة الغربية، منبهرين بالغرب مثل حركة الإصلاح الديني تماما. وقد كان ذلك طبيعيا إذا ما قارنا الأوضاع الاجتماعية في كل من بلدان الشرق والغرب في القرن الماضي. أما الآن فقـد بدأت الآثار السلبية للانبهار بـالغرب ولاعتبـاره نموذجـا للتحديث في الظهور.

٤- ولم يقتصر التغريب فقـط علـى الثقافـة والأدب وأساليب العمران وطرق الحياة بل تعداها إلى موالاة الغرب

في السياسة والاقتصاد. فقد أخذت الليبرالية بالرغم من صراعها السياسي مع الغرب بنمط تحديثه وقلدته. وشعرت كما هو الحال أيضا في بدايات الثورة العربية بأن الغرب حليفها الطبيعي نظرا لقربها الجغرافي وعدم تعودها على إقامة علاقات مع دول كبرى غير الغرب. ثم تحالفت الثورة المصرية في مرحلة الردة الأخيرة مع الغرب صراحة اقتصادا وسياسة، وعادت النهاية مثل البداية حتى ابتلعها الغرب وكاد يبتلع المنطقة بأكملها. بل إن الماركسية المنتشرة عندنا هي أقرب إلى الثقافة الغربية منها إلى النظرية السياسية المحلية التي تقوم على تحليل معطيات الواقع الاجتماعي، فهي مشرع ثورة بناء على بنية ثورة الثقافة الغربية وليس على معطيات التراث المحلي. وبالرغم من بريق الشعارات وجمال العبارات إلا أن أثرها خال وقتيا في نفوس الجماهير تطرب لها كما تطرب للإفتاء، وسرعان ما ينقضي الأثر بعد سماع الخطبة أو سماع الوصلة الغنائية السياسية. وذلك لأنها لم ترتبط أيضا بثقافة الجماهير، ولم تنبع من تراثها، ولم تبن على أمثالها العامية وسير أبطالها وقدوتها في التاريخ. بل إن البعض منها أصبح مناطا

للفكاهة والسخرية إذا ما قسنا الشعار على الواقع ورأينا بعد المسافة إلى حد التناقض الصارخ. فأدارت لها الجماهير ظهرها كما سدت أذنيها من قبل.

٥- بالرغم من أن النظم الليبرالية قبل الثورة العربية كانت تقوم على الحرية والنظم البرلمانية ووضع الدساتير وحرية التعبير ممثلة في الصحافة، إلا أنها لم تجد بعض أحزابها ضيرا في التعاون مع القصر والاستعمار أو أن تقوم بدور القهر للخصوم السياسيين فتدبر الاغتيالات لهم (مقتل حسن البنا). وكانت السجون ملأى بالمعتقلين والمعارضين. وقد تعودت أجهزة الأمن على ذلك في تاريخنا المعاصر كله، فتربى لديها عداء للشعوب وفي مقدمتهم المثقفين والمعارضين السياسيين، الشباب والطلاب، العمال وصغار الموظفين، واستمر الحال حتى إبان الثورة العربية وهي في قمة إنجازاتها الاجتماعية والسياسية حتى تحولت الحرية إلى أسطورة عند من حكم باسمها أو إلى حلم وخيال عند من لم يحكم بعد، وأصبح مطلب الحرية والديمقراطية أهم مطلب شعبي حتى قبل العدالة الاجتماعية وبالرغم من أن الحركة العلمانية ديمقراطية تؤمن بالنظم البرلمانية وبالانتخاب الحر

إلا أن بعض فصائلها كالماركسية مثلا أو التنظيمات الحزبية في الجيش لا تتورع عن القيام بحركات انقلابية للاستيلاء على السلطة، تحريرا للشعوب، ودفاعا عن الديمقراطية! وما أسهل بعد ذلك من تكوين مجالس نيابية وتأسيس أحزاب لإكمال الصورة الخارجية للنظام.

٦- قامت الحركة العلمانية ممثلة في الليبرالية على أكتاف الطبقة العليا أولا ثم على أكتاف الطبقة المتوسطة ثانيا ممثلة في الثورات العربية فنشأ الإقطاع كنظام يعبر عن الطبقة الأولى ثم رأسمالية الدولة (الاشتراكية العربية) كنظام يعبر عن الطبقة الثانية. فالحركة العلمانية إذن بنظاميها اللذين حكما في تاريخنا الحديث ظلت طبقية في تصوراتها وقراراتها ورؤيتها. ورثت الطبقة المتوسطة بعد الثورة الطبقة العليا قبلها، وتمتعت بمميزاتها، ثم ظهرت طبقات جديدة بعد الثورة وأثرت على حسابها فاتسع نطاق الطبقة المتوسطة بعد أن كانت الطبقة العليا محاصرة في مجتمع النصف في المائة، وأصبح من الصعب نقدها أو زحزحتها عن مواقعها نظرا لأنها وطنية قامت بثورة تمثل وسط الأمة وما زالت تحرص على قلبها ضد الجناحين المنافسين لها،

الإسلامي والماركسي، وتتهمهما بالتطرف وممارسة العنف. والسؤال الآن: هل ستنجح الحركة الماركسية في التعبير عن الجماهير الكادحة إذا ما حلمت في المستقبل؟

٧- لم تنجح الحركة العلمانية في تجنيد الجماهير نجاح الحركة الإسلامية، وظلت الليبرالية تيارا شعبيا جارفا بلا تنظيم فعلي قادر على الصمود في لحظات الاضطهاد سواء بأطره أو بجماهيره كما هو الحال في الثورة الإسلامية في إيران. وظلت الثورات العربية بلا تنظيم سياسي فعال بل مجرد هيكل بيروقراطي يعقد ويحل بين يوم وليلة بالرغم من تكوين تنظيم طليعي شبه سري، عصبا للحزب العلني القائم. وأحيانا أخرى يقوم التنظيم على الجيش والقوة المسلحة أو أجهزة الأمن والمخابرات! أما الحركة الماركسية فلم تجمع إلا عددا قليلا من المثقفين والعمال، منظمين سرا أو علنا ولكنها محدودة الأثر لم تنتشر في جموع الفلاحين وهي الغالبية العظمي في الأمة، وبالتالي ظلت الجماهير الخميرة الأساسية للحركة الإسلامية.

٨- وبالرغم من انتصارات الليبرالية وقيادتها لحركة التحرر الوطني في تاريخنا الحديث، وبالرغم من إنجازات

الثورات العربية في إكمال تحرير الأراضي وتدعيم الاستقلال الاقتصادي والسياسي للبلاد إلا أن الحركة العلمانية أصيبت بهزائم متتالية سواء قبل الثورة المصرية أو بعدها. فقد وضعت الثورة حدا لليبرالية وانتكست الليبرالية بعدها بالقضاء نهائيا على الحريات إبان الثورات العربية، فصفت الحركة العلمانية أجنحتها المختلفة بيدها. ثم توالت الهزائم على الثورات العربية بعد أن تحالفت القوى الاستعمارية والرجعية والصهيونية بالرغم من انتصار ١٩٧٣. ثم انتهت الحركة العلمانية بأنظمتها الحاكمة بعد غزو لبنان ومعركة بيروت في ١٩٨٢، مما جعل الحركة الإسلامية تعرض نفسها على أنها البديل الوحيد، كما يبدو ذلك من هتافات تنظيم الجهاد وراء القضبان أثناء المحاكمات الدائرة حاليا:

إن الأقصى قد نادانا　　　　**من سيعيد القدس سوانا**

رابعا: خاتمة.

تلك بدايات حوار، مجرد نقاط عامة، وعلى كل حركة أن تبرز ما لها وما عليها، فالكمال لله وحـده، وأن الـوعي السياسي لكل تيار ليتطلب نقـدا ذاتيـا ومراجعـة للـنفس، وعرض حساب التاريخ وشهادة الواقع. قد لا يصـيب هـذا التحليل في هذه النقطة أو تلك أو قد يعتبر أحـد ميـزة مـا يعتبره الآخر قصورا. المهم هو مراجعة النفس. وهذه إحدى المحاولات وليست الوحيدة الممكنة. وقد يكون في مراجعـة الحساب المشترك إثراء متبادل للجميع، فلـيس الإنسـان إلا رؤية جزئية مهما حاول أن يكون متكاملا، وليس إلا انفعالا مهما حاول أن يكون عاقلا. ومع ذلـك، فـلا بـديل عـن الموضوعية والمحايدة، دون الانتساب إلى حزب دون حزب أو تغليب فريق على فريق بالرغم من أن الهوى والوجـدان والحلم والخيال قد يكون مع الحركـة الإسـلامية، والواقـع والعقل والإمكانية والمرحلة التاريخية قد يكون مع الحركـة العلمانية. ومن يدري فلربما أمكن أن تعي الأمـة مميـزات تياراتها المختلفة وتجمع بينها وتتخلى عن أوجه قصورها. قد ينشأ تيار إبداعي أصيل يجمع بين التيارات المتصـارعة لا

بروح التوفيق أو بمنهج المصالحة بل على نحو يجمع صدق الجميع ويترك هفواته. قد يعطي ذلك نموذجا للحكم فيما بعد، وهو حكم الائتلاف الوطني، فحكم الأغلبية ضـار بالأقليـة، وكثيرا ما تفتتت الأغلبية فضـاعت أغلبيتهـا ثـم تحـدث التنازلات المتبادلة للإبقاء على تحالف الحكم مما قد يضـر بمصالح الأغلبية الحاكمة نفسها وبرنامجها السياسـي. وقـد تكون الأقلية أكثر فعالية وحضورا من الأغلبية. ثـم تنشـط وتصبح أغلبية الغد بعد أن تضيع أغلبية اليوم وتصبح أقليـة الغد. وبالتالي كانت حكومة الائتلاف الوطني أنسـب نظـم الحكم في مراعاة مطالب الأمة خاصة إذا كانت كلها روافـد شرعية في التاريخ. ولا خوف من التضـارب والتطـاحن، فإمكانية برنامج موحد قائمـة وواردة، فالمخـاطر واحـدة: احتلال الأرض، وضياع الثروات، وقهر الحريات، وتجزئـة الأمة. والحلول واحدة: تحرير الأرض، واسترداد الثروات، وإعلان الحريات، ووحدة الأمة. ففي الوقت الذي تتحد فيـه الحركتان الإسلامية والعلمانية لإنقاذ وطني عاجـل سـيحيا القلب، ويطير الطائر، وتحلق أجنحته في الآفاق.

دعوة إلى الحوار*

لقد آن الأوان للم الشمل والبحث عن الوحـدة الوطنيـة الكامنة في النفوس، والتي يفرضها الواقع، والتـي تحـددها الأهداف القومية المشتركة بين جميع فرقاء النضال في وقت لا يفرق فيه الغزو الصهيوني بين حركـة تقدميـة وطنيـة وحركة إسلامية سنية أو شيعية. فهذا الوطن للجميع، ونحـن جميعا أبناؤه، ولنا جميعا شرف الانتساب إليه، وفخر الـولاء له، وعلينا جميعا فرض خدمته والعمل على رفعته. واجتهاد الرأي ليس حكرا على أحد أو خاصا بفريق دون فريق. فقـد انتهى عصر الاستعمار أو كاد كما انتهى عصـر التخـوين والتكفير والاتهام والمتبادل. ولم يعد أحد قادرا على أن يقول أنا الحق وما دوني هو الباطل.

وليس غريبا أن يصدر هذا النداء من منبـر اليسـار. فاليسار أحرص الفرقاء على الوحدة الوطنية، وأكثرهم قدرة

---

* نشر الجزء الأول فقط في (الأهالي) في ١٩٨٣/٩/١٥.

على التصور العلمي للواقع. ولما كانت الحركة الإسلامية حركة أصيلة في مجتمعنا تمتد جذورها إلى تاريخ الأمة وروحها وكان اليسار أكبر معبر عن واقع الأمة ومقتضيات عصرها، وحاجات جماهيرها، أتى هذا النداء من الواقع إلى التاريخ، ومن الحاضر إلى الماضي، ومن الثمرة إلى الجذور لتحقيق وحدة الأمة والحرص على الماضي والحاضر على السواء، والتمسك بقدرات الأمة على الإبداع، فلا إبداع بلا أصول.

واليسار أكثر فرقاء النضال إحساسا بالاضطهاد وبأهوال التعذيب ومآسي المعتقلات. وما حدث للحركة الإسلامية في الثلاثين عاما الأخيرة يجعل اليسار متعاطفا معها من منطلق الزمالة في السجون. فقد جمعتهم المعتقلات، وتعرف كلاهما على الآخر في غياهب السجون كما حدث أخيرا في سبتمبر الماضي، فاكتشف كل منهما الآخر، إمكانياته وحدوده. وتمت المصالحة الوطنية في النضال المشترك، وحدثت بدايات الحوار داخل الأسوار. وقد آن الأوان لأن يحدث على الملأ خارج الأسوار وأمام الأعين حتى يشهد الناس على الحق وتشهد الأمة على التاريخ.

وقد آن الأوان أن يعتبر كلا منا نفسه قريبا من الآخر. فقد حاول الاستعمار كما حاولت السلطة القائمة تشويه صورة كل فريق لدى الفريق الآخر. فجعل بعض اليسار يعتقـد أن الحركة الإسلامية تيار رجعي محافظ متخلـف، أسـطوري غيبي متصوف، تنقصه الوطنية، يتعاون مع الاستعمار كمـا تعاون من قبل مع القصر، يسعى إلى الحكم، يراوغ ويناور، وينقلب على الحلفاء، وينقض على السلطة، ويمارس العنف، ويلجـأ إلى الاغتيالات، لا يرفع إلا الشعارات، ولا يبغي إلا قطع يد السارق، ورجم الزاني، ولا يهدف إلا إلـى إطالـة اللحى ولبس الحجاب! كما حاول الاستعمار أيضـا تشـويه صورة اليسار في نفوس الأخوة في الله. فهم كفرة ملحـدون، ماديون، معادون للإسلام، يبغون بالمسلمين شرا، ويناصبون الإسلام العداء، يتربصون بالحركـة الإسـلامية، ويوالـون الاتحاد السوفيتي، يسـعى للسـلطة، ويـدبر الاغتيـالات، ويستعمل العنف، ويجهز الانقلابات. أراد الاستعمار عن عمد إحداث الفرقة بين جناحي الأمة لتقسيمها وضياع وحدتها كي يقتل بعضنا بعضا، وتحويل جبهاتنا الحقيقية فـي مواجهـة الاستعمار والغزو الصـهيوني ومقاومـة القهـر الـداخلي

والمطالبة بإعادة توزيع الثروة بين الناس إلى جبهات مفتعلة يتخذ بعضنا أعداء لا أولياء، ويبحث كل منا عن ولي آخـر يعتمد عليه ويناصره.

وقبل أن نوجه هذه الدعوة إلى الحوار فإننا نطالب أولا بالإفراج عنهم. فلا حوار إلا بين الأحرار، ولا حديث إلا بين الأنداد. فلا يعقل حوار بين مطلق السراح ونزيل السـجون. والغريب أن الحوار قد أصبح الآن شائعا وموضوعا محببـا في الصحف القومية والحزبية ولكنـه حـوار بـين الدولـة ومسجونيها وليس بين مواطنين أحرار، يـتم بـين جـدران السجون وليس على الملأ بين الناس، دفاعـا عـن السـلطة واحتواء للمعارضة الدينية وليس تغييرا للنظام وتأكيدا لحـق المعارضة.

ولو تدبرنا الأمر، لوجدنا أن ما يجمعنا أكثر مما يفرقنا، وأن ما يوحدنا أقوى مما يشتتنا. فمثلا:

١- من منا لا ينظر إلى الماضي نظرة الإعجاب؟ مـن منا لا يرى في الدولة الإسلامية الأولى نموذجا للحكم الرشيد القائم على الشورى والعدالة الاجتماعية؟ مـن منـا لا يـود صياغة حاضرنا بحيث تتحقق فيه مثل القدماء فـي مسـاواة

الحاكم بالمحكوم، ومعارضة الناس للإمام ولو بالسيف وفي أن يكون الأمير آخر من يأكل ويسكن ويلبس، ساهرا على راحة الأمة، مسئولا عن عثر بغلة في العراق، وينام تحت شجرة ورأسه فوق خفه فيقال له (حكمت فعدلت فآمنت فنمت)؟ من منا لا يرى في رسول الله أسوة حسنة، وفي عمر حاكما نود أن يحكمنا اليوم، وفي صحابة رسول الله نموذجا للصحبة وليس كأمرة السوء أو بطانة السلطان؟ أن (يوتوبيا) اليسار لا تفترق كثيرا عن (يوتوبيا) الحركة الإسلامية، كلاهما رفض للواقع الحالي وتصور بديل آخر يظهر إما في المستقبل عند البعض أو في الماضي عند البعض الآخر.

٢- من منا لا يبغي الإصلاح الديني أو ينفر منه أو يرفضه أو يتعالى أو يزايد عليه؟ من منا لا يعتبر نفسه سليل الحركة الإصلاحية الحديثة التي أسسها الأفغاني وسار فيها محمد عبده ورشيد رضا وحسن البناء وسيد قطب؟ من منا لا يرى الأفغاني مؤسسا للحركة الثورية المعاصرة والذي صاغ أكبر مشروع قومي بين محمد علي وعبد الناصر في مواجهة الاستعمار في الخارج والتسلط في الداخل، والدعوة إلى

تجنيد الجماهير، وتكوين نظم برلمانية، ووضع دساتير حديثة تقيد الحكام وتحمي حقوق الشعب، والأخذ بأسـاليب القـوة والتمدن وتحديث المجتمعات، وتأسيس الأحـزاب الوطنيـة، والدعوة إلى وحدة الأمة ابتداء من وحدة وادي النيل أو وحدة المغرب العربي أو وحدة مصر والشـام أو وحـدة مصـر والحجاز أو وحدة شعوب الشرق في مواجهة شعوب الغرب؟

٣- ومن منا لم يبدأ حياته منتسبا إلى الحركة الإسلامية كما ورثها محمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا؟ من منا لـم يكن إخوانيا في بداية وعيه السياسي؟ لقد كان الوفد والإخوان حركتين وطنيتين شعبيتين. فمن لم يكن وفديا كان إخوانيـا، ومن لم يكن إخوانيا كان وفديا. وكانت (مصر الفتاة) تجمـع بين التيارين، بين الإسلام والوطنية، أما الحركـة اليسـارية فكانت محدودة الانتشار وإن كانت عظيمة الأثر. مـن منـا ينكر دور الإخوان في الحركة الوطنية المصرية، وجهـادهم في فلسطين وتجنيد الشباب، وتربية الجماهير بـالرغم مـن بعض الأخطاء في التحليلات والممارسات السياسـية التـي وقعت فيها كل التنظيمات الحزبية؟

٤- من منا ينكر دور الإخوان في الثورة المصرية قبلها وبعدها؟ لقد كانت الثورة المصرية قبل قيامها في ١٩٥٢ على اتصال مستمر بكافة القوى الوطنية وعلى رأسها الإخوان. وكان الضباط الأحرار على صلة وثيقة بقياداتهم. بل كانت هناك رغبة في التوحيد بين الحركتين، كان الإخوان على علم بالثورة قبل وقوعها، عهد إليهم بحراسة المنشآت العامة ليلة وقوعها وبعدها. كان نصف أعضاء مجلس قيادة الثورة من الحركة الإسلامية أو من المتعاطفين معها. وظل الإخوان التنظيم الشعبي للثورة قبل أن تقيم الثورة تنظيماتها الشعبية الخاصة. لم تحل الإخوان مثل باقي الأحزاب بل كان اغتيال شهيدها ومؤسسها أحد أسباب قيام الثورة.

٥- ثم حدثت أكبر مأساة في تاريخ مصر الحديث في جيلنا، الصدام بين الإخوان والثورة في ١٩٥٤ صراعا على السلطة، ودفاعا عن الديمقراطية مع باقي الأحزاب الوطنية، ورفضا لمعاهدة الجلاء التي أبرمت في ١٩٥٤ والتي كانت تعطي لقوات الاحتلال البريطاني الحق في العودة إلى منطقة القناة في حالة الحرب. وعاشت الحركة الإسلامية منذ ذلك الوقت بين جدران السجون تلاقي شتى صنوف التعذيب،

وكان من بين ضحاياها (عبد القادر عودة) في ١٩٥٤ فقيـه (التشريع الجنائي) وسيد قطب في ١٩٦٥ أكبر مفكر إسلامي مؤثر حديث. أثرت ظلمة السجون وأهوال التعذيب في فكره فانتقل من (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، (معركة الإسلام والرأسمالية)، (السلام العالمي والإسلام) إلـى (معـالم فـي الطريق). وبعد أن كان نقطة التقاء للحركة الوطنية العلمانية والدينية، الاشتراكية والإسلامية اتسم فكره الأخيـر بطـابع العداء لكل شيء، يعبر عن آلام البـريء. لـم تعـد هنـاك مصالحة ممكنة بين الإسلام والجاهلية، بين حكم الله وحكـم البشر، فبقاء أحدهما مرهون بفناء الآخر عن طريـق جيـل قرآني فريد، طليعة مؤمنة، تقلب الباطل حقا، عـن طريـق السلطة تحريرا لوجدان البشر من رقبة الطـاغوت وتحقيقـا لشعار (لا إله إلا الله) كمنهج حياة. وهو الفكر الذي ورثتـه الجماعات الإسلامية.

٦- وبعد الردة في أوائل السبعينات، خرجت الحركـة الإسلامية من السجون شاكرة لها متحالفة معها أمـام عـدو مشترك متمثل في (الناصرية). فعادت من كنـف السـلطة، وكل منها يظن أنه يستعمل الآخر لحسابه الخاص. تستعملها

السلطة ضد خصومها السياسيين، الناصريين والتقدميين بوجه عام خاصة داخل الجامعات، وتستعمل هي السـلطة للأخـذ بالثأر القديم من الناصرية، ولكسب أرضية جديـدة فقـدتها طوال عشرين عاما. وظل كل فريق يزايد على الآخر فـي شعارات الإسلام، بتطبيق الشريعة الإسلامية، ورفع شعارات مثل العلم والإيمان، ومن لا إيمان له لا أمان لـه، وتكـوين لجان تقنين الشريعة، وإصدار قانون الأحوال الشخصية حتى تسرق السلطة الأضواء في الحركة الإسلامية، وحتى تكسب الحركة الإسلامية الشعبية المفقودة وتهز أركان السلطة. ثـم حدث الصدام بين حلفاء الأمس عنـدما خرجـت الجماعـة الإسلامية عن الطريق المرسوم، وظهر على السـطح بعـد اتفاقية الصلح مع إسرائيل في إبريل ١٩٧٩، بدأت الحركـة الإسلامية في التباعد عن النظام القائم ورفـض السياسـيات المتبعة مثل اتفاقية، كامب دافيـد، والانفتـاح الاقتصـادي، والقوانين المقيدة للحريات، والتحالف مع أمريكا والانحيـاز للغرب. فاقتربت من الحركة الوطنية، وبدأت مظاهر الوحدة الوطنية وجبهات الائتلاف، وظهر المشايخ الوطنيـون مثـل المحلاوي وعيد، والتحمت المعارضة الدينيـة بالمعارضـة

السياسية كما حدث في الثورة الإيرانية قبل سـقوط الشـاه. فنصبت السلطة شراك الطائفية للحركة الإسلامية فوقعت فيه وجرت معها المعارضة السياسـية فـي قـرارات سـبتمبر الأخيرة.

إنما الحوار الذي ندعو إليه اليوم هو تجاوز لما حـدث في الماضي من فعل ورد فعل، وبداية صفحة جديدة للحرية الوطنية المصرية بجناحيها العلماني والديني، ليس من منطلق العقل والسماح بناء على سماحة الإسلام ورفضه للعنف مـن أجل شراء الذمم، والدخول في مساومات، وتقديم التنازلات، والتلويح بالمناصب والقيادات، كما حدث في أوائل السبعينات بل لوضع كل فريق أمام التحديثات المصيرية لجيلنا والتـي تتمثل في الآتي:

١- شرعية السلطة، ومصدر الحكم، فمن منا يـرفض الحاكمية لله سواء بنص القرآن أو بمقتضيات الإيمان؟ مـن منا يرضى بحاكمية البشر كما عاشرها جيلنا سواء في نظمنا قبل ١٩٥٢ أو بعدها؟ من منا يرضى بحكم الملوك الـوراثي أو بحكم الطبقات أو بحكم العشائر والقبائل أو بحكم العسـكر والجند؟ من منا يرضى بحكم القهر والتسلط والطغيان؟ مـن

منا يرضى بحكم المذلة والهوان والاستسلام للعدو والتحالف مع الاستعمار؟ من منا يرضى بالأنظمة الحاكمة التي تثير فينا جميعا الغضب والنفور والاشمئزاز؟ إن فشل الأيديولوجيات العلمانية لتحديث مجتمعاتنا وتحريرها من ليبرالية وقومية واشتراكية تجعل الشباب بالضرورة رافضا لحاكمية البشر، مطالبين بحاكمية أعلى ولا يجدونها إلا في حاكمية الله. ولو كان هناك نظام بشري واحد قادر على تحرير الأرض، وتوزيع الثروة، والدفاع عن حريات الشعوب، وتجنيد الجماهير وتوحيد شعوب المنطقة لما ألهب شعار حاكمية الله وجدان الشباب وإيمان البسطاء.

٢- ولكن ماذا تعني الحاكمية لله؟ وماذا يعني حكم الشريعة؟ كيف يمكن إعطاء المبدأ العام الشامل مضمونا تاريخيا في الزمان والمكان؟ هل نعني حكم الأئمة؟ هل يعني تطبيق قانون العقوبات والبداية بالحدود والكفارات؟ وهل يمكن مطالبة الناس بواجباتهم قبل إعطائهم حقوقهم؟ إن ما نخشاه هو أن تقع الحركة الإسلامية في عدة منزلقات منها القضاء على حاكمية البشر من أجل إحلال حاكمية الله بدلا عنها دون تطوير حاكمية البشر وجعلها أقرب إلى حاكمية

الله، حكم الحرية والقانون والمساواة وليس حكـم الأهـواء والمصالح والأفراد والعشائر. إن الله لا يحكم بذاتـه ولكنـه يحكم من خلال الشريعة، والشريعة تقوم على رعاية مصالح الناس. والإمامة تنفيذية خالصـة تـأتي بالبيعـة، وتحكـم بالشورى. ومن ثم كانت الحاكمية دفاعا عن مصالح النـاس فيما تعم به البلوى. وكانت السلطة اختيارا من الأمة. إن مـا نخشاه أيضا على الحركة الإسلامية أن تنزلـق فـي مطـب الصولان والجولان في قانون الأحـوال الشخصـية وكـأن الشريعة الإسلامية لا تطبق إلا في حجرات النوم وليس فـي المجتمع العريض، وكأن مشكلتنا فقط هو الطـلاق وتعـدد الزوجات والحصانة وملكية الشقة والنفقة! وكأن قضيتنا هي الزي الإسلامي، ومظاهر الخلاعة، وملاهي الهـرم، وبيـع الخمور. وتكون مهمة الحركة الإسلامية الدفاع عـن رجـم الزاني، وقطع يد السارق، وصلب قاطع الطريق، وتطبيـق الجراية دون أن تبين للناس أن الشـريعة الإسـلامية تعنـي أساسا إعطاء حقوق الناس، ونظاما اجتماعيـا يقـوم علـى المساواة، ونظاما سياسيا يقوم علـى الحريـة، وأن سـارق الملايين وناهب ثروات الشعوب هو أولى بتطبيق الحد مـن

سارق الرغيف وكوز الذرة، وأن مظاهر الفساد الأخلاقي أقل بكثير من مظاهر الفساد الاجتماعي والسياسـي، وأن قطـع الأفراد الطريق أقل خطورة من نهـب الشـركات المتعـددة الجنسيات ثروات الشعوب، وأن القصد من تطبيق الشـريعة الإسلامية ليس إخافة البسطاء أو الحد مـن حركـة التغيـر الاجتماعي أو الدفاع عن النظام القائم أو إيهام الناس بالإيمان نفاقا وتسترا على الأوضاع المخالفة للمشروع.

٣- إنما الحاكمية لله، وتطبيق الشريعة الإسلامية يعنيان بالنسبة لنا مواجهة التحديات المصيرية لعصرنا وهي أربعة: الأولى، تحرير الأرض، ففلسطين ولبنان وسـوريا محتلـة، وبسيناء قوات دولية، وبمناطق كثيرة مـن عالمنـا العربـي والإسلامي قواعد عسـكرية أجنبيـة. تحريـر الأرض إذن واجب أساسي على الأمة، وفرض شرعي على أي حـاكم، فالله له السماوات والأرض وليس إلـه السـماوات وحـدها، والرب رب السماوات و الأرض ، ولـيس رب السـماوات وحدها، (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغيـر حـق..) (٢٢: ٣٩)، (ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنـا) (٢:

٢٤٦)، (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) (٢: ٢١٦)، (يأيها النبي حرض المؤمنين علـى القتـال) (٨: ٦٥) وعشـرات الآيات التي تجعل قتال الأعداء واجبا شرعيا، والجهاد فـي سبيل الله فرضا دينيا، ولا عجب أن تخرج من بيننا (جماعة الجهاد) لمحاربة أعداء الأمة، وقد يكون أعداؤنا في الـداخل أكثر ضراوة علينا من أعدائنا في الخارج، فكلاهما اعتـداء علينا واحتلال، احتلال حريتنا واحتلال لأرضنا.

٤- والثانية توزيع الثورة. فنحن أمة يضرب بها المثل في الغنى والفقر، في البطر والبؤس، فـي البطنـة وسـوء التغذية، في الترف والحرمان، يستهلك فيها أقـل مـن ٥%، وأغلبية محرومة من كل شيء. فيها الأثراء السـريع عـن طريق الاستيراد والتصدير، والعمولات والرشاوى، وتمثيـل الشركات الأجنبية، والإتجار بأقوات الشعوب أمام جمـاهير مطحونة بالغلاء وقلة الموارد والحيلة. وهذا وضـع غيـر شرعي معارض لحاكمية الله التي جعلت العمل وحده مصدر القيمة بدليل الربا، وجعلت الملكية لله وحـده، وأن الإنسـان مستخلف فيما أودعه الله بين يديه له حق الانتفاع والتصرف والاستثمار ولكن لـيس لـه حـق الاسـتغلال والاحتكـار

والإضرار بالغير وإلا تدخلت الدولة. فالإمام له حق المصادرة والتأميم لصالح الجماعة حماية لها من استغلال الأفراد. موارد الدولة ملك للأمة من زراعة (الماء والكلأ) وصناعة (النار) ومعادن (الملح). والركاز ملك للأمة في عرف الفقهاء، عرف القدماء منه الذهب والفضة والحديد والنحاس، وعرفنا نحن النفط، لا يجوز اكتناز الأموال في أيدي القلة (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) (٥٩: ٧)، ولا يجوز أن تظهر فوارق بين الطبقات، فالمال يدور في المجتمع، وليس كصدقة بل كحق (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) (٧٠: ٧٤). وفي المال حق غير الزكاة.

٥- والثالثة حريات الناس، وحقهم في الاجتهاد، والجهر بالرأي، وقول الحق في وجه الحاكم الظالم، والشهادة على العصر، إذ لا تعني الشهادة تمتمة الشفتين بل رؤية الواقع، والشهادة عليه، وربما الاستشهاد في سبيله، ومراجعة السلطان، وتبصيره بالحق، والنصح له، والقيام بوظيفة الحسبة أي الرقابة على أجهزة الدولة وتحويل الأرصدة، وسرقة المال العام، وحرق المخازن. وهذا يعني إعطاء

(لماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا)، مضمونها العصري برفض جميع القوانين المقيدة للحريات مثل قوانين الاشتباه والعيب والطوارئ.

٦- رابعا، تجنيد الجماهير، وتحويلها من كم إلى كيف، وتكوين حزب الله الذي يدافع عن الحاكمية بهذا المضـمون العصري كما تتطلبه مصالح الأمة وكما يعيشه جيلنا حتى لا نوكل أمورنا لغيرنا، ولا نلقي بتبعاتنـا علـى الحـاكم، ولا نستجدي العون من الأعداء، ونستغيث بالأصدقاء، وتحويـل هذا التشرذم والتفكك والتشتت في الأمة إلى وحـدة واحـدة تحمي استقلال المنطقة وتحافظ على هويتها وحيادهـا بـين المعسكرين المتناطحين علينا. (أرباب متفرقون خيـر أم الله الواحد القهار) (١٢: ٣٩)، (إن هذه أمتكم أمة واحـدة وأنـا ربكم فاتقون) (٢٣: ٥٢).

هذه هي قضايا العصر، وهذا هو التحدي الحقيقي، فهل نحن مختلفون؟

الشعارات الدينية والتفسير بالمضمون*

إن لأشد ما يحزن الإنسان أن يرى الأخـوة الأعـداء يتصارعون. وأن تتساقط الرقاب من أجل سوء الفهـم، وأن تتبدد الجهود بسبب صورية التفسير، وأن تتبعثر قوى الأمـة بلا داع. فإن كثيرا ما يحدث في لقاءاتنا الجماهيريـة هـذه الأيام، وحياتنا السياسية قـد دب فيهـا النشـاط، أن ينقسـم الجمهور ثلاثة أقسام: الأول يهتف ويصيح (الله أكبـر، ولله الحمد)، (الله أكبر والعزة لله)، (القرآن دسـتورنا) ويصـيح القسم الآخر ويهتف (الله أكبر، والعزة لمصر)، (اشـتراكية، اشتراكية)، (تحيا مصر)، (ناصر، ناصر). إما القسم الثالث،

---

* كتب هذا المقال الصغير إبان فترة المشاركة في صفحة الرأي في جريدة (الجمهورية) عام ١٩٧٦ ولم ينشر من قبل بعد استمرار حذف رئـيس التحرير كثير من الفقرات، وتوقفي عن المشاركة نهائيا في آخر العام، وهذه صياغة جديدة طبق الأصل تقريبا كتبت في ديسمبر ١٩٨٨.

وهو الأغلب، فإنه يكون محاصرا بين القسمين الأولين، يترقب وينتظر، وجدانه مع الأول، وواقعه مع الثاني. ينتظر لأيهما الغلبة.

والسؤال هو الآتي: هناك تعارض بين الشعارات الدينية الأولى وبين المضامين السياسية الثانية؟

والحقيقة أن التعارض الناشئ إنما ناتج عن خطأ شائع من الفريق الأول وهو التفسير الصوري الفارغ من أي مضمون، فالله أكبر والعزة لله لا تعني إلا الله أكبر والعزة لمصر. وهل يكره الله أن تتحرر سيناء؟ وهل ترفض عظمة الله أن تحيا مصر؟ إن الشعار الديني لا يمكن أن يكون فارغا بلا مضمون، ولا يمكن أن يكون له إلا مضمون من واقع من يرفع هذا الشعار. فالمصري الذي يرفع شعار (الله أكبر) وهو محتل ومتخلف لا يمكن أن يعني شعاره إلا تحرير الأرض المحتلة، والقضاء على التخلف بكل صوره. فإذا صرخ أحد (الله أكبر) وإذا هتف أحد (العزة لمصر) فالأول يقول بالصورة الفارغة بلا مضمون، والثاني يقول بالمضمون الواقعي بلا صورة.

والحقيقة أنه لا توجد حقيقة بلا صورة ومضمون. ولكن نظرا لأننا نعيش في عصر تغلب عليه المراسم والأشكال فإن إظهار المضمون يكون أوقع وأكثر التزامـا بـالواقع. وإذا عرفنا أن الإسلام دين جوهر وليس دين شكل أي أنه يعتنـي بالمضمون أكثر من اعتنائه بالصورة كـان هتـاف (العـزة لمصر) أقرب إلى روح الإسلام أي إلى الواقع والمضـمون. ولا تعني مصر هنا أية نعرة قومية يرفضها الإسلام ولكنهـا تعني الدفاع عن الأرض، والقضاء علـى التخلـف، وهمـا مطلبان إسلاميان.

وكذلك إذا صرخ أحد (القرآن دسـتورنا) أو (قرآنيـة، قرآنية)، وإذا هتف آخر بشعار (اشتراكية، اشتراكية)، ويكاد يحدث التشابك بالأيادي بين هؤلاء وهؤلاء، كل فريق ينظـر إلى الآخر وكأنه عدو له، ينظر الأول إلى الثاني علـى أنـه كافر بالدين، وينظر الثاني إلى الأول على أنه خائن لمصر. فالحقيقة أن شعار الفريق الأول شعار صوري لا مضمون له كمن يقول أحد اثنان واثنان يساوي أربعة أي مجرد تحصيل حاصل. فمن منا لا يرضى بالقرآن دستورا لنا؟ ولكن المهم كيف نملأ هذا الشعور بمضمونه. ما هو البرنامج السياسـي

والاقتصادي الذي يكفله هذا الدستور؟ ولصالح من يتم الحكم؟ ولصالح من يتم تخطيط الاقتصاد القومي؟ ولصالح من يـتم التعليم والثقافة؟ إن واقعا مثل الواقع المصري بدخله المحدود وعدد سكانه المتزايد لا يمكن أن يتحمل إلا نظاما اشتراكيا، وهذا معنى ما يرد باستمرار من حتمية الحـل الاشـتراكي. ومن ثم كانت الاشتراكية هي المضـمون الوحيـد لشـعار (قرآنية، قرآنية) أي القرآن بتفسير اشـتراكي، لمـا كانـت الاشتراكية مطلبا للعصر.

إن الحوار الجاد بـين هـذين الفـريقين، الأول يرفـع الشعارات الدينية، والثاني يبرز المضامين السياسية هو نقطة البداية للعمل السياسي الجذري، ولما كـان ماضـي مصـر مرهونا بهذا الحوار، وكانت القوتان الرئيسيتان قبل الثـورة وبعدها بسنتين هما الإخوان المسلمون والشـيوعيون، وكنـا نسمع عن التقاتل بين الأخوة الأعداء فإن مستقبل مصر أيضا ما زال مرهونا بهذا الحوار حتى يمكن إعطـاء الشـعارات الدينية مضامينها السياسية من واقع الناس، فالناس مؤمنون، تحركهم الشعارات الدينية، ومحتلون متخلفون، حيـاتهم فـي الاستقلال الوطني وفي التنمية لصالح الطبقات الكادحـة، أن

مستقبل العمل السياسي مرهون بتفسير الدين تفسيرا تقدميا. فالدين هو الذي يعطي القوالب النظرية أي الصورة، والتقدم هو المضمون الذي يفرضه الواقع، ويعبر عن متطلباته. في الوقت الذي يحدث ذلك لا تصبح الجماهير في لقاءاتنا السياسية محاصرة بين الصراخ بالشعارات الدينية وبين الهتاف بالمضامين الاجتماعية، تتفرج على العراك بين الأخوة الأعداء، بل تجد فكرا سياسيا ينطلق من دينها وتراثها، ويلبي مطالب واقعها وحاجات عصرها. هذه الأغلبية التي كانت قبل الثورة متمثلة في الوفد، وكان قادتها الطليعة الوفدية أصبحت جماهير ثورة ٢٣ يوليو بعد الثورة بقيادة الضباط الأحرار، وهي التي نطلق عليها سياسيا الآن اسم القوى الناصرية أو القوى التقدمية والوطنية. وهي التي ستجد في النهاية فكرها السياسي ودورها التاريخي إذا ما التقى الأخوة الأعداء، وفسرنا شعاراتنا الدينية بمضامينها الاجتماعية.

اليسار الإسلامي ومستقبل مصر *

أولا – مقدمة، مصر، ماضيها وحاضرها ومستقبلها:

إن مستقبل مصر اليوم هو هم الجميع خاصـة بعـد أن مرت في تاريخها الحديث بفترتين كانت فيها محور اهتمـام العالم عندما خرجت من موقعها الجغرافي وسـط القـارات الثلاث وفي قلب العالم القديم ومن منبع حضاراته الأولى في فجر نهضتها الحديثة في عصر محمد علي أول مرة ثم إبان نهضتها الحديثة الثانية بعد ثورة ٢٣ يوليو في عهد ناصـر. وقد كانت النتيجة واحدة، تكالب الاستعمار الأوربـي علـى مركز توحيد المنطقة وبؤرتها وإخضـاعها وردهـا داخـل حدودها حتى يمكن القضاء على عناصر قوتها في التجـانس والانتشار وتوحيد المنطقة والحفاظ على استقلالها السياسـي والاقتصادي في مواجهة القوى الكبـرى. فمصـر ليسـت

---

* الاهرام – مركز الدراسات الاستراتيجية، ٣١ مايو – ١ يونيو ١٩٨١.

سويسرا، بلدا محايدا، ودولة مواجهة، تزهو بمستوى معيشتها بل مصر هي الأربعون مليونا في الحاضر والثمانين مليونـا في نهاية القرن، هذه القوة البشرية التي لا حدود لها، بما في عناصرها من مثابرة وقدرات على الخلق والإبداع، وإحساس بالرسالة وبعمق التاريخ، كنانة الله فـي الأرض، أم الـدنيا، مصر المحروسة، مصر المحمية، جندها خير أجناد الأرض، وشعبها في رباط إلى يوم القيامة.

فإذا كان هذا هو تاريخ مصر الحديث فـي نهضـتيها الأولى والثانية، وإذا كان هذا هو وضع مصر وقدرها كـان حاضر مصر موضع تساؤل، وكان (احتجاب مصر) موضع دهشة واستغراب[1] ولا يهم كيف تم ذلك الانتزاع، وخـروج القلب من الأطراف، أو انتزاع الأطراف من القلب، خـروج الدوائر من المحور أو خروج المحور عن الدوائر، إنما المهم هو الواقعة ذاتها وآثار ذلك الاحتجاب على الحياة القومية من ضياع للولاء، وغياب الانتماء، وهجرة العقول إلى الخارج، وإجهاض العقول في الداخل، وإحلال قيم جديدة محل القـيم

---

[1] د. أنور عبد الملك: احتجاب مصـر، المسـتقبل العربـي، العـدد ١٨ أغسطس ١٩٨٠.

القديمة، والعكوف على هموم الحياة اليومية، وقصر الباع، والترهل، والانتظار، والمال، وتغييب الوعي.

وإذا كان هذا هو حاضر مصر يكون السؤال الأهم: وماذا عن مستقبلها؟ هل الحاضر حالة مخاض جديد أم هو حالة دائمة مازلنا في بدايتها؟ وماذا عن البدائل أمام مصر إن هي استطاعت تجاوز الحالة الراهنة وعادت إلى الظهور تملأ قلب محاورها، وتلم أطرافها؟ وهل سيكون مستقبلها استمرارا لماضيها المستمر أم لحاضرها المنقطع؟ وإذا كان الإسلام هو مكونها الرئيسي وعنصرها التاريخي بعد أن ورث حضارتها ودياناتها القديمة، وكانت الثورة من معطيات عصرها وإنجازات جيلها فهل يكون الإسلام الثوري هو الذي يوحد ماضيها وحاضرها ويعبر عن مستقبلها؟

ثانيا – تاريخ مصر:

الدين في تاريخ مصر هو حضارتها وتراثها وفنها وعلمها وعمارتها وغناؤها وطقوسها ورقصها، وكانت مظاهر الطبيعة آلهة، وكل ما يمد مصر بالخير والنعيم إله: الشمس، والنيل والحيوان. وانتسبت مصر إلى مذهب (وحدة الطبيعة) (المونوفيزيقية) في العصر المسيحي إعلانا عن

وحدة الإله. ولما تم فتح مصر دخلت في الإسلام بالتوحيـد القديم، وكانت وحدتها وتجانسها صورة فعلية لهذا التوحيـد النظري. ثم أصبحت مصر محور الدعوة الإسـلامية منـذ الخلافة الفاطمية، وتأسس الأزهر لنشـر الـدعوة الشـيعية فتحول إلى أكبر جامعة إسلامية لا تعـرف الفـروق بـين المذاهب ولا تدعو إلا للإسلام الواحد، ثـم قامـت مصـر بدورها في الحفاظ على الأمة الإسلامية ضد غارات التتـار والمغول من الشرق والغـزوات الصـليبية مـن الغـرب، وخرجت أسماء صلاح الدين، والظـاهر بيبـرس وغيـرهم معلنة عن توحيد الأمة الإسلامية ابتداء من محورها وبؤرتها في مصر ضد الأخطار الخارجية والهجمات الأجنبية، وفـي العصر المملوكي والتركي أصبحت مصـر حافظـة العلـم، ومدرسة للعلماء، كتبت فيها الموسوعات الكبـرى. أصـبح فقهاؤها وصوفيتها مزارات للناس، ومناطق جذب لكل طلاب العلم والمعرفة. وظلت إلى عهد قريـب مرتبطـة بالخلافـة الإسلامية حتى وهي تطالـب بالاسـتقلال الـوطني عـن الاستعمار الأوربي، ومنها خرجت أكبـر دعـوة إسـلامية

جديدة، دعوة (الإخوان المسلمين) والتي مازالت مؤثرة وفعالة في الحياة الوطنية المصرية.

وفي تاريخ مصر الحديث ارتبطت تياراتها الرئيسية الثلاثة بالإسلام على درجات متفاوتة. فالإصلاح الديني عند الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وقاسم أمين وعلى عبد الرازق وسعد زغلول ومصطفي عبد الرازق خرج من الإسلام تمدينا له وتطويرا ورعاية لمصالح الأمة، ومنه خرجت الأحزاب الوطنية، وهو الذي وضع شعار (مصر للمصريين) ومنه خرجت الثورة العرابية، كما خرج التيار العلماني أيضا على الرغم مما يبدو عليه من سيادة للفكر العلماني الغربي، خرج أيضا من واقع الأمة الإسلامية يؤصل العلوم الاجتماعية والسياسية والمدنية في القرآن كما فعل شلبي شميل أو يؤصل الفكر العلمي المادي في تراثنا القديم كما فعل فرح أنطوان ثم إسماعيل مظهر. أما التيار الليبرالي الذي أسسه الطهطاوي ولطفي السيد وطه حسين فقد كان الإسلام إطاره النظري ومرجعه الذهني سواء في (مناهج الألباب) أو في (الشعر الجاهلي) أو في (العبقريات). كان الإسلام إذن هو العنصر المشترك بين التيارات الرئيسية

في مصر الحديثة، وكان هو رافدها التاريخي الباطني الـذي يمدها بمادتها وحركتها ودعاتها سواء قبلته أم ثارت عليه أم نقدته وجددته وطورته.

وقد توالى على مصر في تاريخهـا الحـديث نظامـان سياسيان: الليبرالية قبل ثورة ٢٣ يوليو، والاشتراكية العربية بعدها بصرف النظر عن تطور النظامين بـل ومـدى دقـة هاتين التسميتين.

١ - الليبرالية:

فقد تطورت الليبرالية الأولى من سيطرة الدولة على كل شيء أيام محمد علي إلى القصر إلى الاستعمار إلى الأحزاب الوطنية كما تطورت الاشتراكية العربية من المبادئ السـتة إلى الاشتراكية الديمقراطية التعاونية إلى الاشتراكية العربية. ومع ذلك فالفيصل هو ثورة مصر الأخيرة بين ما قبلها ومـا بعدها.

كانت الليبرالية أساس بناء الدولة الحديثة فـي مصـر. وكانت ابنة الثورة الفرنسية بمبادئها الثلاثة: الحرية والإخاء والمساواة. تترجم (الشرطة) وتؤسـس الدسـتور، وتقـول بالفصل بين السلطات، وتؤسس المجالس النيابية، وتجعل هم

الدولة في البناء والتعمير. تعطي الحرية للمواطنين، ويكفلها الدستور، وتجعل حب الوطن من الإيمان، وتدافع عن الاستقلال الوطني، وترفض الطغيان في الداخل والاستعمار في الخارج، ومنها خرج الحزب الوطني، وما زال الطهطاوي ولطفي السيد وطه حسين والعقاد علامات رائدة على طريقها.

ومع ذلك فقد انتهت الليبرالية في تاريخ مصر الحديث بضياع استقلال مصر، والاحتلال العسكري، وضياع النظام الليبرالي نفسه وتحولها إلى نظام ملكي متعاون مع الاستعمار وأحد أسبابه، فلما بدأت الأحزاب الوطنية في التكوين تصارعت على الحكم، ودب الفساد في الحياة النيابية على ما هو معروف قبل الثورة المصرية الأخيرة. كانت البلاد في يد أقلية أجنبية أولية ثم وطنية ثانيا، حصلت على الثروة، وامتلكت الأرض، واحتكرت التجارة الخارجية والداخلية وكانت موالية للغرب فكرا بالرغم من وطنيتها عملا وسلوكا باستثناء الأقلية. نالت حظها من التعليم في الخارج، وتأسست الجماعات لا يدخلها إلا أبناء القادرين. فكانت الأمية وكان الجهل، في حين اقتصر العلم على أبناء الطبقة العليا. وبدأ

اضطهاد المعارضة السياسية إسلامية أو ماركسية أو وطنية. وكان يبدو أن النظام الليبرالـي لا يـنجح إلا فـي مجتمـع ليبرالي، مر بالليبرالية كفترة تاريخية مثل القرن السابع عشر في الغرب بعد أن مر بعصر النهضة في السـادس عشـر، والإصلاح الديني في الخامس عشر والإحيـاء فـي الرابـع عشر، بعد سيادة عدة قرون في العصر الوسـيط المتـأخر للمحافظة والتقليد. فشل النظام الليبرالي في تـاريخ مصـر الحديث بالرغم من بعض إنجازاته فـي الوطنيـة والحريـة والحداثة لأنه كان نظاما ليبراليا سياسيا في مجتمع محـافظ تقليدي. فسادت ثقافة العصر وفرضت الفترة التاريخية التـي تمر بها الأمة نفسها على الليبرالية كنظام سياسي مزروع في غير بيئته.

ومع ذلك ظل الإسلام قابعا داخل النظام الليبرالي فكـرا وممارسة. فقد نصب مشايخ الأزهر محمد على واليا علـى مصر وكأن الشرعية لا تأتي من السلطة السياسية أو السلطة العسكرية وحدها بل من السلطة الدينية التي كانت تمثل فـي ذلك الوقت إرادة الشعب. كما بدأت الثورة العرابية عندما بدأ فيها النظام الليبرالي متحـولا إلـى ملكيـة متعاونـة مـع

الاستعمار، بدأت منظور ديني تحـرري وبمسـاندة مشـايخ الأزهر وعلمائهم باستثناء فقهاء السـلطان[٢]. بـل إن كـل الأحزاب الوطنية في مصر ظلت على ولائها للإسلام فكـرا أو نظاما، وظلت مرتبطة بطريقة أو بأخرى بنظام الخلافـة سواء الحزب الوطني أو حزب مصر الفتـاة. والطهطـاوي نفسه عالم من علماء الأزهر، ومعايير حكمه وإطار فكره في (مناهج الألباب) الأشعرية التقليدية. يكتب (تلخيص الإبريز) وفي نفس الوقت يكتب عن (محمد صلى الله عليـه وسـلم) وعن ساكن الحجاز، يثبت ضرورة تعلم البنـات بآيـات الله وسنة رسوله. فقد كانت الليبرالية إحدى صـياغات التـراث الديني التاريخي، لا تتصادم معه حتى وإن أتت إليه، نظـرا لظروف العصر، وافدة من الخارج. وكان الأفغاني وتلاميذه يروجون لنفس القيم الليبرالية من حرية وديمقراطية وتحديث للمجتمعات والأخذ بأساليب القوة والصناعة والعلم الحـديث باسم الإسلام ومن خلال الإصلاح الديني، وكان الإسلام هو الوعاء النظري أو الإطار التصوري أو المرجع الـذهني أو

---

[٢] أنظر مقالنا: الدين والثورة العرابية، الموقف العربـي، مـايو ١٩٨١، وأيضا الجزء الثالث: الدين والنضال الوطني.

القوالب المستمدة من ثقافة الجماهير التي من خلالها يمكن أن يعبر عن روح العصر واحتياجات الأمة، وكان محمد عبـده هو المحرر الأول في (الوقائع المصرية) وكـأن المصـلح الديني هو الليبرالي الأول. ولم يغب الإسـلام عـن كبـار مفكري الليبرالية في مصر. فقد دخل لطفي السيد في معارك الإسلام والتحديث إثر هجوم كرومر المشهور على الإسلام. كما كان طه حسين من خلال حزب لوفد وباسم المنهج والعلم هو الذي بدأ نقد التراث الأدبي القديم وكما هو معروف فـي (الشعر الجاهلي) وطالب بإعادة النظر في التراث الإسـلامي بمناهج العلم، وكان العقاد بعبقرياته وكتاباته عـن الإسـلام دفاعا عنه ضد هجمـات المستشـرقين وتعريفـا بأصـالته وحضارته يجد في الإسلام تعبيرا عـن ليبراليـة العصـر ووطنيته وزعاماته. وكان محمد حسين هيكـل فـي (حيـاة محمد) يعيد اكتشاف النضال الوطني من خلال تراث الأمـة وجهادها في الماضي كما أن علي عبد الرازق في (الإسـلام وأصول الحكم) ومن خلال الأحرار الدستوريين دعـا إلـى التحديث العلماني باسم الإسلام كما فعل خالد محمد خالد من بعد. كل ذلك يدل على أن الليبرالية في مصر كنظام سياسي

وكتيار فكري لم تجد معبرا عنها إلا من خلال الإسلام تراث الأمة ورافدها الحضاري، ومخزونها القومي.

٢- الاشتراكية العربية:

وانتهت الليبرالية بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. ونشأ نظام آخر وطني في مصر على اتصال بكافة القوى الوطنية أولا ثم في تصادم معها ثانيا حتى استقر بعد تأميم قناة السويس في يوليو ١٩٥٦ كنظام وطني، وبعد الوحدة مع سوريا متمثلا القومية العربية، وبعد قرارات يوليو الاشتراكية في ١٩٦١ معلنا عن حتمية الحل الاشتراكي. وبالرغم من الإنجازات الهائلة التي حققها النظام الجديد في الداخل والخارج، الإصلاح الزراعي، تأميم قناة السويس، جلاء قوات الاحتلال الإنجليزي، تمصير الشركات الأجنبية، قرارات يوليو الاشتراكية، حقوق العمال، مجانية التعليم، التصنيع، القطاع العام، تأميم التجارة الخارجية، القومية العربية، الحركة الأسيوية الأفريقية، حركة عدم الانحياز، تأييد حركات التحرر الوطني ضد الاستعمار، المعاداة للصهيونية وتأييد المقاومة الفلسطينية، وبالرغم من كل هذه الإنجازات التي جعلت مصر تقوم برسالتها التاريخية في

المنطقة وفي العالم إلا أنها سرعان ما تقلصت بعـد اختفـاء الزعامة. وظهرت حدود الثورة المصرية. لم تكـن هنـاك تنظيمات شعبية لحمايتها والمحافظة عليها. فالثورة لا تكفـي أن تكون في الزعامة أو في الفرد الواحد بل هي روح عامة للعصر، والجماهير هي المعبرة عن روح العصر. فالزعامة الثورية دون جماهير ثورية حتـى علـى فـرض وجـود أيديولوجية ثورية فورة سرعان ما تنطفئ بانطفـاء الجسـد وتوقف حركته، كما أن ظهور طبقة جديدة خلال عمر الثورة حلت محل الطبقة القديمة وتمتعت بمظاهر ترفهـا وثروتهـا وسلطتها حتى أصبحت حاجزا بين القيادة الثورية والجماهير الشعبية صاحبة المصلحة في الثورة، طبقة من البيروقراطيين والتكنوقراطيين والعسكريين والسياسيين هي التي أدت إلـى هزيمة النظام الثوري في يونيو ١٩٦٧. ولم تفلح محـاولات تقليصها وتحجيمها في بيـان ٣٠ مـارس ١٩٦٨. كمـا أن الأيديولوجية الثورية غلبت عليها الشعارات دون أن يكـون لها مضمون فعلي والجماهير ترى وتسمع وتقـارن ومثلهـا الشعبي يرن في الآذان (أسمع كلامك يعجبني أشوف أمورك أستعجب). مثلا (العمل شرف، العمل واجب، العمل حيـاة)

ولم يكن العمل وحده مصدر القيمة فـي واقـع الأمـر. أو (حتمية الحل الاشتراكي) وما زال التردد في تـأميم قطـاع المقاولات وتجارة الجملة، وإعطاء الأرض لمـن يفلحهـا، وتعريف الفلاح بالملكية وليس بفلح الأرض أو (ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد) وفي نفس الوقـت غيـاب المعارضة السياسية وسيادة الرأي الواحد. وقد جعـل ذلـك القهر السياسي أسلوبا في الحكم، والاعتقال السياسي طريقـا للحوار، ضد اليمين مرة، وضد اليسار مرة أخرى حتى ساد الفكر التبريري، وضاع الصدق في القول، وغابت المعارضة السياسة، وتم التوحيد نهائيا بـين الخبـز والحريـة، وعـم الخوف، وحدث انفصام في الشخصية الوطنية بـين الـداخل والخارج، وبين الهمس والصراخ(٣)

ولم يغب الإسلام سلبا أم إيجابا عن الثورة المصـرية، وربما كان السلب فيها أكثر من الإيجاب، فقد كان الضـباط الأحرار من خلال قائد تنظـيمهم علـى صـلة بـالإخوان

---

(٣) انظر دراساتنا الثلاثة: رسالة الفكر، اللامبالاة، القـرف، فـي قضـايا معاصرة ج ١ ص ٣ – ١٦ ص ١٧٧ – ٢٠٧، دار الفكـر العربـي، القاهرة ١٩٧٧.

المسلمين وبزعيمهم قبل الثورة وكان ضمن الضباط الأحرار إما أعضاء في الإخوان المسلمين أو متعاطفين معهم، وقـد كان الإخوان دعامة الثورة بعد قيامهـا وتنظيمهـا الشـعبي الوحيد في غياب تنظيم خاص بالثورة. كما كان نجيب ببعض ما يعلنه من عواطف إسلامية يعبر عن توجه إسلامي محتمل للثورة من قمتها وليس فقط من أعضائها، ولكن لسوء الحـظ حدث صدام بين الثورة والإخوان في مارس ١٩٥٤ واستمر حتى الآن، صراعا على السلطة، لم تستطع الثـورة تمثـل الإسلام وأخذه وعاء للإنجازات الثورية، ولم يستطع الإخوان أن يجعلوا من الإسلام الوعاء التاريخي للثورة. صـحيح أن نقد الإخوان لمعاهدة الجلاء في ١٩٥٤ كان يمثـل برنامجـا وطنيا أكثر تقدما مما قبله الضباط الأحرار ولكن تأميم قنـاة السويس جعل الجلاء كاملا وأنهى المعاهدة. ولكن القضـاء على الإخوان منذ ١٩٥٤ ومـا لا قـوه مـن تعـذيب فـي المعتقلات ثم القبض عليهم من جديد في ١٩٦٥ واستشـهاد أقطابهم في المرتين وعلى رأسهم عبد القادر عـودة وسـيد قطب جعل المرارة في النفوس والأخذ بالثأر ورفض كل ما أنجزته الثورة بحلوها ومرها هو البناء النفسي الغالب علـى

أضخم تنظيم إسلامي شعبي عرفته مصر والعالم الإسلامي في تاريخها الحديث. وبعد أن تمت الإنجازات الثورية خارج الإسلام وباسم العلمانية، الوطنية أو الاشتراكية الديمقراطية التعاونية أو الاشتراكية والقومية العربية، تحول الإسلام في نفوس الإخوان وتطور داخل جدران السجون وبعيدا عن المعترك السياسي فتقاص على نفسه بعد أن كان منتشرا فوق الواقع في (العدالة الاجتماعية في الإسلام) وفي (معركة الإسلام والرأسمالية)، وفي (السلام العالمي والإسلام). وبعد هجوم الأنظمة المحافظة على الاشتراكية العربية، فخرج الإسلام دعائيا، يروج للاشتراكية دفاعا عن نظام قائم، ولاهثا ورائه، دون أن يؤصل حاجات الناس ومطالبهم الاجتماعية داخل تراثهم وثقافتهم، ودون أن يأخذ زمام المبادرة ويكون أمام النظام السياسي وليس وراءه، ويكون ناقدا للأوضاع وليس مبررا لها.

وقد أمحت كل هذه الكتابات، وما زال كتابها أحياء. وخرجت طبقة من المفكرين ورجال الدين صناعتها التبرير وإصدار الفتاوى باشتراكية الإسلام. وبعد الهزيمة تحول الإسلام إلى قدرية خالصة إذ لا يغني حذر من قدر، وظهرت

قيم الإيمان بالله، والصبر على بلوائه، وفسرت الهزيمة على أساس إنها ابتعاد عن الله، وبدأت تظهر مظـاهر الشـعائرية الدينية، وانتهى النظام كما بدأ، يعتبر الإسلام شعائريا خارجيا وظيفيا من إقامة محطة لإذاعة القرآن الكريم، وإنشاء مجلس أعلى للشئون الإسلامية، وإقامة مجمع البحوث الإسـلامية، وإنشاء المساجد، وتطوير التعليم في الأزهر، وإلغاء المحاكم الشرعية وإلغاء الوقف، وإصلاح قانون الأحوال الشخصـية، وتنظيم الطرق الصوفية، والتركيز على أهمية التربية الدينية في المدارس، وتقوقع تراث الأمة وتحجر دينها في الوقـت الذي يحاصر فيه النظام الاشتراكي ضـربا مـن الخـارج وتصفية من الداخل.

ثالثا – حاضر مصر:

ومنذ اختفاء القيادة الثورية في أواخر الستينات وأوائـل السبعينات، يتشكل حاضر مصر الآن منذ عشـر سـنوات. وتعود بعض مظاهر الليبرالية السـابقة علـى الثـورة دون البعض الآخر. فينشط القطاع الخاص مـن جديـد وتكـون الأولوية لرجال الأعمال والبنوك. وتجـد بعـض الطبقـات الجديدة التي أثرت على حساب الثـورة أو أبنـاء الطبقـات

القديمة فرصة لإظهار نشاطها المكبوت سلفا. كما تجد الطبقات المتوسطة وفرة في البضائع المستوردة التي كانت محرومة منها والتي كانت لا تحصل عليها إلا من الخارج أو بالتهريب إلى الداخل. وجدت الطبقة المتوسطة ما تستهلكه، وتجد تحت أيديها ما تراه في العواصم الأوربية خاصة وأن الأسعار لا تشكل أي عائق لها. كما قد يسعد البعض ببعض مظاهر الحريات وبعض الأمان خاصة أمام قضاء مستقل بالرغم من بعض القوانين المكبلة للحريات. فالأمان من زوار الفجر أعطى الناس الإحساس بسيادة القانون.

ومع ذلك زادت الأسعار بطريقة فاقت بكثير زيادة الأجور، فازدادت الطبقات الفقيرة فقرا، وانخفض مستوى معيشتها، وتفاقمت الأزمة الغذائية، وزادت كمية البضائع المستوردة على حساب المنتجات الوطنية في كل شيء حتى في أعتق المنتجات وأقربها إلى الحياة المصرية مثل الفول والعدس والعسل. وفي نفس الوقت زاد ثراء الطبقات العليا، وانتشرت معدلات الربح السريع. وأصبح نمط السلوك، كيف نكسب مليون دولار؟ وأصبحت المضاربات والسمسرة والعمولات والرشاوى مصادر للرزق، وانفتحت البلاد على

رأس المال الأجنبي، يأخذ أكثر مما يعطي، ويسحب أكثر مما يودع، ويحول مصر إلى أسواق عالمية، ولا ينشـأ فيهـا إلا صناعات استهلاكية للطبقات القادرة. وبدأت مكتسبات الثورة في الأفول، من رفع للحراسات، وتفتيـت للقطـاع العـام، وقضاء على الصناعات الوطنية، وإحداث اختناقات بها تسهل من عمليات الاستيراد والإشباع للأسواق، ومخـاطر تهـدد مجانية التعليم، وتنزلق مصر شيئا فشيئا عن مسارها الوطني المستقل وتدريجيا فتبدو موالية الغرب، متخلية عن سياسـة عدم الانحياز، ورافعة يدها عن حركة التحرر الوطني فـي آسيا وأفريقيا. وينخفض صوت القومية العربية، ويتم الصلح مع إسرائيل. ويبدأ الولاء في الخفوت، والانتماء في الضياع. لم يعد هناك مشروع قومي يلتف حوله الجميع، ويجند طاقات الأمة، ويحرص على وحدتها القومية، ويحرس أبناءها مـن الهجرة إلى الخارج أو الهجرة إلى الداخل مـن بيـع علمـه وإمكانياته لمن يدفع أكثر أو من العزلة والحسـرة والتقوقـع على الذات والإحباط للصامدين، ويعود الشعور القديم (مصر قطعة من أوربا) وتعود الليبرالية القديمة في بعض سـلبياتها دون وطنيتها وقوميتها وحفاظها على الاستقلال الوطني.

ولقد ظل الإسلام في السبعينات وعاء حضاريا ودعامة سياسية لأي نظام باعتبار أن الإسلام هو ثقافة الجماهير وأيديولوجيتها الشعبية. فعاد نشاط الإخوان المسلمين بالرغم من وجودهم تحت طائلة القانون وقرار الحل كسلاح فوقهم إذا ما خرجوا عن الطريق المرسوم لهم: معاداة الناصرية، والكشف عن أهوال التعذيب، والوقوع في الشعائرية والعقائدية والمظهرية، والمناداة بالإسلام الذي لا مكان له ولا زمان، وعدم الدخول في أية معركة سياسية فعلية، وإذا كان البعد عن الله سببا في هزيمة ١٩٦٧ فإن الإيمان بالله سبب نصر أكتوبر ١٩٧٣. فقد صاح الجنود (الله أكبر)، وعبرت الملائكة، وشارك الرسول في الحرب، وازدادت المظهرية والشعائرية تأييدا من النظام السياسي ما دام الإسلام لا يصبح الإسلام السياسي، واتهمت المعارضة السياسية بالإلحاد والكفر. وبدأت المزايدات في الإسلام المظهري تعمية للواقع السياسي، وغطاء للنظام الذي قد لا يقره الإسلام السياسي. فصدرت قوانين الردة، والحدود، وتشكلت لجان تطبيق الشريعة الإسلامية في مجلس الشعب، ويعنون بها قانون العقوبات إدخالا للخوف في قلوب الناس، وليس إعطاء

لحقوقهم وتلبية لحاجاتهم، ونوقش أمر مصادرة كتاب ابن عربي، وليس المقصود منه الأموات بل الأحياء. وأصبح شعار المجمع (العلم والإيمان) ولما كان العلم مرتبطا بالغرب فقد أصبح يعني استيراد العلم والتكنولوجيا الغربية بالإضافة إلى الإيمان التقليدي الموروث. فلا نحن فهمنا أسس العلم وتصوراته وبنائه، ولا نحن طورنا القديم وجددنا التراث وأعدنا صياغة الإيمان طبقا لحاجات العصر. وزاد معدل بناء المساجد وإنارتها وزخرفتها والاحتفال بالموالد والأعياد الدينية. وظهر عدد من الدعاة كنجوم إعلامية سواء في أجهزة الإعلام الرسمية أو في خطباء المساجد تتلاعب بعواطف الناس الدينية وتتملق غرائزهم الجنسية المكبوتة. كما أصبحت القيم الدينية التقليدية المحافظة هي معيار السلوك مثل التقوى، ومخافة الله، والصبر في مواجهة عواطف التمرد والرفض والثورة. فما عرف به شعب مصر هي الصلابة والأصالة والإيمان. الصلابة في مواجهة التغير الاجتماعي، والأصالة في مواجهة الأفكار والمذاهب الاشتراكية باعتبارها وافدة، والإيمان في مواجهة العقل والفهم والاستنارة، وراجت كتب التصوف، ويوم القيامة،

والبعث والحساب والعقاب، وأصبح الكتاب الديني سلعة رائجة في مواجهة الكتاب الثقافي. وأصبح احترام الأجيال السابقة وكبر السن وتبجيل القدماء هو السلوك الأمثل القويم فيما يسمى بأخلاق القرية، وأخذ الحاكم صورة رب العشيرة والبطريرك العبراني القديم، وتكونت أخيرا جامعة الشعوب العربية والإسلامية وستصدر (العروة الوثقى) بديلا عن جامعة الشعوب العربية، ولإيجاد منطقة تمدد وانتشار لمصر، وأصبح تأييد الإسلام والثورة الإسلامية مقصورا على مواجهة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان دون شعب فلسطين أو جنود لبنان.

رابعا – مستقبل مصر:

ولما كان تاريخ مصر ما زال يفرض ثقله على حاضرها، وكان ذلك الحاضر في حالة تململ مستمر لا يستقر له حال وكأنه خارج عن مجرى التاريخ، ومضاد لطبيعة الأشياء، ويتوق إلى مستقبل أفضل كان السؤال: ما هو مستقبل مصر وإلي أين يصير حاضرها؟ يبدو أن هناك أربعة احتمالات رئيسية مرتبة من الأبعد إلى الأقرب احتمالا وهي:

١ - الإسلام المحافظ.

وهو التيار الغالب الذي على السطح، والذي تمثله (الجماعات الإسلامية) والتي يأخذها الغرب أحيانا على أنها تعادل (البديل الإسلامي) في مصر، وأن مظاهر سلوك أعضائها أساسا يعبر عن الصحوة الإسلامية في مصر، والحقيقة أن ظاهرة الجماعات الإسلامية ظاهرة فعلية تعبر عن اكتشاف الإسلام كبديل وحيد لمصر بعد أن أصبحت محط التجارب للأيديولوجيات العلمانية الغربية في تاريخها الحديث، فميزتها أنها تعبر عن المخزون النفسي لدى الجماهير والتواصل التاريخي، وهوية الأمة وأصالتها، ولا يمكن لأحد اتهامها بالعمالة أو الأفكار المستوردة أو الإلحاد. فهي علامة على الطريق، ومؤشر على اختيار آخر لم يتم تجربته حتى الآن بالرغم من قوته وعناصر نجاحه الكامنة فيه. كما أنها هي الاختيار الوحيد الموجود منذ عشر سنوات بعد انتهاء كل الاختيارات الاجتماعية الأخرى كتنظيمات طلابية أو شعبية ظاهرة لها نشاط شرعي باستثناء أحزاب المعارضة الرسمية، فإذا ما أراد الشباب أن يعبر عن إخلاصه وولائه لقضية رافضا أن ينجرف في خضم الحياة

العلمية والسعي وراء الرزق وعرض نفسه في سوق التجارة فإنه لا يبقي أمامه إلا الجماعات الإسلامية كبديل مطروح كجماعة مؤمنة مخلصة، تدعو إلى الأخلاق وتتمسك بالمثل الأعلى، وترفض المساومة عليه. هذا بالإضافة إلى التعاطف العام الذي تأخذه الجماعات من جماهير الشعب نظرا لأنها جسد الجريمة وموطن التعذيب، ونموذج النضال والاستمرار، وما أسهل التعاطف مع المظلوم ضد الظالم.

ومع ذلك فهذا البديل غير مطروح بالفعل في مستقبل مصر بالرغم من المظاهر المحيطة به والتي تدعو إلى إصدار حكم مضاد. فمازال يمثل نظرة إلهية للعالم تبدو في أعنف ما يكون في عقيدة (الحاكمية لله) كأن حكم البشر يتم أولا وأخيرا باسم الله ولصالحه دفاعا عنه والله غني عن العالمين. ويصير الأمر أكثر خطورة عندما تصبح حاكمية الله تعبر عن تصور للبشر، فالله لا يحكم بنفسه وإنما يتم الحكم من خلال جماعة بشرية وفي عصر معين وفي زمان معين وفي لحظة معينة. ولما كان كل مجتمع يتكون من طبقات فإن الحاكمية تظهر في طبقة اجتماعية تنادي بالحاكمية وهي في حقيقة الأمر تنادي بتصورها للحاكمية،

وقد يكون هذا التصور مختلفا عند طبقة اجتماعيـة أخـرى. ومن ثم غلب على فكر الجماعات الشـعارات الدينيـة دون مضمونها الاجتماعي، مثل الحاكمية لله، وتطبيـق الشـريعة الإسلامية، صحيح أن لـدى بعـض مفكـريهم إرهاصـات لنظريات اقتصادية واجتماعية وسياسـية تـرث اجتهـادات المسلمين في القرنين الأخيرين ولكنها ظلت أيضا في إطـار النظريات العامة دون الدخول في برامج تفصيلية اجتماعيـة وسياسية واقتصادية لصيغة الحكم الإسلامي في مجتمع مثـل المجتمع المصري ممثلا بإحصائيات دقيقة للدخول وتوزيـع الثروة، وسياسة الأجور، ونظام التجـارة، وصـلة العامـل بالعمل والفلاح بـالأرض، والطالـب بالمعهـد. ولا يكفـي الاحتماء بتكامل الإسلام، فالحياة تحتاج إلى تفصـيلات. ولا تأكل الناس من الشعارات. كما ساد فكر الجماعات العقائدية وإعطاء الأولوية للعقيدة، والتفتيش في ضمائر الناس، وفصل العقيدة عن أي مضمون اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي في حين أن التوحيد هو نظرية اجتماعية شاملة ومبدأ للاجتمـاع وللسياسة وللاقتصاد وللقانون. المجتمع واحد بـلا طبقـات، والجنس البشري واحد بلا تفرقة عنصرية، والإنسان واحـد

بلا ازدواجية أو خصام. وأن أقصـى مـا توصـلت إليـه الجماعات هو نظرة أخلاقية للكون، تعطي الأولويـة للفـرد على الجماعة، وللداخل على الخارج، وللأخلاق على السياسة وكأن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لا أثر لها وهي التي عناها القدماء باسم (أسباب النزول) كما ركـزت الجماعات على الجوانب المظهرية في الدين، وأعطت أهمية قصوى للشعائر والعبادات، وتحولت المعركة من الحقيقة إلى المظهر، فطالت الذقون وتلفح النـاس بالبيـاض، وتمتمـت الشفاه، وطقطقت المسابح، (ألا بذكر الله تطمـئن القلـوب) وتحول الأمر إلى نوع من الدعاية للدين، ونوع من الجـذب للناس وكأنها مستحضرات تجميل مـن نـوع جديـد يقبلـه الجميع، محلي غير مستورد، يفرح به الشباب عندما تجـذب إليه الأنظار وتجد من خلاله الفتيان والفتيات فرصة أعظـم للزواج بصرف النظر عن المضمون القائم علـى الفضـيلة والتقوى. فإذا ما أتت الممارسة فإن سلوك الجماعات يبـدو دائرا بين الكل ولا شيء، يرفضـون الحلـول الوسـط، أو التعاون أو حتى الحوار مع التيارات المخالفة. لا بد من الهدم قبل البناء، ومن القضاء على مجتمع الجاهلية قبـل تأسـيس

مجتمع الإيمان. وبالتالي ساد التعصب وغاب العقل، واستشرى الهوى، وانتهي الأمر بالمغالين منهم إلى تكوين جماعات منعزلة مثل (التكفير والهجرة) خارج المجتمع الجاهلي، خارج المدن، وعلى حواف الصحراء، مجتمعات مغلقة ينتهي بها الأمر إلى العزلة النفسية والاجتماعية ثم إلى العداء إلى الغير ثم إلى العدوان عليه. فيخسر القادة جماهيرهم، وينحسر تعطف الناس معهم، وبعد ذلك تصعب التفرقة بين المؤمن والمجرم، بين الوالي والقاتل.

٢- الماركسية التقليدية

وهو التيار المدان الآن والمتهم بالكفر والإلحاد والعمالة مع أنه كان أحد مكونات تاريخ مصر الحديث، وبلغ الذروة إبان الغليان الوطني في الأربعينات مع سائر التيارات الأخرى. وبالرغم مما امتازت به الماركسية التقليدية من وطنية ونضال ضد الاستعمار الخارجي والقهر السياسي الداخلي، وبالرغم من تبنيها قضايا الطبقة العاملة ودفاعها عن الفقراء، وبالرغم من نشاط أصحابها وحركتهم وتفانيهم واستعدادهم للموت إلا أن الماركسيين في مصر كانوا يكونون دوائر منعزلة على هامش المجتمع المصري،

معظمهم من الفنانين والأدباء المتحمسين للفن والحياة والتقدم والإنسانية. ثقافتها غريبـة، تعلـم الأدب الروسـي والفـن الاشتراكي وعلى دراية بتطور الفكر الاشتراكي والأوربـي وكأن أصحابها مثقفون بلا وطـن يشـابهون الاشـتراكيين الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان. وبالتالي كانوا يمثلون أحد روافد الفكر الأوربي في المجتمعات الإسلامية. لـم تحـاول تأصيل احتياجاتها في تراث الأمة أو قراءة حاضـرها فـي ماضيها، حفاظا على التواصـل التـاريخي، وسـعيا وراء الالتحام بالجماهير. كان التراث بالنسبة لها دينيـا، وبالتـالي غير علمي، وبالتالي أيديولوجيـة الطبقـة، مـن إفـرازات المجتمع، ومن ثم يجب القضاء عليها وإحلال العلم محلهـا. وهذا يتم عن طريق تغيير بناء المجتمع الطبقي وإحلال طبقة أخرى، وتحويل المجتمع الزراعي إلى مجتمع صناعي. وبعد ذلك تتغير المجتمعات المتخلفة وتلحق بالمجتمعات المتقدمة. النمط واحد، والطريق واحد، والهدف واحد، وكان هذا الولاء في الفكر للغرب مقدمة للولاء في الممارسة والتطبيق، فكانت هذه الدوائر تستمع إلى أوامـر الدوليـة الثالثـة، مرتبطـة بالأحزاب الشيوعية الغربية، وبالحركة الشيوعية العالميـة،

قبلت تقسيم فلسطين، وكانت تغلب مصالح المذهب على مصالح الوطن، وتعطي الأولوية للعقيدة على الأخوة في القومية، كانت لغتها صعبة الفهم، عويصة الأسلوب، وسيلة للشباب للإعلان عن الذات، والحديث عن الكم والكيف، والنفي، ونفي النفي والإثبات وقوانين التناقض والمادة والطاقة والحركة، تجعل الشباب يشعر بأنه انتقل من ثقافة التخلف إلى ثقافة التقدم، من الدين إلى العلم، وتحيل النقص لديه إلى عظمة. وكان من السهل حصارها من السلطة واتهامها بالكفر والإلحاد. وتشويه صورتها أمام الجماهير، رصيدها الأول، فإذا ما نشأ حكم وطني أيدوه. وعاونوه مرحليا وتحالفوا معه تكتيكيا حتى يتغلبوا عليه أو يتغلب هو عليهم أو يخافونه ويبررونه، ويزينون له أخطاءه حتى ينهار، فيظهرون هم كبديل مطروح. هذا بالإضافة إلى انقسامهم إلى طوائف وشيع وأحزاب وتجمعات طمعا في الرئاسة أو إيغالا في العقائدية أو تكفيرا لبعضهم البعض كما كانت تفعل الفرق الإسلامية القديمة.

وكان الإسلام فيها دينا مثل كل الأديان، مثل المسيحية الأوربية. كهنوت وعقائد، ورجال دين وخرافة، أفيون

للشعب يجب التخلص منه والاتجاه إلـى رحـاب العلمانيـة وسلطان العلم وميدان الطبيعة. لقد سبقنا الغرب ومـا زلنـا نحن نتخوف ونحن سائرون إلى ما انتهى إليه لا محالـة. أو على أكثر تقدير، الإسلام دين تقدمي متصل بالحياة وواقعيته مشهود بها، وعلمانيته مؤكدة لأنه ليس به رجال دين. ولكن ليس به شريعة مفصلة تكفي لجزئيات الحياة. به مبادئ عامة يمكن تفصيلها حسب كل عصر. ومن ثم لا يمنع الإسلام من الاستعارة والاقتباس لأي نظم أو قوانين لا تتعارض مع هذه المبادئ العامة كما استعار من قبل من القـانون الرومـاني والقانون الفارسي والقانون البيزنطي. وعلى هذا النحو يمكن اقتباس بعض القوانين الماركسية في الاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع ما دامت لا تتعارض مع مبادئ الإسـلام العامـة. وهذا الموقف في حقيقة الأمر يقلـل مـن شـأن الشـرعية الإسلامية ويتجاهل تنظيمها لشتى نواحي الحياة الاجتماعية، وأن الاستنباط يغني عن الاقتبـاس، وأن الاجتهـاد يسـتبعد الاستعارة ويضاد التقليد. بل إنه موقف انتهازي خالص يريد باسم الإسلام تبني الماركسية وإفساح المجال لها من داخـل

الإسلام، معه وليس ضده[٤] وهناك موقف آخر مستعار مـن موقف الأخوة المسيحيين وهو أن الدين لله والوطن للجميـع، وأن الدين ينظم العلاقة بين الإنسان وربه أما الدولـة فهـي التي تنظم علاقات البشر بعضهم ببعض. فلا تناقض أن يظل الإنسان مسيحيا ماركسيا، فهو مسيحي لأنه يؤمن بالله واليوم الآخر وهو ماركسي لأنه يـؤمن بالاشـتراكية. وكـذلك لا تناقض بين الإسلام والماركسية، فهو مسلم يـؤدي أركـان الإسلام الخمس، ويؤمن بالله وملائكته وكتبـه ورسـله ولا يفرق بين أحد من رسله ويحج البيت، ويـؤدي الفـرائض، ويصوم رمضان ولكنه يبقي الماركسـية كنظـام اجتمـاعي وسياسي واقتصادي. والحقيقة أن هذا الموقف أيضا فيه مقتل للإسلام لأنه تحويل له إلى دين مجرد لا شأن لـه بالحيـاة ويجعله مسيحية عقائدية، الدين في جانب والدنيا في جانـب،

---

[٤] انظر مقالاتنا الثلاثة بجريدة الجمهورية (ماذا كسبت مصر من جماعـة الإخوان؟)، (ماذا خسرت مصر من القضاء على الإخـوان؟)، (كيـف يمكــن تطــوير فكــر الإخــوان؟). الجمهوريــة ١٩٧٦/٧/١٠، ١٩٧٦/٥/١٠، ١٩٧٦/٥/١٩. وأيضا الجـزء السـادس: الأصـولية الإسلامية.

وهناك موقف آخر يحترم تراث الأمة ويتعلم منه ولكن تظل الاشتراكية العلمية هدفا قائما بذاته والإسلام والتراث والأمة وسيلة. وقد يغالي البعض ويجعل الإسلام السياسي هو كل شيء ويعادي الماركسية الغربية، ولكن الإسلام السياسي في مصر مع الجيش يكونان دعامتين أساسيتين لنهضة مصر وتمدينها، ويجعل الدولة هي القائمة بعملية التحديث، وكل مفكري الأمة مثل جيشها في خدمة الدولة. وبالتالي تمحى المعارضة، وينتهي دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يعود هناك دور للفقهاء أو العلماء، وهم ورثة الأنبياء القادرين على عزل الحاكم وهم لا يعزلهم الحكام، فالأمة الإسلامية أمة يقودها الأئمة العلماء[(5)].

٣- الناصرية الشعبية:

وهو الاختيار الأقرب احتمالا في مستقبل مصر القريب. وتعني (الناصرية الشعبية) أن الناصرية استطاعت أن تعبر عن وجدان الأمة ومصالحها الراهنة ولكنها شعبية هذه المرة ليست بيروقراطية تعتمد على الزعامة وحدها. هي الناصرية

[(5)] أثرنا ذكر المواقف دون ذكر الأشخاص احتراما للجميع.

من جديد التي شكلت تاريخ مصر المعاصـر دون حـدودها آخذين في الاعتبار أوجه نقصـها فـي التجربـة الأولـى. فالناصرية تعني الآن لدى جماهير الأمة الدفاع عن الفقـراء وحماية مصالحهم وخفض الأسعار أو تثبيتها، ودعم السـلع الأساسية والحفاظ على رغيف العيش. كما تعني لهم إيقـاف جشع الطبقات العليا، والتأميم، ووضع حد أعلـى للـدخول وللملكية وسيطرة الدولة على وسائل الإنتـاج والصـناعات الوطنية، والسيطرة على رأس المال الأجنبي وتوظيفه لخدمة التنمية العامة القائمة على التخطيط. كما تعنـي الناصـرية الشعبية الكرامة الوطنية وعدم إذلال مصر، والوقـوف فـي مواجهة الدول الكبرى وقبول تحـديها للثـورة المصـرية، والإباء الوطني فـي مواجهـة الاسـتجداء والسـعي وراء الأخرين، والصمود أمام الإذاعات المعادية ومحاولات قلب نظام الحكم حتى لقد طال عمر الثورة حوالي عشرين عاما، تجربة فريدة من تجارب العالم الثالث من حيث طول المـدة واستقرار النظام وعظمة الإنجازات.

تعني الناصرية الاستمرار في تاريخ مصـر الحـديث وعناصـره الدائمـة فـي مواجهـة الاسـتعمار، ومعـاداة

الصهيونية، ورفض التبعية للقوى الكبرى. كما أنهـا تعنـي رسالة مصر في التاريخ مركز الدوائر الثلاث، قلب العروبة ومنار العلم، وأخيرا تعني الناصرية نزاهة الحكـم، وإيثـار الصالح الخاص، والثورة ضد كل من يحاول النيل من هـذه النزاهة بالشك أو الاتهام، وهـي هـذه المـرة شـعبية لأن الجماهير هي التي ستحميها ولـيس الجهـاز البيروقراطـي السياسي أو الإداري. فقد تجـاوزت الجمـاهير التنظيمـات السياسية، وسبق رجل الشارع الأحزاب بما فيها المعارضة، يحرص الفلاح على الأرض، والعامل على حقه في العمـل، والطالب على مجانية التعليم، والمواطن على كرامته وشرفه، تستطيع صورة عبد الناصر اليوم أن تلهب حماس الجماهير، وأن تقود الكتل الشعبية في الطرقات، وأن تتحكم في مسـار التاريخ. تعني الشعبية أيضا الحرص على عدم إفراز طبقات جديدة تتكسب على حساب ثورة الجماهير، وحركتهـا فـي التاريخ بعد أن كانت الناصرية البيروقراطية مجرد تجربـة أولى وهي أقرب الاختيارات، فما زالت الناصرية تعيش في وجدان الشعب، وقد قفزت إليـه فـي السـبعينات كميعـاد

للحاضر، وكأنها حلما يعيشه. ومن ثم تكون مهمة الناصرية الشعبية تحقيق هذا الحلم إلى واقع معاش.

ومع ذلك، فالمخاطر كثيرة. ليس من الخارج بل من الداخل من الناصرية التقليدية ذاتها وعجزها ربما عن مواكبة حركات التجديد فيها سواء في الأجيال الناصرية التلقائية أو في الجماهير الناصرية الشعبية. فمن هذه المخاطر الانقسام حول الزعامة، ومحاولة كل فرد أن يخالف الزعيم الراحل سواء بشخصه أو بمجموعته أو بتفسيره أو بثقله التاريخي. ومنها أيضا اتباع أساليب القمع ومنع المعارضة، واضطهاد المخالفين في الرأي بدعوى الأمن. فالديمقراطية مطلب تاريخي لكل المجمعات التي تنتقل من التراث إلى التجديد، ومن القديم إلى الجديد، ومن التخلف إلى التقدم حتى تتم عملية التحول في أمان وحتى تثبت حرية الفكر وقيمة الإنسان. ومنها أيضا الاستمرار في الشعارات التي لا مضمون لها أو التي يضادها الواقع وتدحضها التجارب اليومية. فالناصرية في جوهرها حل لمشاكل الجماهير، والشعار لا يقوم إلا بوظيفة إعلامية خالصة لسد النقص النظري والقيام بدور التنظيم الشعبي وكأنه مثل أو حكمة،

فالحماس الناصري لا يكفي والأجيال الغاضبة ينقصها الوعي النظري والرؤية والحكمة والقدرة على التفاهم. ومنها أيضـا قيادة عملية التقدم بعقلية مختلفة، وفرض التخلف نفسه علـى مواقع التقدم، وذلك مثل تجميع الأحزاب التقدمية في الـبلاد المتخلفة عندما يفرض التخلف نفسه كواقع تـاريخي علـى طلائع التقدم التي تود تغيير مسار التاريخ. ولكن يظل الخطر الأعظم هو الاصطدام بالحركة الإسلامية من جديد إما لعـدم تنازل الناصرية الشعبية عن العلمانية أو عن الإسلام الدعائي مثل الإسلام والاشتراكية، والإسلام والتقدم، والإسلام والثورة تبريرا للنظام الثوري القائم أو لعدم تنازل الحركة الإسلامية عن عدائها التاريخي للناصرية وعن رغبتها في الانتقام منها، طالما أن الجسد فيه آثار التعذيب، وطالما أن كتابات الشهداء وعلى رأسهم سيد قطب ما زالت تؤثر في سلوك الناس وفي تكوينهم الذهني وبنائهم النفسي، طالما تظل الناصرية الشعبية تعبر عن حاضر الأمة وليس مخزونها التراثي، وهو الإطار الأيديولوجي الذي يمكن أن يكون حاملا لمطالبها الاجتماعية، وطالما تظل الحركة الإسلامية تعبر عن تراث الأمـة علـى نحو فارغ ودون أن تكون حاملا لمطالب الأمة الاجتماعيـة

في الزمان والمكان فما أسهل أن يهدف الشقاق في الأمة، وما أسهل أن تشق الوحدة الوطنية، وأن يتربص فريق بفريق. سيظل الإسلام دائما مناهضا لأي نظام قائم حتى ولو كان وطنيا تقدميا وسيظل أي نظام قائم يخشى الإسلام باعتباره شوكة في جنبه قد تصيبه في مقتل إن عاجلا أو آجلا.

٤ – اليسار الإسلامي:

وهو الاختيار الأخير في مستقبل مصر الذي يعبر، عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وهو الاختيار الذي يبدو بعيدا من حيث التحقق ولكنه في حقيقة الأمر قريب من حيث الإمكانيات والتوقع. (ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا) (الأحزاب: ٦٣). فاليسار الإسلامي هو الناصرية الشعبية، الاحتمال الأرجح في مستقبل مصر دون مخاطرها خاصة مقتلها الأخير وهو الإسلام والحركة الإسلامية والمحافظة الدينية التي تعبر عن ثقل تاريخي لا حيلة لنا أمامه.

اليسار الإسلامي هو الذي يحقق هذا التزاوج في وحدة باطنية عصرية بين الناصرية والإسلام، بين الحاضر

والماضي، بين الثورة والتراث. فلا يحدث أي تغيير إلا من خلال التواصل، ومن ثم يأمن اليسار الإسلامي أية ثورات علمانية منفصلة عن التراث القومي للبلاد وأية حركات إسلامية فارغة من أي مضمون اجتماعي في الزمان والمكان، ويعطي اليسار الإسلامي أكثر البرامج الاجتماعية تقدما، يسبق الناصرية والماركسية والاشتراكية لأنه لا يعترف بالملكية ويقول بالاستخلاف، ويرفض المجتمعات الطبقية، ويجعل العمل وحده مصدر القيمة، ويؤمم الوسائل العامة للإنتاج، ويعطي الأرض لمن يفلحها، والمصنع لمن يعمل فيه، والجامعة لمن يدرس فيها. وهو القادر على تكوين جبهة وطنية قادرة على احتواء جميع المذاهب والاتجاهات السياسية. فالإسلام يتسم بالشمول، ويضم الجزئيات ويكملها في نسقه العام، به الوطنية الليبرالية والاشتراكية والقومية والعلمانية. وقد كان هو الوعاء الثوري للحركة الثورية في إيران. وهو القادر على قطع خط الرجعة على المحافظة الدينية وقدرتها على تحريك الجماهير وتغييب وعيها، وجذبها خارج وضعها الاجتماعي واغترابها عن العالم الذي نعيش فيه. وهو القادر أيضا على حماية العلمانية ومكتسبات تاريخ

مصر الاجتماعي والسياسي من ليبرالية وناصرية ووطنية وقومية، فاليسار الإسلامي يتبنى كل إنجازات هذه التيارات ويزيد عليها من تصوراته وبرامجه الاجتماعية. فالإسلام أولى بالتنوير الليبرالي. فهو دين العقل والحرية والطبيعة والإنسان والديمقراطية والتقدم والتاريخ. وهو أولى بالناصرية. فيه العدالة الاجتماعية والثورة والتقدم ورفض موالاة الأجنبي، ومعاداة الصهيونية، والتحرر والحياد وعدم الانحياز، وهو أولى بالوطنية فالدفاع عن دار الإسلام فرض، والشهادة مطلب، وهو الذي وحد بين القوميات في إطار الأمة الإسلامية، لكل لغتها وعاداتها وتقاليدها وعرفها بل ودينها في إطار الحلف الإسلامي العام. وهو القادر على النفس الطويل والاستمرار لأنه يمثل كل تيارات الأمة، ويجمع بين عنصريها الأساسيين: الإخوان والشيوعيين، وجناحيها الثابتين: اليمين الديني واليسار العلماني. لا يخشى أن ينقلب عليه جناح لأنه يربط الثاني بالأول، ويفسر الأول بالثاني، ولا يجد صعوبة في الحديث مع الجماهير فهي مستعدة له مفتوحة عليه. لا تحتاج إلى كوادر حزبية، فالأئمة موجودون، ولا إلى دورات تدريبية فدروس العصر والمغرب

والعشاء موجودة، ولا إلى دور ومقار فالمسـاجد موجـودة وعامرة، ولا إلى نزول إلى الشعب والالتحام به كالسمك في الماء فالأحياء الشعبية هي أحياء الحسـين والسـيدة زينـب والإمام الشافعي وعمرو بن العاص والسيدة نفيسة والسـيدة عائشة والشعراني. وقد خرجت الثورة الإسلامية الكبرى في إيران من مساجد طهران وأسواقها. ولا تحتاج الجماهير إلى ثقافة حزبية أو كتب سياسية أو إلـى أيديولوجيـة وطنيـة فالإسلام تراثها ووعائها وإطارها الثقافي. وتفسـيره لـيس حكرا على سلطة بل يقرأ فيه الناس حاجاتهم، ومشاع للجميع فلا صعوبة في حث الناس على المعارضة السياسية، فهنـاك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو على دفع الناس على الجهر بالقول والنضال فهناك الشهادة، شهادة أن لا إلـه إلا الله، ورفض الآلهة المزيفة ونفيها من أجل تطهيـر الـوعي القومي للإله الواحد الحق. وقد كان مـن شـعارات الثـورة الإسلامية الكبرى في إيران (الله أكبر، قاصم الجبـارين) ولا صعوبة في دعوة الناس [٦] لتحرير الأرض فهنـاك آيـات

---

[٦] انظر افتتاحيتنا (ماذا يعني اليسار الإسلامي؟) في اليسـار الإسـلامي، كتابات في النهضة الإسلامية، العدد الأول، القـاهرة ١٩٨١ . وهـي

الجهاد والأمر بالقتال دفاعا عن الأرض التي هي صنوان لله في (إله السـماوات والأرض) (رب السـماوات والأرض)، (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله). ولا صعوبة في إذكاء التقدم، فالوحي تقدم في التاريخ على فترات والناسـخ والمنسوخ تقدم في التشريع بل ومذكور في القرآن (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) (المدثر: ٣٧). ولا صـعوبة فـي البدء بعمليات التنمية، فالأرض في القرآن ليست صحراء بل ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتصبح مخضرة. ولا صعوبة في التربية القومية فالمسلمون خير أمـة أخرجـت للنـاس، والمسلم هو خليفة الله في الأرض، عليه الرسـالة، وحمـل الأمانة. وكما عبر الإسلام عن تاريخ مصر الحديث بتياراته الثلاثة الليبرالي والإسلامي والعلماني فإنه يعبر أيضـا عـن حاجات المثقفين جميعا، اليوم، لا أحد لا يأخذه في الاعتبـار في أبحاثه ودراساته وميدانه بل حتى في علمه ومعمله. هـذا ليس تصورا طوباويا للإسلام ومستقبل مصر بل هو واقـع مصر أيضا، ولكن الأمر الذي يخشى منه هو أن يكون الفكر جاهزا دون جماهير، وأن يكون اليسار الإسلامي مجرد ثورة

افتتاحية هذا الجزء.

مثقفين أو أن يكون من خلق فقيه واحد أو قليل من الفقهاء لا يمثلون جمهور الأمة الذين ما زالـو ا ينتسـبون للمحافظـة الدينية كتيار تاريخي لم يتحول بعد منذ ألف عام ولم يشفع له قرنان من الإصلاح والنهضة والتنوير في تاريخنا الحـديث، أو يتم حصاره من اليمين الديني واليسار العلماني فلا يجد له مخرجا، أو يظل على مستوى النظر ولا يتحد بقضايا الواقع ولا يخرج عن الشعار إلى حياة الناس اليومية أو يكون مجرد رؤية حالمة أو حلم راء لمستقبل مصـر البعيـد أو لآخـر الزمان.

خامسا- خاتمة: حركة التاريخ:

ولكن الذي يحدد حركة التاريخ ومساره لـيس مجـرد النبوؤات ولكن عوامل حركة التاريخ ذاتها وجدلـه البـاطني وقوانين تطوره، فهناك الجماهير التي تصنع التاريخ، فهـي ثقله الرئيسي، ومحركه الأول. إلى أي مدى تظـل خـارج التاريخ وإلى أي مدى تدخل فيه؟ وذلك لا يردع إلى تنبؤ بل إلى عمل مستمر وحركة دائبة، وتوعيـة لهـا، وتوجيههـا وتحريكها وصبها في قنوات الحركة لإحداث التغير المنشود، وهناك أيضا الأفعال المقصودة للأفراد والجماعات والتي تتم

بناء على خطة طويلة الأمد وعلى مراحل تتحقق تـدريجها. وهي أفعال القادرين على تغيير حركة التاريخ ليس فقط مـن الزعماء السياسيين الذين هم أقدر من خلال السـلطة علـى إحداث مثل هذا التغيير ولكن أيضا العلماء والمثقفين والفقهاء والأئمة والطلبة والعمال كزعامات. ويدخل في ذلك أعمـال الأندية والنقابات والاتحادات وكل القوى الاجتماعية المنظمة، ثم بعد ذلك ترقب (العرض التاريخي) المصادفة التي يقدمها الحاضر، الفرصة التي منها يتحرك التاريخ، نتوءات السياسة أو أغوار الأرض أو فجـوات التـاريخ أو حتـى هفـوات الزعامات القائمة، يكون هذا العرض التاريخي بمثابة المفجر للثورة، المعلن عن بداية التغير في الاتجاه السياسـي وفـي البناء الاجتماعي وفي المسار التاريخي[٧] هذا بالإضافة إلـى قوانين حركة التاريخ ومساره وقوانين الصراع الاجتمـاعي، وهي القوالب الفارغة والبناء الصوري الذي تصب فيه حركة الجماهير الواعية وأعمال الأفـراد المقصـودة وأعـراض

---

[٧] وذلك مثل انتخابات نادي الضباط في الثورة المصـرية فـي ١٩٥٢، والقبض على سعد زغلول وزملائه في ثورة ١٩١٩ وزيادة الأسـعار في يناير ١٩٧٧.

التاريخ بالمصادقة. وهي ليست قوانين آلية بل تملؤها حيـاة الجماعات والأفراد. والأفكار جزء من حركة التاريخ ووعي الجماهير. ومن ثم فإن (اليسار الإسلامي ومستقبل مصـر) حتى ولو كان مجرد نبؤة فإن رسالات الأنبياء كلهـا كانـت نبؤات في التاريخ. وإذا كان مجرد حلم خيالي طوباوي فـإن الاشتراكية بدأت كذلك قبل أن تصبح حقيقة وعلما ونظامـا ودولة ومعسكرا. وإذا كان مجرد ذكرى فإن الـذكرى تنفـع المؤمنين. وفي نطاق التاريخ حيث تتلاقى خطـوط الحريـة بالحتمية قد يتم تجاوز فترات الزمـان. فقـد يلحـق أشـل بالسلحفاة في قفزة واحدة!

(إنهم يرونه بعيدا، ونراه قريبا) (المعارج: ٧).

التنوير الديني والتنظيم السياسي*

لأول مرة في مصر، تقوم تجربة حزبية فريدة في (التجمع الوطني التقدمي الوحدوي) يضم عدة تيارات فكرية تمثل قوى وطنية متعددة وعلى رأسها الناصريون والديمقراطيون والوحدويون والماركسيون والتنوير الديني متفقة فيما بينها على حد أدنى من المبادئ تتمثل في التيارات والقوى المختلفة دون أن يفقد كل منها منطلقاته النظرية واجتهاداته في تحليل الواقع، ورصد مشاكله، ووسائل تغييره، وحتى لا يصبح التجمع ميدانا لصراع القوى، يحاول كل منها العمل لصالحه الخاص أو الاستئثار بأكبر قدر ممكن من المكاسب من خلاله سواء بالنسبة للمناصب القيادية أو

---

* قدمت هذه الورقة لحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي عام ١٩٧٦ لمناقشة الصلة بين التيار الديني المستنير وباقي القوى الوطنية في الحرب أثناء إصدار جريدة الأهالي الأولى إحساسا بأنه تيار محاصر أمام تيار آخر سائد، ولم تلاق الورقة أي اهتمام من الحزب أو مناقشة علنية لها.

بالنسبة للتأثير على الجماهير. فإنني أقدم هذه الورقة للمناقشة لتحديد الصلة بين التنوير الديني إلى أقصى مدى وكيف أنـه باستطاعته أن يكون الدرع الحامي لكـل التيـارات، ورأس الرمح لكل القوى، والبوتقة التي تنصهر فيها كل المـذاهب، والأساس الأيديولوجي للتجمع دون احتكار للنظر، بل بالتأكيد على شرعية المـداخل المتعـددة، وضـرورة التفسـيرات المتنوعة.

أولا – مقدمة تاريخية:

التنوير الديني ووجدان الأمة.

ليس التنوير الديني وليد الظروف الحالية، نشـأ نتيجـة لصراع القوى الاجتماعية كما تنشأ الأحزاب السياسية بل هو يعبر عن وجدان الأمة، وتاريخ الشعب في مساره الطويـل. ودون رجوع إلى الأنبياء الذين ساهموا في تقـديم الـوعي الإنساني، نظرا وعملا، ونحن جزء من هذا الـوعي، ودون لجوء إلى التيارات العقلانية في تراثنا القديم عنـد المعتزلـة وابن رشد وإلى الجوانب الواقعية التي ترعى الصالح العـام في أصول الفقه، ودون ذكر لتاريخ علماء الإسلام ووقـوفهم

أمام الحكام والطغاة باسم الأمة ودفاعا عن مصالح الجماعـة فإنني أكتفي بالإشارة إلى الماضي القريب.

أولا: أن حركات الإصلاح الديني الأخيرة منذ الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وعبد الحميد بن باديس، حتى محمـد إقبال وحسن البنا وسيد قطب، تمثل إحـدى روافـد اليسـار الديني الذي بدأ بمهمة التنوير وإعلاء شأن العقل من جديـد خاصة فيما يتعلق بمسائل العدل، واليسار الـديني هـو فـي حقيقة الأمر تطوير لحركات الإصلاح الديني الأخيرة بعد أن توقفت دون أن تستنفذ كل قدراتها بعد، بل إننا قد تأخرنا عما قاله محمد بن عبد الوهاب في رفض الوساطة والشفاعة بين العبد والرب وتأكيده على نقاء التوحيد. كما إننا تأخرنا عـن مواجهة الاستعمار والدفاع عن وحدة الأمة ضد الغاصب كما فعل الأفغاني. كما لم تفلح فينـا دعـوة الكـواكبي لتجنيـد الجماهير ضد اللامبالاة والحرية ضد الاستبداد والاسـتعباد. إن انشغال الإصلاح الديني بالقضية الوطنية فـي محاربـة الاستعمار، بالقضية الاجتماعية في تحقيق العدالة الاجتماعية، وفي وحدة العالم الإسلامي وشعوب الشرق، مـا زال هـو انشغالنا حتى الآن في معركة التحرير والبنـاء الاشـتراكي

للمجتمع، يحاول اليسار الديني تطـوير حركـة الإصـلاح وتحويله من إصلاح نسبي إلى إصلاح جذري، ومن إصلاح العقائد إلى تغيير المجتمع، كما يحاول تخليصه مـن بعـض العوائق النظرية التي ظل أسيرا لها بهجومه على الاشتراكية العلمية، والنظرة المادية ودعوته إلى نسبية العقـل وحـدود الإرادة الإنسانية.

كما أن اليسار الديني ثانيا هو تطوير لـبعض أجنحـة جماعة الإخوان المسلمين التي بدأت في الظهور، خاصة بعد دخول الشهيد سيد قطب في الجماعة في أوائل الخمسـينات وكتاباته عن (العدالة الاجتماعية فـي الإسـلام) وتفسـيره التوحيد الإسلامي على أنه يقوم على ثلاثة مبـادئ: تحـرر الوجـدان الإنسـاني، والمسـاواة الاجتماعيـة، والتكافـل الاجتماعي. وقد تمثل هذا التيار في ظهور لجنـة الشـباب المسلم ومحاولتها الكتابة في الاقتصاد الإسـلامي، وتحويـل ذلك إلى برنامج عملي في صورة شركات مساهمة، وبنـوك بلا فوائد، وجمعيات تعاونية، وصناعات يديرها العمال برأس مال مشترك، ولو قدر للإمام الشهيد أن يحيا حيـاة طبيعيـة خارج الجدران وأن يستمر في تطوره الفكـري وممارسـته

اليومية لأصبح من ركائز اليسار الديني. وإن التطور الطبيعي لجماعة الإخوان المسلمين بمساعدة (التجمع الوطني) لهو اليسار الديني في النهاية.

واليسار الديني ثالثا هو أيضا تطوير واستمرار للتيارات الماركسية المرتكزة على الدين عند عبد الرحمن الشرقاوي وخالد محي الدين وشهدي عطية والذي كان أقلية في مواجهة التيار الماركسي العام الذي تغلب عليه الماركسية التقليدية المرتبطة بالفكر الغربي وما ساده في القرن الماضي من دارونية ومادية وآلية، وكأن التقليد، وهو أحد مظاهر التخلف، ليس منهج الاتجاهات الدينية المحافظة وحدها بل هو منهج عام وأشمل ينطبق أيضا على التيارات التي تبغي التقدمية والتحررية. اليسار الديني إذن هو عودة للماركسية الوطنية، والدين هو تراث الوطن ووجدانه، ورد فعل على الماركسية الغربية التقليدية التي تخلت عنها الأحزاب الماركسية الغربية ذاتها في القرن العشرين. اليسار الديني هو أيضا عودة لاكتشاف (المسيحية البدائية) ولقراءة (حروب الفلاحين في ألمانيا في القرن السادس عشر) وتصحيح خطأ

شائع يأخذ نصف العبارة (الدين أفيـون الشـعب) ويتـرك النصف الآخر (وصرخة المضطهدين).

واليسار الديني رابعا أيضا هو وليد ثـورة ٢٣ يوليـو خاصة في أوائل الستينات بعد قرارات يوليو الاشتراكية فـي ١٩٦١. فقد ظهرت عدة كتابات عن الإسـلام والاشـتراكية وعن الإسلام والعدالة الاجتماعية ولكنها ظلت محدودة الأثر وظهرت فيها العيوب الآتية:

(أ) إنها كانت بدافع من السلطة وتبريرا لها، ولو أن السلطة كانت تدعو للرأسمالية لظهرت كتابات عـن الـدين والرأسمالية، فكان الفكر الـديني هنـا مثـل الفكـر السياسي دفاعا عن النظام القائم.

(ب) لم تكن سابقة للسلطة، ولم تتحول إلى قوى معارضـة، ولم تظهر الانفصام بين القول والعمل، وبين الشـعار والتطبيق، وبين الفكر والواقع.

(ج) كان يغلب عليها الدفاع عن الـدين، وبيـان أن الـدين يساير الركب، فيه أصول الاشتراكية، فكانت أقـرب إلى علم الكلام السياسي المدافع عن الدين في جوانبه الاجتماعية.

(د) كانت تقوم على التوفيق مـن الخـارج بـين الـدين والاشتراكية دون التحليل من الداخل ومن ثم نقصـها المنهج العلمي، وغابت عنها الأصالة النظرية.

(هـ) تحولت أحيانا إلى مزايدة وتجارة، ما دام الأمـر قـد تحول إلى مباريات في الشعارات التي لا ينتج عنهـا عمل، ومن ثم غاب عنها النقد الاجتماعي، وأصبحت صورية جوفاء مثل الخطابة دون الاعتماد على العقل.

(و) تحولت أحيانا، وطبقا للظروف السياسـية إلـى نقـد للاشتراكية العلمية ومحاولة لصدها بدعوى الأفكـار المستوردة المعارضة لتراث البلاد وتربته.

(ز) لم تحدث تأثيرا في الشعب، ولم تحدث تغييـرا فـي رؤية الحزب، بل لم تتجاوز أدبيات السـلطة القائمـة ومحاولات الدفاع عنها ضد بقايا الإقطاع ورأس المال والأنظمة الرجعية في العالم العربي.

اليسار الديني إذن هـو المصـب النهـائي لحركـات الإصلاح الديني، ولجماعة الإخوان المسـلمين، وللتيـارات الماركسية ولثورة ٢٣ يوليو، وكان من الطبيعي أن يصـب في النهاية في (التجمع الوطني التقدمي الوحدوي).

ثالثا: هل للتنظيم الحزبي الأولوية على التنوير الديني؟

هناك رأى يقول (وهو رأى الأستاذ خالد محـي الـدين والدكتور محمد أحمد خاف الله) بأن للتنظيم الحزبي الأولوية على التنوير الديني، وأن الحزب ليس جماعة دينيـة تهـدف إلى الإصلاح بل هو مجموعة من القوى يجب الحرص عليها وعلى ازديادها وترابطها بصـرف النظـر عـن أفكارهـا وعقائدها وتصوراتها ما دامت تساند الحزب وتعمـل علـى تقوية قواعده، فتعطي أصواتها لمرشـحيه، وتـدعو لهـم، وتسانده في الاحتفالات، وتجند له الناس بما لها مـن تـأثير على العامة، ومن ثم لا يجب تغييرهـا وإلا انفـرط العقـد، وتفكك الحزب، فالحزب هو الأساس والـدين جـزء منـه، وجريدة الحزب جريدة سياسية وليست جريدة دينية. وعلـى الحزب أن يتجنب الدخول في المناقشات النظرية خاصة فيما يتعلق بالحلال والحرام نظرا لاختلاف المشرعين فيه، ولتغير الفقه من عصر إلى عصر، ولأن باب الاجتهاد مفتوح فيما لم يرد فيه نص وهو الكثير لأن الإسلام وضع الأسس العامـة وترك التطبيق للعقل الإنساني والمصـلحة العامـة. وعلـى

الحزب أن يتجنب الاصطدام مع العقائد السائدة حتى لا يخسر الحزب قواعده، وتنحسر عنه عامته، ربما يكون ذلـك فـي مرحلة تالية بعد انضمام الجماهير للحزب أن يحدث التنـوير الديني كحركة داخلية فـي الحـزب دون أن يكـون حلقـة الاتصال بين الحزب وجماهير الشعب خارجا عنـه، وكـأن التنوير مسألة خاصة وليست مسألة عامة، وكأنها حكر على أعضاء الحزب وليست واجبا وطنيا داخل الحزب وخارجه.

وهذا – في رأيي – موقف خاطئ وتصور غير دقيـق لعلاقة التنوير الديني بالتنظيم السياسي من الناحيتين الدينيـة والسياسية في آن واحد للأسباب الآتية:

١ – إن الدين هو الأساس والحزب هـو الفـرع. وأن جماهيرنا متدينة أولا وحزبية ثانيا، فهي متدينة قبل أن تكون حزبية، ودينها هو تراثها الذي يحدد لها تصوراتها، ويضـع له قيمها، ويعمل كموجهات لسـلوكها. الـدين هـو الثابـت والحزب هو المتغير، الدين هو الماضي والحاضر، والحزب هو الحاضر فحسب، الدين هو التاريخ والحزب هو إحـدى حركاته، الدين هو المنبع والحزب هو المصب، الـدين هـو الكل والحزب هو الجزء. فإذا كان الحال كذلك فكيف يكـون

للحزب الأولوية على الدين؟ ألا تكون هـذه الأولويـة قلبـا لطبيعة الأشياء ومحاولة لوضع الكل في الجزء، وجعل الفرع هو الأساس، وقصر الماضي والحاضر وربما المستقبل على الحاضر وحده، وجعل المنبع مصـبا والمصـب منبعـا؟ أن الوضع الطبيعي من أجل الدين ومن أجل الحزب هو السـير مع طبائع الأشياء أي أولوية الدين على الحزب حتى يتحول الدين إلى حركة وحتى يتأصل الحزب في وجدان الشعب.

٢- أنا مسلم أولا وحزبي ثانيا، وأنا تعني هنا المواطن العادي، رجل الشارع وابن البلد، الفلاح والعامـل والمثقـف أبى أم لم يأب. ومن ثم فالأمر الطبيعي أن يكون الحزب في خدمة الإسلام، وليس الإسلام في خدمـة الحـزب، ويعنـي الإسلام هنا التراث القومي للناس الذي يضم المسيحية أيضا. وما من أحد منا في حالة تعارض بـين الإسـلام والحـزب سيختار الحزب دون الإسلام. وأقول ذلك لا عـن تعصـب ديني أو عن قلة حماس حزبي بل من منطلق وصف حقـائق الأشياء وطبائع الأمور وحتى يتوافر عنصر الصـدق عـن منطلق وصف حقائق الأشياء وطبائع الأمور وحتى يتـوافر عنصر الصدق في عضو الحزب وفي قيادته بوجه عام ولدى

كتابه ومفكريه بوجه خاص وإلا ضاع عنصر وحدة الشخصية في حياتنا، ونكون مسلمين وحزبيين، ونعيش الإسلام والحزب، كل على مستواه، ومن ثم نحاصر الدين ونقطع جذور الحزب ونحصر أنفسنا بين التصوف والماركسية، وتكون نهاية التنوير الديني والتنظيم الحزبي على السواء. طاقة معطلة، وآلة بلا طاقة! إن الموقف الإيماني السليم يحتم عدم الشرك وإعطاء الأولوية المطلقة للدين على الحزب، وتكون القضية هي كيفية تفسير الدين بما يتفق مع مصالح الأمة التي يدافع عنها الحزب، وتكون مصالح الأمة هي مقياس تفسير الدين ومضمون برنامج الحزب.

٣- لا يمكن للتنظيم الحزبي أن يكون مقياسا للتنوير الديني، فالتنظيم لا يكون مقياسا للفكر، التنظيم الحزبي يخضع لاعتبارات عملية خالصة في حين يقوم التنوير الديني على الدعوة إلى التفكير، وإعمال العقل والروية، والتأمل في الداخل والخارج، فالتنظيم والتنوير عالمان مستقلان تماما مثل استقلال البدن والروح وإن كانا متفاعلين متحدين على نحو تكون للروح فيه السيطرة على البدن. والتنوير الديني

هو الذي يضع المشاكل من الأساس، وهو الذي يحدد الهدف، ويشخص طبيعة المرحلة التاريخية التي يمر بها المجتمـع، وهو الذي يضع الأساس العقلانـي للتنظـيم، أمـا التنظـيم السياسي فهي الأداة التي يوكل إليها تنفيذ مهام التنوير الديني دون أن تكون حكما فيه أو معتذرة عن تلبية مطالبه بحجـة المراحل وطبيعتها؛ لأن تشخيص طبيعة المرحلة من مهـام العقل وليست من وظائف التنظيم.

٤- لقد فشلت التنظيمات الحزبية في جيلنا وإبان الثورة المصرية في أن تصبح أحزابا شعبية لأنها كانت مفروضـة على الشعب، ولم تنبعث منه، ولم تعبر عن تراثه على نحـو صادق دون تملق أو مداهنة، ولم تهز وجدانه، ولـم تصـبح مصدر لسلوكه، ومنبعا لقيمه، يعبر من خلالها عـن فكـره، ويضحي بحياته في سبيلها، وإعطاء الأولوية للتنظيم السياسي على التنوير الديني يجعل تجربة حزبنا الجديد مثل التجارب السابقة غير نابع من وجدان الشـعب وتراثـه الطويـل. أن التجربة الحزبية على مدى ربع قرن تثبت أن أيـديولوجيات الأحزاب المفروضة لم تمس وجدان الشعب، ودخلت من إذن وخرجت من الأذن الأخرى وإن كانت قد أثرت في بعـض

الشباب على نحو عاطفي نظرا لحماسهم التلقـائي للثـورة. وإعطاء الأولوية للتنظيم على التنوير يعيدنا إلـى تجربتنـا الحزبية الماضية ولا يجعل من الحزب الجديد تجربة فريـدة في نوعها باعتباره أداة بلورة لتراث الأمة، وقنـاة جماعيـة تعبر فيها عن نفسها من خلالها كما كانت أحزاب الإصـلاح في حيانا المعاصرة التي واجهت الأحزاب الدينية التقليديـة وأحزاب التفرنج الغربي، إن جماهيرنا ما زالت فـي عزلـة عن أحزابنا السياسية وما زال اليسار أيضـا منعـزل عـن جماهير الشعب من حيث هو تنظيم، ويعـاني مـن مشـاكل الاتصال الفكري به خاصة في الوقـت الـذي تجمـع فيـه الجماهير على موقف اجتماعي معين.

٥- إن تملق الحس الديني عند الجماهير هو نفـس مـا تفعله الأحزاب الرجعية مع اختلاف الوظيفـة، مـرة نحـو اليسار ومرة نحو اليمين، وبالتالي لا يكون هناك خلاف فـي المنهج بين الحزب التقدمي والحزب الرجعي، كلاهما يتقرب إلى الجماهير ويوجهها إلى بغيته الخاصة دون اقتناع فعلـي بمفاهيم الجماهير وتصـوراتها وعقائـدها، كلاهمـا يريـد أصواتها دون قلوبها، كلاهما يريد أبدانها بلا أرواحهـا. إن

إعطاء الأولوية للتنظيم السياسي على التنوير الديني يسـاعد على نشأة الانتهازية السياسية عـن طريـق خـداع النـاس والتسليم بأوهامهم من أجل أصواتهم، ويكون أقوى التنظيمات في الإيهام والخداع والتملق والتقرب هو التنظيم الذي يكسب الجماهير إلى صفه. في حين أن مهمة الحزب هـي تربيـة الجماهير، وتخليصها من الأوهام، وكشف أسـاليب الخـداع أمامها. مهمة الحزب هو رفع مسـتوى قواعـده وكـوادره وجماهيره بالتنوير الديني وهو صلب التنوير العام، فالحزب جامعة، والجامعة حزب، ولا وجود لخاصة وعامة، مثقفـون وعمال، وأن من مظاهر التخلف أن تقول الجامعة إننا لسـنا في حزب وأن يقول الحزب إننا لسنا في جامعـة، وأن مـن مظاهر الخوف أن تمنع الجامعة أنصار التنوير الديني مـن التدريس وأن يمنعهم الحزب من الكتابة في جرائده والاتصال بجماهيره.

٦- إن أخذ بعض الجوانب الاقتصادية والسياسية مـن الدين لتأييد برنامج الحزب هو أخذ للجـزء وتـرك للكـل، ووقوع في نفس الخطأ الذي تقع فيه الأحزاب الأخرى، وهو الخطأ الذي يتمثل في الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض

الآخر، والذي يفصل بين العقيدة والشريعة، بين التصور والنظام، بين التوحيد والفقه، وبين الأصول والفروع. إن فصل التصور الديني للعالم عن الجانب الاقتصادي والسياسي في الدين فصل غير قائم، فالشريعة الإسلامية منبثقة من العقيدة، والعمل قائم على النظر فلا يمكن فصل الأسس النظرية عن التطبيقات العملية. وأن الذي يحدد سلوك الناس هي تصوراتهم للأمور، وطالما ستظل تنظيماتنا السياسية تعمل على مستوى (التكتيك) السياسي دون التعرض لأسسها في ثقافاتنا الوطنية فإنه ستظل محدودة الأثر، تعصف بها رياح العقائد والتصورات. أن أكبر خطر يهدد التنظيم الحزبي هو ثنائية النظر والعمل التي تظهر في تقليدية التصور وتقدمية العمل أو رجعية الفكر وتقدمية البرنامج. وهي الثنائية التي تهدد كل عمل سياسي والتي فشلت بسببها كل تنظيماتنا السياسية. والتقدم واحد ولا يمكن إقامة برنامج تقدمي على تخاف نظري وإلا عصفت التيارات العقلانية بتنظيمنا السياسي، وتخلفنا عن مسار النهضة، وأصبحنا رجعيين في الأعماق تقدميين على السطح، متخلفين في الحقيقة تقدميين في المظهر، إن التحرج من الدخول في

المعارك الفكرية داخل الحزب وخارجه وفي التصدي للعقائد الشائعة والتقاليد الموروثة يفقد التنظيم السياسي قدرته علـى المبادرة، ويجعله باستمرار في موقف الـدفاع دون موقـف الهجوم.

٧- إن العمل السياسي دون التنـوير الـديني سـيكون طويلا نظرا لأن التخلف الفكري والعقائدي يقف حجر عثرة أمام كل عمل سياسي. بل إن القدر من التقدم الـذي يمكـن للتنظيم السياسي أن يحصل عليه يمكن أن يصاب بانتكـاس نظرا لأن التخلف الفكري أقوى بكثير من التنظيم الخارجي، فالداخل أقوى من الخارج، والروح أقوى من البدن، والفكـر أقوى من التنظيم، إن معركة التخلـف أعمـق بكثيـر مـن البرنامج، فالتخلف أساسا في الذهن وفي التصور، ولا يمكن إقامة برنامج متقدم على تصور مخالف للعـالم، وأن بقـاء الحزب خارج معارك النهضة، وخارج المرحلـة التاريخيـة التي يمر بها المجتمع يجعله مجرد تنظيم سياسي مسـطح لا ينفذ إلى الأعماق. إن المعركة الحقيقية على جميع المستويات بما فيها المستوي السياسي هي معركـة النهضـة والعمـل السياسي هو جزء من حركة أعم هي حركة النهضة. وفـي

حالة فشل التنظيم سياسيا وتاريخيا فعلى الأقل يبقى دوره في نهضة الأمة ومدى مساهمته في دفعها خطوة إلى الأمام بتعميق أثرها أو توسيع مجالاتها. وإذا كانت المرحلة التاريخية التي تمر بها هي مرحلة العقل، وكانت العقلانية تمثل تقدما ونهضة بالنسبة لجيلنا فإنه لا يمكن التخلي عنها في إقامة فكر الحزب، وفي تنظيم الحزب وفي تنوير جماهير الحزب داخل التنظيم السياسي وخارجه خاصة وأن العقل والعقلانية قد أشيد بهما ثلاث مرات في برنامج الحزب في فقرته الصغيرة الخامسة عشرة عن (الدين والتراث) التي تقول: (إننا نرى في الإيمان برسالات الأديان السماوية في ضوء النظرة العقلانية المستنيرة طاقة خلاقة...) وتقول ثانيا: (وعندما ننظر إلى هذا التراث... عندما ننظر إليه بعقل مستنير...) وتؤكد ثالثا على قيم التراث ومنها (الانتصار للعقل وإعلاء شأنه وتمكين سلطانه)، ومنها أيضا (المنهج العلمي في البحث والتفكير).

٨- أن التنوير الديني لا يمثل وجهة نظر واحدة بل مجموعة اجتهادات، تساهم كلها في عملية الاستنارة، فلا يوجد نمط واحد أو نموذج أوحد للتنوير الديني، كما أنه لا

يوجد خطأ وصواب بل هناك تفاوت في القرب أو البعد مـن الفكر أو من الواقع، من السطح أو من الأعماق، من الفروع أو من الأصول. وقد كان الرسول يقول لأبي بكر: يا أبا بكر أنزل قليلا. وكان يقول لعمر: اصعد قلـيلا. وقـال أيضـا: اختلاف الأئمة رحمة بينهم. وأيضـا: (أصـحابي كـالنجوم فبأيهم اقتديتهم اهتديتم). وقد ازدهر تراثنا القديم بالخلاف بين الفرق الإسلامية من معتزلة وأشاعرة، وخوارج ومرجئة ولم نتخاف إلا بعد اعتبارها كلها ضالة باسـتثناء فرقـة واحـدة ناجية هي التي في السلطة. إن المرحلة التاريخية التي نمـر بها الآن هي القضاء على أحادية النظرة، وإبـراز الحـوار وشرعية الرأي المعارض. وأن أحادية الطرف في السياسـة التي سادت حياة جيلنا لناشئة من أحادية الطرف في وجداننا القومي منذ سيادة الأشعرية في القرن الخامس وتزواجها مع التصوف باعتبارها الفرقة الناجية حتى الآن. فـلا مـانع أن يوجد في التنوير الديني يمين (الشيخ السماك)، ووسـط (د. خلف الله، الحاج خالد محي الدين)، ويسار (د. حسن حنفي). ومن الحوار بين هذه الأجنحة الثلاثة ينشأ التنـوير الـديني وتكمل السيطرة ويقوي بعضها البعض، ولا مانع من وجـود

أجنحة في كل القوى الوطنية داخل التجمع بين يمين ويسـار ووسط، أو بين تقليدي وتجديدي، أو بين نسـبي وجـذري، فهناك ناصرية يمينية وناصرية يسارية، وهنـاك ماركسـية تقليدية وماركسية تجديدية، وهناك تنوير ديني نسبي وتنـوير ديني جذري، إن الخوف من فتح الجبهات الفكرية التنويريـة لهو موقف متخاف يقضي علـى انتشـار الحـزب وتقويـة قواعده، ويسمح بقوى وطنية أخرى، تلك التي تـدخل فـي معارك النهضة، بالازدهار على حساب الحـزب ونكوصـه وتخوفه وإيثاره السلامة. إن حيوية الحزب تتمثل في مقـدار ما يثير من معارك فكرية تشغل أذهان الناس، وبالتالي يصبح الحزب الحياة الفكرية لكل بيت ومحور التفكير في كل أسرة. فالحزب حركة فكرية بالإضافة إلى برنامج للعمل الـوطني وقوى اجتماعية تمثل الأغلبية.

٩- إن جمود الحزب، ومنعه من الحركة، وإبقائه على التكتلات الأولية وقت نشأة الحزب ضـار بحيـاة الحـزب وتطوره الطبيعي وتفاعله مع قياداته وجماهيره، حياة الحزب حياة نشطة متحركة، يخرج من لا ينتمي إليه فكرا وسـلوكا ويدخل من ينتمي إليه عقيدة وعملا. والحزب هـو الانتمـاء

الفكري أولا وقبل كل شيء. قبـل الأحـلاف والتكـتلات، وشراء الخواطر والمجاملات، قد تنقلب بعض المصالح على التكتلات فتنفصل عن الحزب نظرا لأن انتماءها إليه لم يكن بالفكر والعقيدة بل عن قبلية وعلاقات شخصـية، لـم يكـن انتماؤها عن اقتناع بل من أجل إعطاء عدد من الأصـوات لمرشحي الحزب في مقابل الحصول على مناصـب قياديـة فيه. وغالبا ما تنفصل عن الحزب إلى أحزاب أخـرى لمـا تحققه لها من مناصب أكبر ومراكز قـوى أعظـم. وتكتـل سطحي يخرج يأتي بدله تكتل آخر أعمق، وصـوت يفقـده الحزب تعادله أصوات يكسبها الحزب، فحركة الحزب هـي حياته وإلا أصبح مجموعة متراصة من البشـر لا يربطهـا رابط فكـري أو عقائـدي، ولا يربطهـا إلا المصـلحة أو العلاقات الشخصية التي كثيرا ما تتبدل وتتغير، فلندع مائـة زهرة تتفتح ثم تحتكم إلى قواعد الحزب وإلى جماهير الشعب خارج الحزب فنعرف أيها أجدر بالبقـاء والاسـتمرار. وإن فكرة لتأييد الحزب تنتشر بين الناس وتغير أوضاعهم خيـر من آلاف من الكتل المتراصة من أجـل جمـع الأصـوات لمرشحي الحزب، وقد قيل من قبل: ليس على رأسـي تـاج

ولكن في يدي قلم. كما قيل أيضا: أحب أفلاطون ولكن حبي للحق أعظم.

إن كل حركات التقدم في المجتمعات البشرية بدأت في عصور نهضتها، وتعني النهضة القدرة على نقد الموروث وعدم التسليم بشيء على أنه حق إن لم يبد أمام العقل أنه كذلك. حدث هذا في عصر النهضة الأوربية في القرن السادس عشر ثم ازدهر في عقلانية القرن السابع عشر، واكتمل في حركة التنوير في القرن الثامن عشر. وإذا كان نقد المجتمع لا بد وأن يبدأ بنقد الدين كما هو الحال في ماركسية القرن التاسع عشر، وأن الثورة في البلاد النامية لا تبدأ إلا باللاهوت الثوري كما هو الحال في ماركسيات القرن العشرين، كانت مهمة التنوير في حزبنا من أجل بداية عصر نهضة واستمراره، وازدهار للعقلانية وممارسة النقد الاجتماعي. ومن هنا أتت أهمية مناقشة العلاقة بين التنوير الديني والتنظيم السياسي حتى يكون الحزب على بينة من دوره التاريخي على مسار النهضة.

مأساة الأحزاب التقدمية في البلاد المتخلفة*

هذا بحث في الظاهريات الاجتماعية يقوم على تحليل الخبرات الحية للفرد والتي يشاركه فيها آخرون لتصبح تجربة مشتركة يكون وضعها معادلا للموضوعية التقليدية. وهو نوع من التنظير المباشر للواقع دون ما حاجة إلى أدبيات ينقل عنها. فمقياس الصدق فيه ليس أقوال الآخرين أو وثائق ومراجع توضع أسفل الصفحات في الهوامش كغطاء ساتر لتحليلات ذاتية من أجل الإيحاء بالموضوعية ولكنه

* كتبت عناصر هذا المقال خلال عام ١٩٧٨ بعد كتابة (التنوير الديني والتنظيم السياسي) وعدم مناقشته بين قيادات (حزب التجمع) باستثناء بعض الهمهمات، وكان ذلك بمثابة إعلان موقف. بعدها توقفت عن أي نشاط سياسي مباشر كان يمكن أن يكون مستمرا في التعاون بين التيار الديني المستنير والأحزاب التقدمية في مصر. وهذه صياغة ثانية من تلك النقاط الأولى، بعد عشر سنوات، في خريف ١٩٨٧.

مقياس داخلي صرف أي اتفاق كل من عاشوا تجربة العمـل الحزبي في البلاد المتخلفة ثم أوقفوا نشاطهم لأنـه طريـق مسدود طالما أن الأوضاع الحزبية في البلاد المتخلفـة هـي كما هي عليه. ولا توجد هنا إشارة إلى واقع خاص، حـزب معين في بلد معين في موقف معين بالرغم من ضرورة ذلك التعين للتجربة، فلا تجربة إلا في واقـع معـين، وذلـك أن الماهية عامة وشاملة ومستقلة عن حاملها الجزئـي. فعمـوم الماهية حتى ولو بدأت من واقع خـاص يجعلهـا بطبيعتهـا تشمل وقائع كبيرة، ويعطي الوصف قدرة وشـرعية علـى التعميم يجعلنا أقدر فهما لحالات أخرى.

ولا يعني بيان الحدود والقدرات والفاعليـة أي إنكـار للأدوار المرحلية التي تقوم بها الأحزاب التقدمية في الـبلاد المتخلفة. فالممكن عملا غير الممكن نظرا، والمتحقق بالفعل غير المتحقق بالقوة، ومنطق الواقع غير منطق الممكن. ومع ذلك فمن خلال هذه الحدود وبفضلها تنشأ الإمكانيات الجديدة أي التطوير الحزبي لدى أجيال قادمة تسـتفيد مـن مآسـي الأحزاب التقدمية السابقة وتتعلم من أخطائها. كما لا تعنـي هذه الحدود للأجيال الحالية الكف عن أي نشاط حزبـي وإلا

لم يوجد الواقع انتظارا للممكن ولوقعنا في (الطفولة اليسارية) وفي المزايدة على العمل السياسي. ولكنه يعني فقط المعرفة المسبقة بحدود العمل الحزبي الحالي وعدم انتظـار الكثيـر منه، والعمل فيه بحساب، وتوجيه معظـم النشـاط الحـالي للإعداد للمرحلة المقبلة، فقد تجـرف الأحـداث التنظيمـات الحزبية الحالية أو يتم تفتيتها من الداخل وإعـادة تنظيمهـا بحيث تكون أقدر على التطور والنماء.

ودون ذكر وقائع أو أسماء تتركـز مأسـاة الأحـزاب التقدمية في البلاد النامية في عدة نقاط رئيسية تـدور حـول عدة محاور منها علاقتها بالتراث أو الثقافة، انعـزالا عـن التراث القديم ووقوعا في التغريب، وانعزالها عـن الواقـع بغياب إحصائيات كمية عنه أو تنظير مباشر لـه، ونقـص الوعي بالمرحلة التاريخية التي يمر بهـا المجتمـع إهمـالا للتدرج ودور الأجيال في كل مرحلة أو القيام بأدوار ماضية تمت من قبل أو أدوار قادمة لم تحن بعد، وسلوك القيـادات في مجتمع القيادة فيها نموذج يحتذى سواء كان ذلـك مـن الناحية الفردية وتسلط فئات على أخرى دون الولاء للمبادئ العامة للجبهة الوطنية وللحوار الـوطني، وسـيادة القوالـب

الذهنية التقليدية في العمل السياسي مع تغلب الممارسات البيروقراطية داخل الحزب، وأخيرا الدخول في صدام مع السلطة القامة والنزاع معها على كرسي الحكم ما دام التغيير الاجتماعي لا يتم إلا بالسلطة السياسية ودون تعبئة الجماهير تحمل الحزب على الأعناق لتضعه في مركز السلطة في انتخابات ديمقراطية حرة. ويمكن تفصيل ذلك على النحو الآتي:

١ - الانعزال عن تراث الأمة:

في المجتمعات المتخلفة، ما زال تراث الأمة هو مكونها الأساسي في الثقافة والمزاج الشعبي والشخصية القومية، يعطيها تصوراتها للعالم وأنماطها في السلوك، وهو تراث تمتد جذوره إلى آلاف الأعوام، الكونفوشوسية في الصين، والهندوكية في الهند، والبوذية في فيتنام وكامل الهند الصينية، والإسلام في المنطقة الإسلامية، والمسيحية في أمريكا اللاتينية، وفي أفريقيا الإسلام والمسيحية والديانات الأفريقية. وهو تراث شعبي، رصيد الثقافة الجماهيرية، ليس في حاجة إلى تعليم أو تثقيف من خلال المدارس والجامعات. تتناقله الوسائل الشفاهية، أبا عن جد، وابنا عن أب، تتوارثه

الأجيال، ويصبح مرادفا لحكمة الشعوب. تتزاوج معه الأمثال العامية وسير الأبطال، ويمتزج كلاهما في الـدين الشـعبي الذي يجمع بين الرافد الديني والرافد الـدنيوي فـي الثقافـة الشعبية.

ولما كان ما يستقر في الأذهان، وما يترسب في الوعي القومي، وما يستمر في الثقافة الشعبية هو التقليدية والمحافظة والتي هي أحد أسباب التخلـف فـي الأبنيـة الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسية كان مـن السـهل السـيطرة علـى الجماهير أو تحريكها اعتمادا على هذا الموروث القديم الذي ما زال سلطة شرعية تأتمر الناس بها. لذلك سهل على النظم السياسية المحافظة الاستمرار في الحكم نظرا لأن لها رصيدا موازيا في الثقافة الشعبية يضمن لها طاعة الجمـاهير. يمـد الموروث القديم النظام السياسـي المحـافظ بأيـديولوجيتين: أيديولوجية السلطة التي تعتمد على فكرة القـوة والسـلطان والإرادة المطلقة مرة في نسق العقائد كما هـو الحـال فـي الأشعرية، ومرة في نسق المذاهب السياسية كما هو الحـال في حكم الفرد المطلق. وما أسهل بعد ذلـك مـن زحزحـة محور العقائد وهو (الله) ليحل محله (السلطان) مـا دامـت

الجماهير قد استعدت نفسيا وثقافيا لقبول السلطة، أيا كانت، والسمع والطاعة لها.

ومهما كانت هناك من أشكال ليبرالية للحكم: دستور يعطي الحريات العامة للناس، نظام برلماني يقوم على تعدد الأحزاب، صحافة حرة، قضاء قوي، تعليم مجاني، إلا أن احتمالات التغير الاجتماعي الجذري تكون محدودة للغاية نظرا لأن الراسب الثقافي العام ما زالت تغلب عليه المحافظة التقليدية الموروثة. ولو أتى نظام ثوري بانقلاب عسكري وقام بأكثر القرارات السياسية ثورية بغية إحداث تغير اجتماعي جذري مثل الإصلاح الزراعي، التصنيع، سيطرة الشعب على الوسائل العامة للإنتاج من خلال القطاع العام، مجانية التعليم، حقوق العمال، الاستقلال الوطني، الوحدة العربية، عدم الانحياز فإنها سرعان ما تنقلب إلى الضد بمجرد غياب القيادة الثورية التي كانت نتوءا بارزا في جو من المحافظة العامة. ومهما كانت هناك من جماعات دينية محافظة تقليدية شعائرية عقائدية، شكلية صورية وربما خاوية من أي برنامج وطني اجتماعي وسياسي فإنها قد تلاقي الترحيب والقبول في أوساط الشعب، وتكون لها شعبية

وحضور أكثر من القيادة الثورية والأحزاب التقدمية، وذلك لأن هذه الجماعات إنما تنبت نبتا طبيعيا في أرض من المحافظة والتقليد، ومهما كانت هناك من أيديولوجيات علمانية للتحديث، ثورية أو إصلاحية فإنها تظل محاصرة وسط هذا المحيط العام من الثقافة القديمة. وماذا تستطيع الأقلية التقدمية أن تفعل أمام الأغلبية المحافظة، فكرا وقيادة؟ هذا هو الخلاف بين القادة والجماهير فيما يتعلق بالأيديولوجية السياسية، الأولى علمانية تقدمية والثانية دينية محافظة. وما كان أسهل أن تقوم الأحزاب التقدمية بمعاركها الثقافية قبل معاركها السياسية وأن تخفف من ثقل المحافظة والتقليد في الثقافة الشعبية حتى تفك إسار الجماهير وتزيح عنها معوقات حركتها حتى تعطي فرصة أكبر للتقدم بسهولة ويسر فيصبح للثقافة التقدمية التي لم تزد عن ثلاثمائة عام في تاريخنا القديم – من القرن الثاني حتى القرن الرابع الهجري – حضور في وعينا القومي مثل حضور الثقافة التقليدية التي ترسو فيه منذ أكثر من ألف عام من القرن الخامس حتى القرن الرابع عشر الهجري. وما دام وعينا القومي ما زال أعرجا، ساق طويلة في المحافظة والتقليد، وساق قصيرة في التقدمية العلمانية،

فإن سياساتنا ستنجرف باستمرار نحو الساق الطويلة. ولمـا كانت السياسة المحافظة باستمرار موالية للغرب فإن سياستنا ستنجرف باستمرار غربا. إن مهمة الأحزاب التقدمية الحالية ليست في مزيد من التقدمية العلمانية المحاصرة، بل في قليل من المحافظة والتقليد حتى يتم فسح المجـال للتقدميـة كـي تنتشر بسهولة ويسر. مهمتنا سلبية صرفة في نقد المحافظـة حتى يخف ثقلها في وعينا القومي فينشأ التحرر تلقائيـا. إن الجدل المطلوب هو جدل السلب وليس اليوتوبيا، النقد وليس الوضع، نقد الموروث القديم وليس إضـافة العلمـاني فـي الجديد، هدم الأساس القديم ووضع الأساس الجديد كي يبنـي من يشاء، وليس البناء الجديد فوق أساس قديم وإلا سـرعان ما ينهار[1].

---

[1] انظر دراساتنا السابقة عن (التراث والعمل السياسي، التراث والتغيـر الاجتماعي، التراث والنهضة الحضارية) في (دراسات فلسفية)، الأنجلو المصرية، وأيضا: (من التراث إلى التحرر)، (الضـباط الأحـرار أم المفكرون الأحرار؟) (الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديمقراطية في وجداننا المعاصر) في (الدين والثورة فـي مصـر ١٩٥٢ – ١٩٨١)، الجزء الأول (الدين والثقافة الوطنية) (نشأة الاتجاهات المحافظة فـي

٢- الاستغراب والتقليد:

وإذا ما انعزلت الأحزاب التقدمية في البلاد المتخلفة عن تراث الأمة فإنها تقع لا محالة في التغريب، إذا ما انعزلـت عن ثقافة الأنا فإنها تقع فريسة لثقافـة الآخـر. وإذا كانـت الأغلبية هي صاحبة تراث الأمة والواقعة تحت تأثيرها فـإن الأقلية هي صاحبة الثقافة الغربية والمروجة لها. ولما كانت الأغلبية هم المحكومون والأقلية هي الحاكمة أصبح الصراع بين تراث الأغلبية وثقافـة الأقليـة يمثـل الصـراع بـين المحكومين والحاكمين، بين جماهير الشعب والسلطة السياسة حتى أصبح من الصعب التمييز بين العداء الثقافي والعـداء السياسي.

وقد تعلمت هذه الأقلية في الغرب إمـا ذهابـا إليـه أو استقبالا لثقافته من خلال الترجمات، فقد تعلم معظم مؤسسي الأحزاب التقدمية أو جلهم فـي الغـرب سـواء الأحـزاب الليبرالية أو القومية أو الماركسية، بل إن البعض منها كانوا

وطننا العربي الراهن)، المصدر السابق، الجزء الثاني، الدين والتحرر الثقافي، وأيضا:

Des ldeologie modernists a l'lslam revolutonnaire, peoples mediterraneens, no: ٢١ PP> ٣-١٤. paris. ١٩٨٢

أجانب، يهودا أو نصارى لا يمثلون التيار الرئيسي في الثقافة الوطنية في البلاد، وكان البعض منهم خريجي المدارس الأجنبية وإرساليات التبشير خاصة في الشام، وهو الموطن التقليدي للثقافات الوافدة منذ مدارس حران ونصيبين والرها والتي حملت لواء الترجمة عن اليونانية في تراثنا القديم وهذا لا يمنع من كون كلا الفريقين، القدماء والمحدثين، وطنيين ذوي ثقافة مزدوجة محلية ووافدة، محلية اللغة ووافدة الفكر بصرف النظر عن نسبة الولاء لأي من الطرفين، ومما لا شك فيه أن انتشار الثقافة الغربية كطبقة سطحية خارجية على الثقافة الموروثة في البلاد إنما كان جزءا من الغزو الثقافي والهيمنة الثقافية للغرب بصرف النظر عن مدى نجاح هذه الحملة ومدى مقاومتها، وبالرغم من محاولات عدة لتكييف الأيديولوجيات الغربية طبقا للظروف المحلية لعمل ماركسية عربية أو ليبرالية مصرية أو قومية عربية إلا أنها ظلت في الأساس النظري غربية مع تغير طفيف في أساليب الممارسة وبعض التبريرات الدعائية اعتمادا على الموروث القديم اكتشافا لجذور الماركسية أو الليبرالية أو القومية. ثم تناحرت هذه الأيديولوجيات فيما بينها واشتد العداء بين

الليبرالية والماركسية وكلاهما عربيتان. ثم اشتد العداء بـين القومية العربية وبين الأيديولوجيتين العـربيتين السـابقتين، حربا مستمرا بين الأخوة الأعداء، ثم تكاتف الكل على معاداة الموروث الثقافي القديم كمنافس شرعي قادر علـى تجنيـد الجماهير والقضاء على السلطة الحاكمة، لا فرق في ذلك بين ليبرالية وماركسية وقومية كلها غربية قلت أو كثرت، افتقدت الحوار الوطني بينها، وكفرت بعضها بعضا، وانقسمت شيعا وأحزابا وتنافست على الحكم، فضعفت الثقة فيهـا، وقـوي رصيد الموروث القديم في الوعي القومي، وأصبح جـاهزا ومستعدا لقبول أي تنظيم تقليدي محافظ يعبر عنه، ويحـافظ عليه، وينقذه من الحرب الأهلية بين الأحزاب التقدمية، بل إن البعض منها وجدت في الشرق أو الغرب حليفا له ضد إخوته الأعداء مما جعله يبتعد أكثر وأكثر عـن الثقافـة الوطنيـة، والسياسة الوطنية، والاستقلال الوطني.

والحقيقة أن كل ذلك هو إدخال ثقافتنا الوطنية الحاليـة برافديها في الموروث القديم والأمثال العاميـة بـل إدخـال سياساتنا وواقعنا وتحدياتنا في ثقافات وسياسـات وتحـديات لسنا طرفا فيها. فالثقافة الغربية إنما وليدة ظـروف خاصـة

وتياراتها السياسية إنما نشأت أيضا من هذه الظروف وعلى أساس هذه الثقافة، فالرأسمالية تطبيق اجتماعي وسياسي واقتصادي للفردية أو الليبرالية الأوربية. والاشتراكية تطبيق للمذاهب الجماعية الألمانية في ظروف نشأة المجتمع الصناعي في القرن التاسع عشر الأوربي. والقومية نشأت أيضا في نفس القرن بعد انهيار الإمبراطوريات الكارولنجية ثم النمسوية، وتوحيد ألمانيا وإيطاليا، وانحسار الثورة الفرنسية وتحطم فلسفة التنوير على حدود القوميات، وعزلة الجزر البريطانية، ونشأت القوميات افتعالا في العالم الجديد، في أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، ولم تحل مشاكل كندا في ازدواجية اللغة والثقافة، ولا مشاكل الولايات المتحدة في تنافر القوميات المهاجرة والعنصرية، ولا مشاكل أمريكا اللاتينية المرتبطة فيما بينها باللغة والثقافة ولكن جزأها الاستعمار ليسهل ابتلاعها بين إسبانيا والبرتغال والولايات المتحدة، ولا مشاكل الاتحاد السوفيتي وتنافر القوميات فيه، ولا مشاكل الهند ومحاولات استغلال بعض القوميات فيها، ولا مشاكل أمتنا التي صعب إيجاد تسمية لها وتشتتها بين ضفتي الإسلامية والعربية والقطرية، وبزوغ الطائفية

والأقليات كداء دفين لم تحله الثقافة التقليدية والموروث القديم ولا الثقافة القومية والقومية العربية البديلة ولا حتى الدولـة الوطنية التي ورثناها بعد حركات التحرر الوطني ضد الاستعمار إثر انهزام دولة الخلافة[٢].

٢- غياب الواقع الإحصائي.

ونظرا لأن الأيديولوجيات التقدميـة منطلقهـا نظـري صرف ترى خـلاص الواقـع ومآسـيه فـي الليبراليـة أو الماركسية أو القومية كاعتقاد مسبق وعقيدة إلهية فإنهـا لـم تكن في حاجة إلى إحصائيات عن تكوين الواقع ذاته، توزيع الداخل، ملكية الأرض، أجور العمال، الدخل القومي، وسائل الإنتاج، التركيب الطبقـي، الـوعي الاجتمـاعي، الثقافـة الوطنية.. الخ، واهتمت بنشر النظريات المذاهب السياسية في تاريخ الاشتراكية وأنواعها من طوباوية وأخلاقيـة وعلميـة وفي مآثر الليبرالية وما ينتج عنه من نظم للحكم كما حـدث

---

[٢] انظر دراستنا (التمايز والتكامل بين القومية العربيـة والإسـلام) فـي (الدين والثورة في مصر ١٩٥٢ – ١٩٨١)، الجـزء الثالـث: الـدين والنضال الوطني.

في أوربا وفي تاريخ القوميات وكيف أنها كانت وراء تكوين الدول الأوربية الحديثة مثل ألمانيا وإيطاليا. وذلك كله يدور في إطار نقل العلم، ونقل التكنولوجيا، ونقل المعلومات، ونقل الثقافة، ونقل المذاهب السياسية وكأنه من الممكن تحقيق الاستقلال الوطني عن طريق التبعية الثقافية، كان الولاء للنظريات لا للواقع، وللدفاع عن المذهب لا عن مصالح الناس، وساعد على ذلك الدعوة للمذاهب السياسية في حضارة تراثية نصية ترى أن الأصل هو النص والفرع هو الواقع، تستنبط الواقع من النص ولا تستقرئ النص من الواقع. ولم يعد هناك فرق بين من يرفع شعار الحرية والديمقراطية أو شعار الاشتراكية والعدالة الاجتماعية أو شعار القومية والوطنية وبين من يرفع شعار الدولة الإسلامية والحاكمية لله. لا فرق بين من يقول قال ماركس أو سان سيمون وبين من يقول قال الله وقال الرسول، قولا بقول، ونصا بنص، ونظرية بنظرية، ومذهبا بمذهب. وفي كلتا الحالتين الواقع هو الخاسر لأنه ساقط غائب، هنا وهناك.

وتحدث المأساة عندما يقدر لأحد التيارات الوصول إلى السلطة، ولا يدر ماذا يفعل بها. فالواقع لا يتغير بالشعارات

بل بالتحليلات الإحصائية والوصف الكمي لمكوناته وأبنيتـه. على أقصى تقدير يمكن للشعارات أن تعبئ الجماهير وتحرك السواكن. ولكن حتى في هذه الحالة تكون تعبئة وقتية تـزول بمجرد أن يزول أثرها، ولا تقوم على وعي سياسي بـالواقع ولا تهدف إلى تحقيق برنـامج وطنـي، ولا يكـون أحـد الشعارات أكثر شرعية وجدارة من شعار آخر، الكل صراخ مذهبي، ولا أحد يسمع صراخ الواقع من خلال إحصـائياته التي تكشف عن مكوناته وأبنيته. وإذا سمح ذلك في الليبرالية باعتبارها دعوى عامة لحقوق الإنسان، وللقومية باعتبارهـا تربية وطنية للنشء، فإنـه يصـبح غيـر مفهـوم بالنسـبة للماركسية وهي نظرة مادية تقوم على تحليل الواقع المـادي وتعرف الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية التـي تكون واقع الأمة. وهنا يبدو أصول الفقه القديم أكثر ماديـة من الماديين المحدثين باسم الإسلام عندما يحلل العلل المادية المؤثرة أو المناسبة والملائمة التي تتحكم في السلوك البشري والتي هي علة التشريع والأحكام من أجـل القيـام بالقيـاس الشرعي، تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع لتشابه بينهما في العلة، ولكن يبـدو أن التخلـف والمحافظـة اللـذين وراء

الشعارات العلمانية والدينية لا تفرقان بين موروث قديم ووافد معاصر، فهما شائعان حتى في أشد الأيديولوجيات العلمانيـة تشدقا بالمادية.

٤ – غياب المراحل التاريخية:

ولا تختلف الأحزاب التقدمية فيما بينها في القفز علـى المراحل ورغبة كل منها في تحقيق أيديولجيتها مرة واحـدة، بضربة واحدة، وفي مرحلة واحدة، فالليبرالية تريد أن تنقـل المجتمع من المحافظة إلى التحرر في جيل واحد، والقوميـة تريد أن توحد الأمة التي تجزأت منذ مائة عـام فـي جيـل واحد، والماركسية تريد أن تنقل المجتمع من الإقطـاع إلـى الاشتراكية العلمية في جيل واحد وبحزب واحد، وبنفس القادة الذين تربوا في العهدين، وبنفس الأطر السياسـية. وتكـون النتيجة باستمرار خطوة إلى أمام وخطوتـان إلـى الخلـف، والبداية المستمرة من الصفر، وعدم وجود تـراكم تـاريخي كاف لرصيد من الخبرات يعطيه الجيل القديم إلـى الجيـل الجديد، وكانت النتيجة أنه لم تتحقق خطوة واحـدة مـن أي مشروع قومي بل زادت المخاسر وترجعت المواقف الأولى

واشتد الواقع تخلفا: احتلال مزيد من الأراضي، زيادة القهر، اتساع الهوة بين الفقراء والأغنيـاء، مزيـد مـن التجزئـة والطائفية، مزيد من التغريب، لامبالاة الجماهير بما يحـدث حتى ولو دخل العدو جحر دورهم وعواصمهم كما حدث في بيروت. والعجيب إننا نحارب عدوا يحتـل الأرض ويبغـي المزيد، يتوسع يوما بعد يوم، ولديه خطة منذ ما يقرب المائة عام أو تزيد إلى الثلاثة آلاف سنة للاستيطان في فلسـطين، جيلا بعد جيل، ابتداء من مزارع الاستيطان إلى مستعمرات إلى أحزمة قرى إلى مدن إلى قطاعات إلى ابتلاع فلسـطين كلها وما حولها في لبنان وسوريا والأردن ومصـر. وتمتـد ذراع العدو الطويلة إلى كراتشي وطنجة، كل جيـل يسـلم الأمانة إلى جيل قادم ليكون لديه دوره في التوسع والغـزو، أما نحن، فشعاراتنا منذ مائة عام لم تتغير جيلا بعـد جيـل، مقاومة الاستعمار والإقطاع والقهر والتخاف والتجزئـة ولا مبالاة الناس. وربما تظل كذلك لعدة أجيال قادمة.

ولا فرق في ذلك بين أحزاب تقدمية وأحزاب محافظة، فالأحزاب التقدمية ليبرالية أو قومية أو ماركسـية تريـد أن تنقل المجتمع إلى مرحلة قادمة فتقفز على الحاضر كله دون

أن تحدد مراحل يتم الانتقال فيها من المحافظة إلى التحـرر، ومن التجزئة إلى الوحدة، ومن الإقطـاع إلـى الاشـتراكية العلمية. وكذلك تريد الأحزاب المحافظة العودة إلى مراحـل ولت وانتهت ترى فيها الخلاص، لا يصلح هذه الأمة إلا مـا صلح به أولها. وهي أيضا تقفز على الحاضر دون أن تحدد مراحل العودة واتجاهها وهو أساس التشـريع فـي النسـخ والتدرج المرحلي طبقا للأهلية والقدرات، إن أزمة الـوعي السياسي في الأحزاب التقدمية هو أنه لا يقوم علـى وعـي تاريخي ومن ثم كان قصير النظر، محـدود الأفـق ضـيق الصدر مثل الوعي السياسي الأمريكي، والعجيب أن يتم ذلك لدى شعوب تاريخية تفخر بأن حضارتها تمتد جذورها إلـى ما وراء الألف عام!

٥- غياب الجبهة الوطنية.

ونظرا للتنافس الشديد بين الأحزاب التقدمية فيما بينهـا على السلطة، كل منها يقدم نفسه على أنه طريق الخلاص في حين أن الباقي طريق الهلاك، فلا خلاص للقهر والطغيان إلا بالليبراليـة، ولا قضـاء علـى الإقطـاع والرأسـمالية إلا بالاشتراكية العلميـة أي الماركسـية، ولا نهايـة للتجزئـة

والتشرذم والتشتت والطائفية وحروب الأقليات إلا بالقومية، كل منها له تفسير أحادي الطرف للتاريخ، يفسر الظواهر بعلة واحدة، كل مذهب هو الوطني في مقابل المذاهب الأخرى الأقل وطنية والأكثر تبعية لهذا المعسكر أو ذاك، وكأن الدار ليس له صاحب، وكل مذهب يدعي أنه صاحبه. وفجأة يظهر صاحب الدار الموروث القديم بتنظيماته الدينية تشكك في كل المذاهب وترفضها كلها، ولا ترضى إلا بالحاكمية لله، طرفا بطرف، أحادية بأحادية. ثم نصرخ: انقذونا من الجماعات!

ما أسهل الاتفاق على برنامج عمل وطني موحد تكون الأولوية فيه لتحديات الواقع ومتطلبات العصر ولحاجات الأمة ومصالح الجماهير، ثم السماح بأكبر قدر من تعدد الأطر النظرية والمداخل الفلسفية والمذاهب السياسية. يمكن تحرير الأرض في فلسطين باسم حرية شعب فلسطين كما تبغي الليبرالية، وباسم الطبقة العاملة كما تريد الماركسية، وباسم القومية العربية كما تريد القومية، ويمكن القضاء على كل صنوف القهر والطغيان باسم الليبرالية. وباسم حرية الشعب في الماركسية، وباسم حرية الأمة في القومية. ويمكن

تحقيق أكبر قدر ممكن من العدالة الاجتماعية باسم الاشتراكية كما تبغي الماركسية، وباسم الضرائب التصاعدية كما تبغي الليبرالية، وباسم المساواة في القومية وشعاراتها في الحرية والاشتراكية والوحدة. ويمكن توحيد الأمة باسم وحدة البروليتارليا العالمية كما تبغي الماركسية، وباسم وحدة التاريخ المشترك والأهداف المشتركة كما تبغي القومية، وباسم وحدة المصالح كما تبغي الليبرالية وما تتضمنه من نشاط تجاري حر. ويكون الدفاع عن الهوية ضد التغريب باسم الثقافة الوطنية كما هو الحال في الماركسية، وباسم التراث القومي كما تريد الماركسية، وباسم تنمية الموارد كما هو الحال في الليبرالية. ويمكن مواجهة التخلف باسم التخطيط القومي كما تبغي الاشتراكية العربية، وباسم سيطرة الشعب على وسائل الإنتاج كما تريد الماركسية، وباسم تنمية الموارد كما هو الحال في الليبرالية والاقتصاد الحر. ويمكن أخيرا تعبئة الجماهير باسم البروليتاريا ووحدة الطبقة العاملة مثل الماركسية، وباسم جماهير الشعب العربي في القومية، وباسم الحريات العامة كما هو الحال في الليبرالية. ويقوي

ذلك في نفوس الجميع حديث الفرقة الناجية، أن الحـق مـع فرقة واحدة، وكل فرق الأمة هالكة في ضلال.(٣)

٦- التخلف الثقافي:

وبالرغم من أهمية الموروث الثقافي في البلاد الناميـة نظرا لأنه مكونها الروحي الوحيد بما في ذلـك المـوروث الديني بعد امتزاجه بالأمثال العامية وبالفنون الشـعبية فـإن الأحزاب التقدمية غالبا ما تنسى هذا الموروث الثقـافي ولا تبدأ به باسم التقدمية والعلمانية والتحديث، فالماركسية مثلا ما زالت تعتبر الدين مثل الثقافة والفن وسائر النشـاط الـذهني الإنساني أبنية فوقيـة تعبـر عـن الظـروف الاجتماعيـة والاقتصادية لشعب ما في لحظة تاريخيـة معينـة. يمكـن تغييرها بتغير ملكية وسائل الإنتاج، من الملكية الخاصة إلى الملكية العامة، وبنقل نمط الإنتاج من الزراعة إلى الصناعة،

---

(٣) أنظر دراساتنا السابقة (ماذا يعني اليسار الإسـلامي؟) (حـوار حـول الوحدة الوطنية)، (دعوة إلى الحوار)، (ضرورة الحوار)، (الشـعارات الدينية والتفسير بالمضمون).

بهذا التحول تتغير الثقافة آليا وتنشأ مفاهيم أخـرى للزمـان والعمل والإنسان والعلاقات الاجتماعية أكثر تطورا وحداثة. والليبرالية تدافع عـن الحريـات دون أن تـدرك الجـذور التاريخية لأزمة الديمقراطية والحرية في وجداننا المعاصـر التي أدت إلى سلب الإنسان قدرته وحرمانه مـن مبادرتـه واستسلامه لقوة مسيطرة وقدرة قاهرية باسم الإيمان، فـدافع عن حق الآخر، ونسي حقه. والقومية تريد أن تؤسس وحـدة على أساس القوم والاشتراك في اللغة والتـاريخ والعـادات والثقافة المشتركة في مجتمع يغلب عليه فكر الأمة والفكـر الأممي، وأنه يمكن توحيد الناس بناء علـى الأيـديولوجيات العامة والعقائد الشاملة مثل التوحيد بصرف النظر عن العرق واللغة ولون البشرة والعادات. إن كل الأحزاب التقدمية تبغي إقامة تنمية مستغلة في ثقافة غاب عنها مفهـوم الاسـتقلال الذاتي والاعتماد على الذات نظرا لاعتماد العالم والإنسـان وكل شيء على علة خارجية فعالة مصدر كل شيء، تفعـل في كل شيء وإليها يعود كل شيء، كلهـا تريـد أن تجعـل للإنسان وللأمة دورا في التاريخ وأن تدفعها نحو التقدم ومـا زالت الروح موضوعة بين الأعلى والأدنى وليس بين الإمام

والخلاف، وما زالت تصورات الناس للعالم رأسية وليست أفقية وبالتالي يستحيل التقدم نظرا لأن مفهوم التقدم نفسه لا تتوافر شروطه النفسية أو أسسه الثقافية، تريد كلها مواجهة قضية التفاوت الشديد بين الفقراء والأغنياء، وتحاول تذويب الفوارق بين الطبقات في ثقافة تقوم على التصور الهرمي للعالم وأنه كلما صعدنا إلى أعلى وصلنا إلى مراتب الشرف والكمال، وكلما نزلنا إلى أسفل وصلنا إلى مراتب الخسة والنقص! كلها تدافع عن العقلانية وتحارب الجهل ولكن في ثقافة ما زالت المعارف المسبقة هي مصدر العلم، وما زال الإلهام فيها معرفة يقينية ينتظرها الجميع من النبي المرسل أو القائد الملهم. وكلها تدعو إلى العمل والنشاط والجهد في ثقافة تعطي الأولوية للقول على العمل وللإيمان على الفعل. فكل من قال (لا إله إلا الله) أصبح عضوا في الأمة حتى ولو أضمر الكفر وحتى لو كان فعله غير مطابق لقوله. إن كل مآسي الحاضر في القهر والظلم الاجتماعي لا ترجع فقط للقوانين المقيدة للحريات، قانون الاشتباه، وقوانين الطوارئ، وقانون القيم، والأحكام العرفية، وقوانين الانفتاح، بل تمتد جذورها إلى ما وراء ذلك بكثير، إلى أعماق التاريخ

المترسب في وعينا القومي، فالحزب التقدمي ثقافة قبـل أن يكون سياسة. وإن اقتصر على السياسة فإنه يكون متخلفا عن الواقع، ويكون الواقع أكثر تقدما منه.[٤]

٧- البيروقراطية.

ومثل انعزال الأحزاب التقدمية في البلاد المتخلفة عـن الموروث الثقافي القديم فإنها أيضا منعزلة عن جماهير الأمة. يقتصر نشاطها في مقار الأحزاب وفي مساكن مفروشة فـي أوساط المدن الكبرى. ولا يخـرج نشـاطها عـن نـدوة أو محاضرة أو لقاء أو اجتماع لجنة. وقد يتحول هـذا النشـاط المغلق بين جدران أربعة إلى نشـاط موسـع داخـل مقـار الأحزاب وفي الشوارع المجاورة أو في صواوين خيرية في المناسبات الدينية والأعياد الوطنية، أما المسـيرات الشـعبية

---

[٤] أنظر محاولاتنا لإعاد بناء الثقافة الوطنية في (في الثقافـة الوطنيـة)، (مخاطر في فكرنا القومي)، (مخاطر في سلوكنا القومي)، (مخاطر في وجداننا القومي)، (المقومات الثقافية للشخصية العربية) (المسـئوليات الراهنة للثقافة العربية)، (الفلسفة كمشروع قومي) فـي الجـزء الأول، الدين والثقافة الوطنية.

والمظاهرات السلمية التي تضم الآلاف، تطالب بشيء أو تعترض على شيء فانه سرعان ما يتم إلغاؤها إذا أصدرت السلطة السياسية الأوامر لها بذلك خشية الصدام. لذلك لم تشعر الجماهير بها، وظلت مجرد حلقات فكرية وصالونات أدبية ومنتديات ثقافية كما كان الحال في أوائل القرن منذ نشوء الأحزاب التقدمية الأولى. ويتركز معظم النشاط الحزبي في أعمال اللجان داخل الحجرات لمناقشة قضايا الوطن أو مسئوليات التنظيم لا تدري عنها الجماهير شيئا. وفي اللحظات الحاسمة يتجاوز رجل الشارع التنظيمات النقابية والأحزاب السياسية ويكون هو الجمهور والمعلم والقائد[5]. أصبح العمل السياسي أن يقول كل مثقف ما يعرفه للمثقف الآخر الذي يعرف سلفا ما سيقال له. فانغلقت دائرة الحوار داخل الأحزاب. وما أكثر الأوراق والتقارير واللجان والخطاب والتعليمات. وعلى الرغم من صعوبة انتخابات حرة في مجتمعات تسلطية ونظم سياسية قهرية، وعلى الرغم من التزوير والقمع واحتكار الدعاية الانتخابية من الحزب

---

[5] انظر مقالنا (تحية إلى رجل الشارع)، (الدين والثورة في مصر ١٩٥٢ – ١٩٨١)، الجزء الرابع، الدين والتنمية القومية.

الحاكم إلا أن الذي يفلت من الحصار هو من يمثل الموروث القديم أو الليبرالية التي حن إليها الناس بعد طول القهر. أما الماركسية والقومية فلا تنال شيئا لأن كليهما لا رصيد له في الموروث الثقافي الشعبي. إن الجماهير مستعدة للموت والشهادة أكثر ما تكون باسم الدين وليس باسم الليبرالية أو القومية أو الماركسية. والتنظيمات الشعبية الدينية جاهزة: المساجد والزوايا والموالد والطرق الصوفية ودروس العصر. والكوادر السياسية جاهزة ممثلة في الأئمة والوعاظ والفقهاء وعلماء الأمة. والأيديولوجية السياسية جاهزة ممثلة في تراث الأمة وثقافتها الدينية التي تجعل المصلحة أساس الشرع، فإن ما رآه المسلمون حسن فهو عند الله حسن. إن تلقائية الجماهير خير ألف مرة من تنظيمات الحزب من القواعد إلى القمة التي تنتهي إلى أن تكون أوامر من القمة إلى القواعد.

٨- الشللية.

ولكي تحيا البيروقراطية ويكون لها جهازها العصبي الذي يبقي على شكلها في حده الأقصى تظهر الشللية التي تكونت على مدى صداقات العمر منذ الخلايا الأولى أيام

الدراسة وزمالة السجون والجمعيات التأسيسـية للأحـزاب وأخيرا لجان الحزب. فهي شللية تاريخية في مجتمع تسـوده القبيلة وروح العشيرة أكثر من روح المبادئ العامة. وتمثـل الشللية جماعات ضاغطة على الحزب تسيره في اتجـاه دون آخر ولإصدار قرار يأخذ جانبا دون آخر بصرف النظر عن المبادئ العامة للحزب وبصرف النظر عـن آراء القواعـد وظنون الناس، تظهر الشللية في اللجان السياسية والاقتصادية وفي الأمانات العامة واللجان المركزية. كما تظهر في جرائد الأحزاب حيث تسيطر مجموعـات خاصـة علـى كامـل الصفحات وتحتكر العمل الصحفي كما تحتكر الـرأي فـي مسائل الحرب والسلام والتنمية والتخلف، والوحدة والتجزئة، والأدب والفن. ومن طول الاحتكار تتكرر الأفكار، يعلمهـا القارئ مسبقا، وبالتالي لا تفترق عن الجرائد الحكومية التـي يعلم القارئ مضمونها دون أن يقرؤها. لذلك غلب على كثير من قرارات الأحزاب المجاملات علـى حسـاب المبـادئ، وشراء الخواطر على حساب المواقف، والمساومات المتبادلة على المصلحة العامة. وكان من جراء ذلك أن انعزل بعض الأفراد الذين لا شلل لهم والذين لا يستطيعون تكـوين شـلة

مناوئة حرصا على المبادئ العامة للحزب وللحوار المثمـر الخصب بين كافة الاتجاهات فيه. جمدوا نشاطهم، وابتعـدوا عن صراعات الجماعات الضاغطة فخسر الحزب جزءا من إمكانياته، وأصيب بالهزال، وأصبحت التجزئة ضاربة فـي أحزاب الوحدة، والطائفية السياسية نـاخرة فـي الأحـزاب القومية وصراعات القوى ومحاولات السيطرة مـن إحـداها على الأخرى في الأحزاب الليبرالية. وانتقل الصراع الطبقي من خارج الأحزاب إلى داخلها وأصبح صراعا بين الشـلل داخل الأحزاب في الأحزاب التقدمية.

٩- الانتهازية.

ولما كانت معظم الأحزاب التقدمية في الـبلاد الناميـة تتكون من الطبقات المتوسطة وكـان العيـب الـدفين فيهـا الانتهازية، التكسب على حساب الطبقات الكادحـة والتطلـع الطبقي لمنافسة الطبقات العليا. ظهرت الانتهازية كداء دفين في الأحزاب التقدمية، فالجماعات والأفـراد تقدميـة ولكـن بحساب دون أن تضحي بمصالحها الخاصة من أجل الصالح العام. نقصتها قيم التضحية والعطاء. ولم تختلف الأحـزاب التقدمية في المعارضة عن أحزاب الحكومة فـي السـلطة.

فالانتهازية طابع عام في السلوك القومي لنقص في الطهـارة الثورية. وقد يصل الأمر إلى حد إضرار البعض بـالبعض الآخر داخل الحزب الواحد بالرغم من مظـاهر التضـامن والتآلف والتناصر. وانتشرت الأنانية وأصبحت أحد المصادر الرئيسية للانتهازية. ولا يختلف في ذلك قيادات الحزب العليا عن كوادره المتوسطة. البعض يطلب الشهرة فيتصدر العمل الحزبي بصوره ومقالاته، والبعض الآخر يطلـب السـلطة فيسعى إلى المطالبة بالجبهة الوطنية والتحالف مع الحـزب الحاكم، وفريق ثالث يترك صفوف الأحزاب التقدمية التي في المعارضة وينضم إلى الحزب الحاكم عسى أن ينال منصـبا أو يتقلد وزارة مادام الحزب التقدمي طريقا مسدودا، وقد ينال الحظوة وقد لا ينال. فالطالبون لذلك كثيـرون مـن داخـل الحزب الحاكم ومن المتطلعين إليه من الفارين من أحـزاب المعارضة، ويكثر المتزلفون داخل الحزب لهـذا الفريـق أو ذاك طمعا في منصب أعلى، ويشتد الصراع من تحت المائدة ومن وراء ستار بين الأخوة الأعداء. ولا تختلف الانتخابات الداخلية في التنظيمات الحزبية عن انتخابات الحزب الحاكم، أغلبية ساحقة، تفويض جماهيري، قد لا يصل إلى التسعينات

في المائة كما هو الحال في الحزب الحاكم ولكن أدنى من ذلك بقليل. وتشتد جماعات الضغط وتتحرك الشلل إلى حد يصل إلى التآمر والطعن في الخلف إبرازا لهذا المرشح وتنحية لذلك المتقدم حتى تظل القيادة العليا للحزب في يد الشلة القوية المسيطرة، والصغار الذين لا يقوون على النزال وليس لهم شلل ترعى مصالحهم يرضون باليسير، منصب هنا ومنصب هناك، ويسيرون في الخط العام للحزب الذي تسيطر عليه الشلة القوية طوعا أو كرها. وإذا كان الحزب جبهة وطنية تتكون من عدة قوى وتيارات فكرية فسرعان ما تسيطر أحداها، والتي ليست بالضرورة هي الأغلبية لا على مستوى قواعد الحزب ولا على مستوى ثقافة الأمة، وتوجه الحزب كله لصالحها ضربا لمفهوم الحزب كتجمع وطني وهدما لتكوين الجبهة الوطنية[٦].

---

[٦] انظر الدراسة السابقة (التنوير الديني والتنظيم السياسي)

١٠- غياب النموذج القيادي.

وفي المجتمعات التراثية للنموذج القيادي المتمثل في سير الأبطال وقصص الأنبياء والخلفاء الراشدين وحكام المسلمين وفقهاء الأمة أثر بالغ في التكوين النفسي والذهني والثقافي للجماهير حيث تقارن حاضرها بماضيها، وما تراه من سلوك حكامها وأفعالهم وبين ما تسمع عنه وتقرأ من سلوك القدماء فتثور على حاضرها وترنو إلى ماضيها. ومعظم قادة الأحزاب التقدمية اليوم لا يسلمون من تساؤل الشعب عن سلوكهم ونمط حياتهم وإلى أي حد يتصفون بما اتصفت به هذه النماذج القديمة التي ترسبت في وعيه القومي. منهم الباشوات، ومنهم أصحاب الأراضي، ومنهم الأغنياء ويمتد السلوك ليشمل كثيرا من النواحي الأخلاقية، وأسرار الحياة الشخصية تلك التي يجرحهم الحزب الحاكم بسببها من أجل تشويه سمعتهم أمام الشعب والقضاء على ثقلهم السياسي وما يمثلونه من سياسات بديلة. وطالما تمسك الشعب بقادة كانوا مثالا في السلوك وكانوا أقرب إلى نماذجه القديمة التي يقرأ عنها في التاريخ. يتكلم بعض القادة عن الفقر وهم أغنياء، ويعارضون السلطة ويتصلون بالحزب

الحاكم من وراء الستار. ومن ثم ضاع أي أثر لقادة الأحزاب التقدمية على جماهير الشعب إذ أنهم يشاركون قادة الحـزب الحاكم في نفس الصفات. لا توجد قدوة أي تطابق القول مع العمل، المذهب مع السلوك، الحياة العامة والحياة الخاصـة. ويعجب الشعب بهوشي منه، وغاندي، وجيفارا مـن القـادة المحدثين، ويذكر عدل عمر، وزهد أبي بكر، وإنصاف عمر بن عبد العزيز، ويتحسـر علـى قادتـه أصـحاب رءوس الأموال، وملاكـي الأرض، ورؤسـاء مجـالس الإدارات، والباشوات القدامى، ويتعـاطف مـع أعضـاء الجماعـات الصامدين حتى ولو خرجوا على السلطان، واستشهدوا فـي معارك غير متكافئة، كشهادة الحسين.

١ - الزعامة الفردية.

وإذا كانت إحدى السمات الرئيسـية فـي المجتمعـات التراثية تشخيص الأفكار والمبادئ والمذاهب والأديان فـإن النظم السياسية والتنظيمات الحزبية سواء بسواء تقع في نفس الخطأ. فإذا كان طبيعيا أن تعتمـد الـنظم الحاكمـة علـى الموروث الثقافي اطمئنانا إلى عنصر المحافظة فيه فتشخص الدولة في الفرد فإنه يصعب أن تقـع التنظيمـات الحزبيـة

المعارضة أي الأحزاب التقدمية في نفس الفخ وهـي تقـوم أساسا على القضاء على عبادة الأشخاص. فإذا لم تتوافر في قيادات الأحزاب التقدمية وروح البطولة فإنها لن تلهب خيال الشعب، وإن لم تكن لديها السمات الزعامية فإنها تظل أقرب إلى موظفي الدولة ومديري المصالح ورؤساء مجالس إدارة الشركات. وفي مجتمعات تسيطر الدولة فيهـا علـى كافـة أجهزة الإعلام فإن شخصية القائد الحاكم يظل هو المحتكـر الأول للحياة السياسية الإعلامية لا يمكن مزاحمته إلا هامشيا وبلا فاعلية. ما زالت كثير من الأحزاب التقدميـة رجـالات أكثر منها مبادئ، وأشخاص أكثر منها برامج، وأفراد أكثـر منها قواعد، فإذا كانت الدولة هي الـرئيس، فـالحزب هـو الأمين العام، وجريدته هو مدير التحرير أو رئيس التحريـر على الرغم من جماعية العمل في الصحافة كحرفة. يضـيف الأفراد إلى الأحزاب رصيدا بأشخاصهم ولا يضيف الحزب إلى الأفراد رصيدا من مبادئه. لا حزب إلا بهذا الـزعيم أو ذاك. والأفضل زعيم بلا حزب عن حزب بلا زعـيم! وقـد يأتي رئيس حزب فيرشح نفسه للانتخابـات بشخصـه فـي الدوائر الفردية وليس على مبادئ حزبه. فلعله يـنجح فـي

الحالة الأولى بدلا من أن يرسب في الحالة الثانيـة. ويظـل رئيس حزب آخر أبا روحيا للحزب وموجها لسياسته حتـى ولو لم ينزل المعركة الانتخابية. وقـادة الصـف الثـاني لا يدخلون المعارك الانتخابية حرصا على الوقـت، وتـوفيرا للجهد، وطلبا للسلامة.

١٣- الصراع على السلطة.

من الطبيعي أن يكون هدف الأحزاب التقدمية في البلاد النامية الحصول على السلطة حتى تنفـذ برامجهـا وتحقـق أهدافها، ولكن في الحقيقة أن ذلك طريـق مسـدود وسـابق للأوان. فالكل يفعل ذلك لا فرق بين حزب تقـدمي وحـزب تقدمي آخر، ولا فرق بين الأحزاب التقدمية في مجموعهـا والأحزاب المحافظة، ولا فرق بين الأحزاب كلهـا تقدميـة ومحافظة وبين الحزب الحاكم المستولي على السلطة بالفعل. ولا أحد منها يتوجه إلى الشعب، للحصول على السلطة مـن قواعدها وأصولها، فالكل ضحية وهم أن التغير الاجتماعي لا يحدث إلا بالسلطة السياسية (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن). ولما كانت سلطة الدولة في كل مكان مـن خـلال الجيش أجهـزة الأمـن والإعـلام والثقافـة والمؤسسـات

والمصالح، صعب منافستها فـي السـلطة، المعارضـة إذن ليست في إيجاد حكومة بديلة ولكن في إعداد الشعب بخطـة طويلة الأمد على أن يأخذ مصيره بيده ويختار النظام الـذي يمثله ويدافع عن مصالحه على نحـو ديمقراطـي صـرف، محمولا على الأعناق، وليس قفزا علـى السـلطة بـانقلاب عسكري أو بتنظيم مدني، علني أو سري، ولما كانت أجهزة الدولة قادرة على جمع المعلومات عن كل صغيرة وكبيـرة فإن العمل السري أيضا طريق مسدود، فالسياسـات البديلـة ليست سرا، والإعلان عنها ليس جريمة، ونقد أوجه القصور في السياسات القائمة واجب وطني وحق لكل مواطن يكفلـه الدستور. وطالما استولت أحزاب على السلطة ولم تحدث أي تغير اجتماعي كما حدث مع أحزاب الأقليـة. وطالمـا لـم تحصل أحزاب على السلطة وكان لها أكبر الأثر في تـاريخ البلاد ونهضتها مثل الحزب الوطني الذي دعا إليه الأفغـاني وصاغ برنامجه محمد عبده وأسسه مصطفى كامل، ومثـل جماعة الإخوان المسلمين في مصر والتنظيمات اليسارية فيها منذ أوائل هذا القرن.

إن السلطة الفعلية ليست في جهاز الحكم بـل فـي يـد الشعب. يمكنه أن يقاوم ويقاطع ويدير ظهره للحاكم على ما هو معروف من أعمال المقاومة السلمية، وكما ظهر أخيـرا في السودان، والفلبين، وكوريا الجنوبية، وقبل ذلك في الهند وكما يحدث الآن في فلسطين، إن دور الأحزاب التقدمية أن تولي ظهورها إلى السلطة وتتقدم نحو الشعب لإعداده لتولي السلطة بنفسه عن طريق تثوير ثقافتـه، وإعـداد كـوادره، وتعبئة جماهيره، ووضع خططه، وتنفيذ مراحله. إن التسرع بالقفز على السلطة يجعل القافز عليها باستمرار يبـدأ مـن الصفر، خطوة إلى الإمام وخطوتين إلى الوراء. وإن إعـداد الشعب لتولي السـلطة بنفسـه يحـدث التـراكم التـاريخي الضروري، خطوة إلى الوراء وخطوتين إلى الأمام، فـيحكم من يشاء، وليجلس على كرسي الحكم من يريد، ولكن السلطة الحقيقية تظل في يد فقيه الأمة القادر على إعادة بناء ثقافتهـا الوطنية بحيث تكون حاملا لأهدافها القومية. لا يحمل السلاح ضد أحد، ولكنه يواجه الفكرة بالفكرة، والـرأي بـالرأي، لا يكفر مؤمنا، ولا يخون مواطنا، ولكن يضع يده في يد الجميع للاتفاق على برنامج وطني موحد بصرف النظر عن المداخل

النظرية له. برنامج عمل واحد وأطر نظرية متعددة، وهـو درس من أصول الفقه القديم: الحق العملي واحـد، والحـق النظري متعدد. الحق العملي يقين، والحق النظري ظن. وهو درس في الوحدة الوطنية ودعوة إلى الجبهة الوطنية لخلاص الوطن، اعتمادا على تراث الأمة، وتلبية لحاجـة العصـر، وحثا بوصف القرآن (أشداء على الكفار رحماء بينهم) (٤٨: ٢٩).

مشروع جريدة إسلامية يومية جامعة

في هذا الوقت، وبعد أن انتصرت الأمة في رمضان الماضي، يفكر الجميع في إعادة بناء الدولة، ويطرحون قضايا مصيرية هامة، قد تحدد مصير الأمة لمئات من السنين، وعلى رأسها قضية الديمقراطية وحرية الرأي، ويقترحون إما تعدد المنابر من خلال تحالف قوى الشعب العامل وإما تعدد الأحزاب. وسواء أخذت الأمة بالرأي الأول أم الثاني، فإن إعادة بناء الصحافة ستأتي بالتبعية عندما يخصص لكل تيار فكري صحيفة تعبر عنه، وتدور فيها المناقشات، ويتم فيها الحوار بين مختلف الاتجاهات الممثلة في الصحف الأخرى.

ومصر أكبر دولة إسلامية ناطقة بالعربية كما وكيفا، ومكانتها في العالم العربي والإسلامي تبلغ عنان السماء، وهي كعبة لكل طالبي العلم من أنحاء العالم الإسلامي، ومنها خرجت معظم الحركات الإصلاحية الحديثة، وتاريخها يشهد لها بنصرة الإسلام وعزة المسلمين، هذا التاريخ لم يخل مرة

واحدة من صحيفة إسلامية جامعة، تعبر عن وجدان الأمـة، عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها. *

وقد تبلور التيار السياسي فيها في العصر الحديث منـذ رفاعة الطهطاوي الذي يحاول البعض جعله مؤسس الوطنية المصرية، وهو في الحقيقة من رواد الفكر الإسلامي السياسي المعاصر. بل إن كل ثورات الأمة لم تخل من دافع إسـلامي منذ ثورة أحمد عرابي حتى ثورة عمر مكرم، ونضال علماء الأزهر الشريف ضد المحتلين، بل إن ثورة مصر الوطنيـة سنة ١٩١٩ كانت ما زالت في إحدى جوانبها تدور في الفلك الإسلامي، بحثا عن ذاتية الأمة، وتحديـدا لصـلتها بالعـالم الإسلامي حولها، حتى أتت ثورة يوليو المجيدة سـنة ١٩٥٢ وتحدث قائدها في (فلسفة الثورة) عـن المحيطـين والـذين يدوران حول مصر، ومصر مركزهمـا، المحـيط العربـي

---

* بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وبث روح جديدة في كل الاتجاهات الوطنيـة، في مصر، كتب هذا الاقتراح إلى القيادة السياسية في مصر في ذلـك الوقت وسلم إلى المرحوم د. إسماعيل الفاروقي لإيصاله عـن طريـق صديقه الذي كان وزير الأوقاف والشئون الدينية في ذلك الوقت، وكان الرد أن ذلك سابق لأوانه!

والمحيط الإسلامي، وذكر صراحة أن الثورة ما هي إلا تعبير عن نضال المصلحين المسلمين، جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا.

وكانت آخر صحيفة تملأ الفراغ هي مجلة (المنار) التي ساهمت في تكوين الفكر الإسلامي، وفتحت آفاقا جديدة نحو التغيير الاجتماعي والتجديد الفكري، ووضعت مناهج جديدة في تفسير القرآن الكريم. ثم حاول فريد وجدي تكملتها بموسوعته، وحاول الإخوان المسلمون في نشأتهم بجرائدهم ومجلاتهم، ويحاولها الآن علماء الأزهر الشريف بمجلة (منبر الإسلام) وغيرها من المجلات الأسبوعية أو الشهرية. ولكنها جميعا ظلت محدودة الأثر إما لحجمها وتوزيعها ومدى تكرارها، وإما لمضمونها التقليدي، وكلها لا تغني عن جريدة يومية جامعة تخاطب الجماهير العريضة يوميا، وتربطهم بالإسلام والمسلمين، وتكون قلب الإسلام النابض الحاملة لواء الاجتهاد، وإبراز المشاكل اليومية وحلولها الإسلامية، فالإسلام ليس نظرية فحسب بل هو تطبيق وتحقيق وعمل يومي على مستوى الجماهير، والتوحيد قادر على تجنيد الجماهير وتوحيد عقلها وقلبها وعملها.

ولقد دارت في هذه الأمة منذ ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ مناقشات حول وجه مصر الوطني أولا، والعربي ثانيا، والاشتراكي ثالثا، وكلها أوجه صحيحة لا ريب فيها ولكنها ناقصة إذ توارى إلى الوراء وجه مصر الإسلامي مع أنه الوجه السائد داخل مصر وخارجها، مما ساعد على إضعاف وجه مصر الوطني والعربي والاشتراكي، وبالرغم من محاولات عديدة لتأصيل الاشتراكية الإسلامية، وإقامة القومية العربية في إحدى جوانبها على الإسلام أحيانا وعلى المصالح القومية اقتصاديا وسياسيا دائما، فإن الفكر الإسلامي ظل متواريا، وظل الإسلام كامنا في النفوس دون أن يجد ما يعبر عنه من خلاله في صورة نظرية أم تطبيق، ولم يجد منفسا إلا طرقا منحرفة مثل حزب التحرير الإسلامي ومحاولاته الصبيانية لقلب نظم الحكم من أجل إقامة دولة إسلامية أو حركة الإخوان المسلمين السرية وظهورها علنا بين الحين والآخر بما يمثله حكم الجماعات السرية من حرمان وكراهية وقصور نظر وعداء. مع أنه كان من الممكن أن يعبر الإسلام الكامن في النفوس عن نفسه بطريقة تلقائية طبيعية علنية وسوية من أجل تدعيم نضال الأمة في مواجهة قضايا

الاستعمار والتخلف، وتدل صيحات (الله أكبر) التي أطلقها الجنود وهم يعبرون القناة في رمضان من قوات بدر على أن الإسلام ما زال وسيظل هو الدافع الأقوى لتحرير الأرض والقضاء على التخلف. مهمة الجريدة الإسلامية اليومية الجامعة هي إبراز الفكر الإسلامي وتأصيل أيديولوجية إسلامية والتغيير عن ثقافة الجماهير وتاريخها، وملء الفراغ النظري الذي نعاني منه فكريا وثقافية وسياسيا، خاصة وأننا أمام عدو أيديولوجي يقوم على الفكر قبل أن يدعم وجوده بقوة السلاح ويؤسس أيديولوجيته على فهم عنصري للدين. وما أسهل على المسلمين من محاربته بنفس السلاح بعالمية الإسلام وإنسانيته، ووقوف الجماهير في مواجهة الغزوات الصهيونية.

وكثيرا ما حاولت الأمة بناء التجمعات الشعبية ابتداء من هيئة التحرير، مارا بالاتحاد القومي إلى الاتحاد الاشتراكي العربي، ولكن غياب الفكر الواضح، وعدم التزام القيادات بالقضايا وسلبية الجماهير أدى إلى ضعف هذه التجمعات لأن أحدا لم يمس قلبها النابض بعد وترها الحساس، وما زال حتى الآن الجو الفكري خاليا من فكر

وتنظيم يملأ الفراغ ويعبران عن أقوى الدوافع فيه. وفي مقابل هذا الفراغ تزداد المخاطر يوما بعد يوم. وكما نعلم جميعا لم تنته الصليبية بعد، وأنه منذ حاول الشرق والغرب ضرب العالم الإسلامي في قلبه مرة من الشرق بهجمات التتار والمغول ومرة من الغرب بحملاته المتكررة على فلسطين في الماضي، ثم فشله بفضل تجنيد صلاح الدين الأيوبي للجماهير فكريا وسياسيا وتجهيزه للجيوش الشعبية وتوحيده لمصر والشام أي لأفريقيا وآسيا، حاول مرة ثانية بالالتفاف حول العالم الإسلامي من أطرافه لحسر الإسلام عن جنوب شرق آسيا وأواسطها وجنوب أفريقيا وشرق أوربا، وبدأت حركات الاضطهاد والتبشير، واشتد أزرها، وما زال الخطر جاثما على الفلبين والملايو وإندونيسيا وجنوب السودان ومسلمي شرق أوربا وأواسط آسيا، والآن يشتد الحصار من الأطراف من الشرق كما نسمع كل يوم. ويعود الغرب لتوجيه الضربة إلى القلب من جديد بالغزو الصهيوني لفلسطين، لقطع العالم الإسلامي من وسطه، والقضاء عليه بالتآكل من أطرافه، مهمة الجريدة اليومية الإسلامية الجامعة أن يساهم الإسلام في قضايا الاستعمار

والتحرير، ويشارك في قضايا التنميـة والتخلـف، ويصـنع الوحدة بين الشـعوب العربيـة والإسـلامية دون الاكتفـاء بالشعارات التي تعبر عن أماني الجماهير ولا تحقق آمالهم.

وبعد مايو ١٩٧٠ فيما يبدو بدأت القيادة السياسية تدرك أهمية الإسلام، وظهر شعار (العلم والإيمان) كدعامتين للدولة الحديثة، واستجابت الجماهير للنداء، وظهرت عديد من القيم الإسلامية لأول مرة في سلوك الجماهير وفي أجهزة الإعلام. والآن رجال الفكر يستجيبون بتأسيس جريدة إسلامية يوميـة جامعة. والأمر أخطر وأهم مـن أن يتـرك للمصـادفة أو لمساحة محدودة في الصحافة اليومية المنتشرة التي غالبا ما يكرر بعضها بعضا أو حكرا على مشاهير الأقـلام الـذين سادوا الصحافة أكثر من ربع قرن ولا يخرج تحليلهم عـن قضايا الوعظ والإرشاد أو الفكر الديني التقليدي. ولن تعاني هذه الجريدة الإسلامية اليومية المقترحة من غياب القـراء، فالقراء موجودون وهم جماهير الأمة الإسلامية، في حين أن الصحافة اليومية المنتشرة الآن موجودة وقراؤها محسورون عنها فكرا وقلبا وعددا. ولا تنقصنا الأقلام الجديـدة الشـابة

لهذه الجريدة المقترحة، فلم ينضب معين مصـر الإسـلامي أبدا.

ويمكن تحديد أهداف هذه الجريدة كالآتي:

١- تنظير الأيديولوجية الإسلامية، وإقامة حوار فكري مع الأيديولوجيات الأخرى، وتربية مفكرين شبان جـدد يواصلون ما بنته الأجيال الماضية، وإعـادة تفسـير الحضارة الإسلامية وعلومنا التقليدية على أساس من احتياجات العصر.

٢- تقوية الوعي الإسلامي وتنويره وترشيده على أسـاس من العقل والواقع حتى يصبح الرصيد الشعبي لكـل عمل سياسي مستنير.

٣- إعادة عرض قضايا مصر والعالم العربي المصيرية، وتحقيق الوحدة العربيـة بإيجـاد الـروابط الفكريـة والثقافية وإبرازها تحقيقا لوحدة الجماهير العربية.

٤- إبراز قضايا العالم الإسلامي في مواجهـة موجـات التبشير في الأطراف وضربات الطعـن فـي القلـب وربط المسلم بأخيه المسلم في شرق العالم وغربه.

٥- المساهمة في عرض قضايا آسيا وأفريقيا حيث يقع معظم المسلمين وعلى رأسها قضيتا التحرر والتنمية.
٦- إعادة بلورة قضايا دول عدم الانحياز باعتبار أن الإسلام دعامة عدم الانحياز، وصاحب فكر سياسي مستقل عن فكر المعسكرات الدولية.
٧- تجنيد الجماهير والقضاء على سلبيتها، وإدخالها في المناقشات الفكرية وتوجيهها نحو العمل السياسي، وتحويل الإسلام إلى حركة جماهيرية مستنيرة.

وستكون الجريدة جريدة رأى لا خبر إلا ما يربط المسلم بأخيه المسلم في أنحاء العالم الإسلامي، وستكون أخبار الشعوب لا أخبار الحكام والولاة. وستكون خالية من الإعلانات التجارية والاجتماعية إلا من مساحات ضيقة لإعلانات الكتب والثقافة. ويمكن للجريدة أن تقع في ثمان صفحات لا أكثر، يمكن تقسيمها إما جغرافيا أو فكريا وهو الأفضل. فيمكن تخصيص صفحتين لكل من مصر، والعالم العربي، والعالم الإسلامي، والعالم الغربي أو الشرقي جغرافيا، أو تخصيص صفحتين لكل من الفكر الإسلامي النظري، والمشاكل الواقعية للعالم الإسلامي، وإعادة تفسير

الحضارة الإسلامية، والحوار مع الحضارات المجاورة في الشرق والغرب، ويمكن الجمع بين التقسيمين الجغرافي والفكري عندما تقع الجريدة في اثنتي عشرة صفحة كغيرها من الصحف اليومية. أما مشاكل التمويل فتهون بالنسبة للهدف. وإذا تعذر التمويل مطلقا واستحال توفير الورق فيمكن تخصيص إحدى الصحف اليومية لهذا الغرض، وكلها في النهاية ملك الشعب الذي سيجد في هذه الجريدة الإسلامية اليومية الجامعة أصدق تعبير عن أقوى دافع فيه. وهذا مشروع قابل للتعديل والتفصيل.

والرجاء عرض هذا المشروع على السيد نائب رئيس الجمهورية للشئون الدينية، ثم على السيد رئيس الجمهورية.

الإسلام والقرن الخامس عشر

* **يشترط في فقهاء ومجتهدي اليوم أن يكونوا تعبيرا عن أمة الفقراء والمقهورين.**
* **أين نحن من عصر الفضاء؟ مشاكلنا تجعـل عصـرنا عصر البيضة والفرخة.**
* **إن مستقبل العالم الإسلامي مرهون بالإسلام الثـوري قيادة وجماهير وفكرا.**

١- الاجتهاد مصدر من مصادر الشرع بعـد الكتـاب والسنة والإجماع، وهو كذلك بنص الكتاب والسنة وبإجمـاع المسلمين وبدليل العقل. لم ينكره من القـدماء إلا الأقلـون. وبالتالي فهي ليست قضية خلافية عنـد القـدماء ولا عنـد المحدثين. فلا يوجد أحد الآن ينكر شرعيته. بـل إن محمـد إقبال في (تجديد الفكر الديني في الإسلام) يجعله مبدأ الحركة في الإسلام. ولكن أيام الحكـم العثمـاني، ونظـرا لتخلـف المجتمعات الإسلامية، وسيطرة الحكام ورجال الدين قيلـت هذه العبارة (قفل باب الاجتهاد) بعد الأئمة الأربعـة. وهـذا

غير صحيح على الإطلاق، فما زال الواقع متجـددا، ومـا زالت حياة المسلمين تزخر بالوقائع الجديدة التي تحتاج إلـى أحكام وبالتالي فالاجتهاد في كل عصر ضرورة وواجب. *

أما الصحوة الإسلامية المعاصـرة فهـي ذات أسـس اجتماعية وسياسية واقتصادية وحضـارية وليسـت مجـرد صحوة فقهية، بل إن مظاهر العبادات الخارجيـة والتمسـك بالمظاهر الدينية لتعد صحوة على السطح وليسـت صـحوة الأعماق الموجودة بالفعل بعد أن جرب المسلمون في حياتهم معظم الأيديولوجيات العلمانية المعاصرة من ليبرالية وقومية وماركسية ولكنها لم تنجح إلا نسبيا في حل القضايا الأساسية التي يمر بها المسلمون الآن.

أما شروط المجتهدين عند القدماء فشرطان: الأول العلم بقواعد اللغة العربية، والثاني العلم بأسباب النزول حتى يمكن للمجتهد فهم الأصول، ولكن ذلك لا يكفي بل لابد من إضافة الوعي بمصالح الأمة والانتساب إلى وعي أغلبيتها المحرومة والتعبير عن مصالح غالبية المسلمين. فآفة رجال الدين كانت دائما موائد الحكام وقصورهم ولكن فقهاء اليوم ومجتهـديهم

---

* كتاب الموقف العربي، الإسلام والقرن الخامس عشر الهجري ١٩٨١.

يشترط فيهم التعبير عن أمة الفقراء والجياع والمطحونين والمقهورين.

والقضية الأساسية التي يجب أن يعمل فيها المجتهد رأيه ليست أحكام العبادات والمظاهر الخارجية، وحلق عانة الميت وأحكام الظراط والاستنجاء واتجاه الغائط بل القضايا المصرية التي تواجه مصير الأمة الإسلامية مثل تحرير الأرض، والتنمية والقضاء على مظاهر التخلف وتجنيد جماهير المسلمين وتحويل الكم إلى كيف.

فالمشكلة الآن هي الغنى والفقر، الملايين في أيدي الأقلية والموت جوعا بل عطشا للملايين في تشاد وإريتريا والصومال والسودان وبنجلاديش، فنحن أمة يضرب بها المثل في الغنى والفقر، كما إننا أمة أصبح يضرب بنا المثل في تسلط الحكام ومواجهة الرأي بالسيف، والفكرة بالمعتقل، وبالتالي نشأت لدينا أزمة الحرية والديمقراطية، فالقضية الثانية إذن هي قضية الحرية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول الحق في مواجهة الحاكم الظالم. كما إننا أمة يضرب بها المثل في التخلف سواء في التنمية والتعليم أو الخدمات، وأصبح ما يسمى بالبلاد المتخلفة يشمل العالم

الإسلامي في آسيا وأفريقيا في مقابل اليهود والنصارى الذين نأخذ منهم أساليب القضاء على التخلف والمعونـات الفنيـة. وكأن خير أمة أخرجت للناس أصبحت أسوأ أمة، وكأن الأمة المغضوب عليها الضالة أصبحت خير أمة.

٢- نحن لا نعيش في (عصر الفضاء) لأننا لسـنا فـي القرن العشري، فهذا هو عصر المجتمعات الأوربيـة التـي استطاعت استثمار موارد الأرض. لما ضاقت بهـا الأرض اتجهت إلى الفضاء تعزيزا لقوتها واستثمار لعلمها. أما نحن فإننا نعيش مطلع القرن الخامس عشر وبعد حضارة إسلامية أولى بدأت في القرنين الأول والثاني وازدهرت في القـرنين الثالث والرابع وبلغت أوجها في القرنين الخامس والسـادس ولكنها بعد ذلك بدأت في التوقف والانهيار ابتداء من القـرن السابع، واستمر الحال كذلك على مدى خمسة قـرون. ثـم حاولنا منذ قرنين من الزمان، الثالث عشر والرابـع عشـر النهضة من جديد، لقد أرخ ابن خلدون الحضارة الأولى، وما زلنا في حاجة إلى من يؤرخ للقرون السبعة الأخيرة، أسباب الانهيار وشروط النهضة.

لقد حاول الإصلاح الديني (الأفغاني)، والفكر الليبرالي (الطهطاوي)، والفكر العلمي (شميل) الكرة من جديد ولكننـا ما زلنا لم ننتقل بعد من ثنايا الإصلاح إلى النهضة الشـاملة، فما زال العقل لدينا يتوارى أمام الخرافة والإلهام، والإنسـان غائبا أمام الله. والطبيعة مسلوبة أمام ما يـأتي مـن فـوق الطبيعة، وبالتالي فما زلنا مجتمعات تناضل من أجل إعـلاء شأن العقل، واكتشاف الطبيعة وتأكيد الإنسان، والمساهمة في صنع التقدم، والنضال من أجل الحرية والديمقراطيـة. أيـن نحن من عصر الفضاء؟ إن الأرض ما زالت محتلة، ثرواتها منهوبة، صحراء جرداء غير مستثمرة، زرعها يعطب فـي السودان، أرضها في حاجة إلى ماء، حقولها في حاجة إلـى عمل وعرق. أين نحن من عصر الفضاء؟ إن التلوث ينشـأ لدينا من روث البهائم والمجاري الطافحة وأقمام الزبالة على نواصي الطرقات وليس من النفايـات النوويـة أو مخلفـات المصانع. نحن لا نستطيع أن نـدعي عصـرا لا نعيشـه، وبالتالي نستولي على تاريخ غيرنـا وعصـوره. يكفـي أن مركبات الفضاء تطير فوقنا وتصور بلادنا سـلما وحربـا، وبالتالي تم غزو فضائنا بعد غزو أرضنا وسمائنا. أن التبول

في الطرقات، والسعي وراء لقمة العيش، يجعـل عصـرنا عصر البيضة والفرخة، ويجعل جيلنا جيـل الأرز والسـكر والزيت، فإذا ما ملئت البطون عملت العقول، وإذا ما حلـت مشاكل الأرض انتبهنا إلى ما يدور في السماء.

٣- إن مستقبل المجتمعات الإسلامية مرهـون أساسـا بحل القضايا المصيرية للمسلمين وعلى رأسـها، الحريـة، والتحرر، والتنمية، وتجنيـد الجمـاهير. فالحريـة بالنسـبة للمجتمعات الإسلامية قضية حياة أو موت، إن اختلاف الأئمة رحمة بينهم، وللمخطئ أجر وللمصيب أجران، ولماذا تكون الفرق كلها هالكة إلا واحدة، وهي فرقة الحكومة؟ إن الحـق كثير في العمليات على ما يقول الأصوليون القدماء. وما دام التسلط والقهر والمنع والكبت هو علاقة الحـاكم بـالمحكوم فسيظل العالم الإسلامي لفترة طويلة يعاني من تخلفه وفقـره لأنه لم يتحقق بعد شرط التقدم وهو الحرية.

وتحرير الأرض بالنسبة للمجتمعات الإسلامية مسـألة حياة أو موت. لقد حاول الاستعمار الأوربي في أوج النهضة الإسلامية ضرب العالم الإسلامي في القلب عن طريق البـر أيام الحروب الصليبية ففشل. ثم حاول ذلك عن طريق البحر

بالدوران حول الأطراف على سواحل أفريقيا وآسيا في القرن الرابع عشر، فيما سمي بالكشوف الجغرافية، فنجح هذه المرة، وبدأت الغارة على العالم الإسلامي بالاستعمار والتبشير. ولما بدأ العالم الإسلامي في التحرر وأخذت دوله في الاستقلال عاود الهجوم وصوب إلى القلب برا من جديد في فلسطين، فأتي الاستعمار في صورة الصهيونية للاستيلاء على فلسطين، تحرير الأرض إذن قضية مصيرية لإنقاذ القلب وإحياء الأطراف والقضاء على جميع أنواع الاستعمار العسكري والاقتصادي والثقافي والحضاري في الأمة الإسلامية.

والتنمية قضية أساسية، فلا يعقل أن تكون خير أمة أخرجت للناس يضرب بها المثل في الفقر والتخلف. ولا يعقل أن تكون الأمة إلى ورثت الإسلام آخر تطور للنبوة، والذي اكتملت فيه الإنسانية، والذي استقل فيه وعي الفرد، لا يعقل أن تكون أمة التقدم متخلفة في حاجة إلى معونة أمم سبقتها في التطور، وما زالت وراءها في مراحل سابقة من تطور النبوة. لقد وصف القرآن الأرض بأنها الأرض التي إذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج

ولم يصف الأرض القاحلة الصفراء. ووصف الجبال والوديان والأنهار، والحديد، والأنعام، والطير، والأسماك، كل ذلك لدفع الأمة نحو الطبيعة واستغلال مواردها ولم يجعل الأرض مكانا للموبقات والنفايات ولأنواع البصاق. لقد تعلم الغرب منا في فترة ازدهار الحضارة الإسلامية وسار مع ابن رشد وترك الغزالي، ونحن سرنا مع الغزالي وتركنا ابن رشد، وأصبحنا نتتلمذ علية الآن. ولكن الغرب أخذ منا وبنى وأضاف، ونحن ما زلنا نأخذ ونطلب المزيد وكأن الغرب سيظل باستمرار مبدعا منتجا وستظل نحن مستهلكين ناقلين. التنمية إذن ليست فقط في استيراد العلم بل في إبداع العلم، وليست فقط في نقل التكنولجيا بل في إبداع التكنولوجيا، وذلك هو التحدي لعلماء المسلمين في جيلنا.

أما قضية تجنيد الجماهير فهي قضية مصيرية، فضرب بنا المثل، كالهند، في الكم البشري الهائل دون كيف، كغثاء النحل، أو كالجراد والقمل الذي لو حط على الجزيرة البريطانية لأغرقها – كما يقول الأفغاني. تجند إسرائيل ثلاثة ملايين تحت السلاح وهي ثلاثة ملايين ونصف! ونحن ثمانمائة مليون ولا نستطيع أن نجند ثلاثة ملايين مثلها،

تصور في أجهزة الإعلام الغربية كتـل بشـرية يصـرعها الجوع والعطش والأوبئة أمام قصع هيئـة الأمـم ورهبـان الكنيسة! وماذا عن خلافة الأرض وإرثها التي وعد الله بهـا المسلمين؟ وماذا عن الأمانـة التـي رفضـتها السـماوات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفقن منهـا وحملهـا الإنسان؟ وماذا عن شهادة أن لا إله إلا الله؟ وقـوة الشـهادة لدى المسلم في رفضه الآلهة المزيفة (لا إله) مـن أجـل الله الواحد القهار؟

إن المستقبل الإسلامي مرهون بهذا التحـدي الحقيقـي للأمة الإسلامية التي أصبح تاريخها المعاصر مرتعا لعديـد من التجارب والأيديولوجيات العلمانية التي لـم تحـرك إلا الأقلية وظلت الأغلبية في تراثها التاريخي الذي يعبـر عـن أعمق أعماقها. والآن تنفر جماهير الأمة من طلائعهـا، ولا تجد إلا تراثها المحافظ، وشعائرها، ودينها الذي ورثته إبـان القرون السبعة الأخيرة إبان الحكم العثماني. إن التحدي الآن هو تنوير الجماهير الإسلامية وتحويلها من المحافظة الدينية إلى الإسلام الثوري، ثم اكتشاف الطلائع قوة الإسلام حتـى يمكنها أن تكون أكثر أهلية في قيادة الجماهير الإسلامية.

إن الغرب ما زال يمثل تحديا لنا، وقـد صـورنا فـي الاستشراق ثم (الانثربولوجيا) على أننا شعوب متخلفة لـيس أمامها إلا الأخذ عن الغرب أساليب النهضة والتقدم، ولكـن اكتشاف الشعوب قدراتها على الحركة سـواء فـي هباتهـا الثورية أو في ثوراتها الإسلامية كما حدث في مصر وإيران والجزائر، بل وفيتنام وأمريكا اللاتينية، تجعلها قادرة علـى قبول التحدي وأن تجعل تراثها وروحها وتاريخها وحضارتها وعاء لحاضرها ومصيرها ومصالحها، فالمستقبل للإسـلام الثوري، أو لثورة الإسلام قيادة وجماهير وفكرا.

أحاديث في اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية

١ - الدين والتراث والثورة:

الوحدة، السنة الأولي، العدد ٦ آذار/ مـارس ١٩٨٥، الرياض، المغرب، وقد أجري الحديث في القاهرة أثناء ندوة الأصالة والمعاصرة التي نظمها مركـز دراسـات الوحـدة العربية بالقاهرة، سبتمبر ١٩٨٤.

تقديم وحوار: قيس خزعل جواد. ارتبط اسم د. حسـن حنفي بأصحاب المشاريع الكبيرة على صعيد دراسة التراث، بل إن بعضهم يحصي أربع قراءات مهمة للتراث اعتبرهـا مشروعات فكرية متكاملة[١]، المشروع الأول للأستاذ حسين مروة في كتابه (النزعات الماديـة فـي الفلسـفة العربيـة

---

(١) انظر تعقيب الأستاذ السيد ياسين على دراسة د. محمد عابد الجـابري المقدمة لندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي التي نظمهـا مركز دراسات الوحدة العربية في القاهرة، ٢٤ – ٢٧ أيلول / سبتمبر ١٩٨٤.

الإسلامية) (جزءان) والمشروع الثاني للأستاذ الطيب تيزيني في كتابيه: (من التراث إلى الثورة: حول نظرية مقترحة في قضية التراث) و (الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى). وهذان المشروعان تقيدا بالمنهج الماركسي في التحليل. أما المشروع الثالث الذي انطلق من منهجية مادية أيضا ولكنه تميز عن المشروعين الأولين ببعده الثقافي فهو للأستاذ محمد عابد الجابري الذي بدأه بمقدمة منهجية مهمة في كتاب: (نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي) ثم أعقبه بمحاولته الجامعة: (نقد العقل العربي). أما المشروع الفكري الرابع فهو للأستاذ حنفي، وهو متميز عن غيره بكونه لا ينطلق من منهجية مادية في تحليل التراث، بل هو قراءة إسلامية هدفها طرح نظرية ثورية للشعوب الإسلامية لمواجهة تحديات العصر.

أن حنفي يبحث في داخل التراث، يدقق في المدارس الفلسفية وينتقي منها ما يلزم للرد على الواقع العربي المتخلف. وهو لا يتخذ من الفلسفة أداة معرفية فحسب، بل يعتبر أن جوهرها يكمن في قدرتها على بلورة نظرية ثورية تمتلك ناصية النهضة. فالإسلام في نظره لا ينفي المؤمن إلى

الصوامع والجوامع بل يمده برسالة حضارية قوامها الثـورة على الطغيان والقهر والتخلف والتجزئة وإقامة مجتمع عادل يؤمن بالاجتهاد والتنوع في إطار الوحدة.

وللتقرب من فكر حنفي سنحاول الإجابة عـن الأسـئلة التالية: من هو حنفي؟ وكيف ينظر إلى الدين وإلى الثـورة؟ وهل يرى إمكانية لاضطلاع حركة الإصلاح الديني بمهمات النهضة العربية الشاملة؟ وما شروط هذه النهضـة؟ وكيـف السبيل لتجديد التراث؟

يختص حنفي بموضوع التفسير وإشكالية الـنص كمـا يتضح ذلك من ثلاثيته الأولى (بالفرنسـية) وهـي: منـاهج التفسير: محاولة لإعادة بناء علـم أصـول الفقـه، تفسـير الظاهريات: الحالة الراهنة للمنهج الظاهرياتي وتطبيقه فـي ظاهرة الدين، ظاهريات التفسـير: محاولـة فـي التفسـير الوجودي ابتداء من العهد الجديد(٢)

---

(٢) Les methods d'exégése, essai sur la scence des foundents de la copohencoin, clm usul al figh le caire, ١٩٦٥

-l' d'exégése de la phenomenologe, l'état actuel de fa niéthode phénoménoiongiae et son application ou phénoméne réligieur (pari ١٩٦٥).

ويهدف إلى خلق تيار إسلامي مستنير يقوم على العقل والطبيعة وحرية الإنسان والمساواة الاجتماعية والتقدم وفي ظل ظروف القهر شرع يعرض لهذه الموضوعات بطريق غير مباشر ابتداء من الفلسفة الغربية فصدر له العديد من المؤلفات(٣). ثم حدد مشروعه أخيرا بطريق مباشر في (التراث والتجديد) بأقسامه الثلاثة (موقفنا من التراث القديم)، (موقفنا من التراث الغربي)، (موقفنا من الواقع أو نظرية التفسير) محددا الموقف الحضاري للمفكر الإسلامي الآن في جبهاته الثلاث، لإعادة بناء القديم ومن أجل تأسيس علم (الاستغراب) أي وضع الغرب كموضوع للعلم ورده إلى حدوده الطبيعية، وتحرير عقل الأمة من تقليد القدماء أو الآخرين ووضع شروط الإبداع الذاتي.

- la phénoménoiongiae de l'exégese, essai d'une hernéueutaue existeutelle a partit du noveau testament, (pairs ١٩٦٦)

(٣) نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، القاهرة، ١٩٦٨، لسنج: تربية الجنس البشري، القاهرة، ١٩٦٧، سارتر: تعالى الأنا موجود، القاهرة، ١٩٧٧

يرى حنفي أن الدين يقاس بوظيفته. فإذا ما نظرنا إلى جوهر الدين سنعرف أنه جاء لخلاص الإنسان ولتنظيم حياته وعمله وعلاقته بالله وبالآخرين، وبالتالي فهو لا يقر الظلم والاستغلال والتعسف، ولكن وظيفة الدين تتغير بتغير القائمين عليه. ولذلك يرى حنفي أن (الدين لدى الشعوب التاريخية) (التراثية) هو مصدر قيمها، ومنبع فكرها، وأصل تراثها، وموجة سلوكها، تلجأ إليه ساعة الشدة، وتتجه نحوه في اللحظات الحاسمة من تاريخها، وهو أيضا عامل في تقدمها أو تأخرها طبقا للوظيفة التي يؤديها فيها، وطبقا لاستعمال الطبقات الاجتماعية له. تثور به الجماهير، وتتحكم به السلطة، تواجه به الشعوب في مقاومتها المحتل الأجنبي، ويستغله المحتل الأجنبي من خلال السلطة الدينية طلبا لطاعة الجماهير وانصياع الأمة)[٤] وحنفي يعزي ما ألم بالواقع العربي بكل أبعاده المأساوية إلى استغلال السلطة للدين وتوظيفه لصالحها، ولم يكن ذلك ممكنا قبل القرن الخامس

---

[٤] حسن حنفي، الثورة العرابية، مائة عام ١٨٨١- ١٩٨١، كتاب الموقف العربي، القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨١، ص ٣٤. وأيضا الجزء الثالث: الدين والنضال الوطني.

الهجري حيث قاد الاجتهاد إلى عقلانيـة المعتزلـة، ولكـن بانتصار الأشعرية وتحولها إلى فكر رسمي للدولة السنية ساد تصورها للعالم بعد أن كانـت حركـة تحريفيـة للمعتزلـة ومراجعة لها ونكوصا عنها. فالإنسان في نظـر الأشـعرية يظل قاصرا، عقلا وإرادة، عن أن يستقل في فهمه وفعلـه، يظل العقل تابعا للنقل، وتظل الإرادة الإنسانية تابعة لـلإرادة الإلهية، فسلطة الحاكم مستمدة من سـلطة الله. (مـن هـذا التصور المركزي للعالم جاءت سلطوية التصور إلى تسلطية النظم والإعلاء من شأن القمة على حساب القاعدة.. فلا يوجد حوار بين القمة والقاعدة بل يوجد أمر وتنفيذ، سمع وطاعة[5] فأهل السنة – حسب حنفي – فصلوا بين العمـل والإيمـان، واكتفوا بالإيمان وأرجأوا العمل إلى يوم القيامة، وبذلك سـاد الفسق والنفاق في حين جعل المعتزلة والخوارج الإيمان بلا

---

[5] حسن حنفي، (الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديمقراطية في وجداننا المعاصر) في كتاب: الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربـي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربـي، ١٩٨٣، ص ١٨٥. وأيضـا الجزء الثاني: الدين والتحرر الثقافي.

عمل كفرا صارخا، فلا إيمان بوجود سلطة طاغيـة، لـذلك استطاع المعتزلة معارضة النظم اللاشرعية القائمة، وتكوين جبهات معارضة، وفكر معارض. كما اسـتطاع الخـوارج تنظيم المقاومة الفعلية والخروج على النظم اللاشرعية القائمة بالسيف[٦].

أما متى أصبحت النظرية الثورية شاغله الوحيد فيحـدد حنفي أنه (إثر هزيمة حيران (يونيو) ١٩٦٧، أدركنـا إننـا حاولنا أن نقيم مجتمعات ثوريـة دون وعـي ثـوري ودون نظرية ثورية، فعكف كثير من المفكرين على التعرف علـى مقدمات الثورة وشروطها، ولما كان الحديث عـن الثـورة حديثا مباشرة ما زال يخضع للرقابة الشديدة في مجتمعاتنـا إبان الثورات العربية الأخيرة لجأت إلـى التـراث الغربـي كوسيلة للحديث عن الثورة والتقدم والـوعي والجمـاهير)[٧] وانتقل حنفي نقلة فكرية نوعية بعد انتصار الثورة الإيرانية،

---

[٦] حسن حنفي، مبحث (التفكير الديني وازدواجية الشخصية)، في فكرنـا المعاصر، بيروت: دار التنوير، ١٩٨١.

[٧] حسن حنفي، لسنج، تربية الجنس البشـري، بيـروت : دار التنـوير، ١٩٨١، ص ٧.

فقد رأى أن النظرية الثورية تنبع من تراث الأمة ذاتـه، وأن المهمة تكمن في تثوير هذا التراث، لذلك فقد حدد برنامجـه الثوري كتابه (التراث والتجديد – القاهرة ١٩٨٠) ومن ثـم في مجلته التي لم يصدر منها إلا عدد واحد وهـي (اليسـار الإسلامي – ١٩٨١).

أما كيف تتم عملية التثوير هذه.. فعن طريق (الكشـف عن العناصر الثورية في الدين أو بيان أوجه الاتفـاق بـين الدين والثورة أو تأويل الدين على أنه ثورة.. فالدين هو مـا لدينا بالأصالة، والثورة هي مكتسبات عصرنا (..) وقد زخر التاريخ الإسلامي بالثورات الدينية والاجتماعيـة والسياسـية مثل ثورة القرامطة وثورة الزنج في تاريخنا القديم والحركة الإصلاحية مثل المهدية في السودان والسنوسية فـي ليبيـا، والإسلام في الجزائر إبان حركة التحرير الوطنية (...) كما يتأصل، (اليسار الإسلامي) في ثورات الأديان في التـاريخ البشري. فتاريخ اليهودية مليء بالثورات مثل ثورة ابن عقيبة ضد الرومان، وتاريخ المسيحية زاخر بالثورات مثل ثـورة

الفلاحين في ألمانيا في القرن السادس عشر بقيادة توماس مونزر، وثورة القساوسة الكاثوليك في أمريكا اللاتينية[8]

وهكذا اتجه حنفي لبعث الروح في محاولات الإصلاح الديني التي بدأت بالمشروع الإسلامي الذي طرحه جمال الدين الأفغاني وهو الإسلام في مواجهة الاستعمار في الخارج والقهر في الداخل، ولإعادة توزيع الثورة ولتوحيد الأمة والحفاظ على الهوية، والإسهام في قضايا التقدم وتعبئة الناس.. وبما أن هذا المشروع قد خبا لدى محمد عبده ورشيد رضا، لذلك فحنفي يحاول من جديد إعادة بناء القديم كله ليكون قادرا على مواجهة تحديات العصر والانتقال من الإصلاح إلى النهضة، وذلك بالاعتماد على سلطة العقل واجتهاد المحدثين. فالتراث ليس قيمة في ذاته إلا بقدر ما يعطي من نظرية علمية في تفسير الواقع والعمل على تطويره.. ويمكن توظيف التراث ليكون نظرية للعمل وموجها للسلوك، وذخيرة قومية يمكن اكتشافها واستغلالها واستثمارها من أجل إعادة بناء الإنسان وعلاقته بالأرض

---

(8) حسن حنفي، اليسار الإسلامي، كتابات في النهضة الإسلامية، العدد الأول، ١٩٨١.

وهما حجرا العثرة الصناعية والزراعية في البلاد النامية في التطور والتنمية.. فالثورة الصناعية والزراعية في البلاد النامية لا تتم إلا بعد القيام بثورة إنسانية سابقة عليها وشرط لها (...) فالنهضة سابقة على التنمية وشرط لها، والإصلاح سابق على النهضة وشرط لها، والقفز إلى التنمية هو تحقيق لمظاهر التقدم دون مضمونه وشرطه[٩].

أما شروط قيام النهضة العربية الشاملة فتكمن في نظر حنفي في عملية إعادة صياغة للتراث وتجديده من خلال علم أصول الدين الذي لا بد أن يستخدم الأدلة اليقينية لإثبات العقائد الدينية أي تأسيس العقيدة الإسلامية على أسس عقلية برهانية حتى يمكن فهم العقيدة وعرضها والدفاع عنها، وهو مواز لعلم أصول الفقه الذي يستنبط الأحكام الشرعية من أدلتها، كلاهما على أصول، إلا أن الأول يؤسس النظر في حين أن الثاني يؤسس العمل[١٠] وقديما قال علماء أصول الدين: إن كل الحجج النقلية حتى ولو تضافرت على إثبات

---

[٩] حسن حنفي، التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، القاهرة: المركز العربي للبحث والنشر، ١٩٨٠، ص ٩، ١٠.

[١٠] حسن حنفي، دراسات إسلامية، بيروت، دار التنوير، ١٩٨٢، ص١١.

شيء على أنه حق لا يكون ذلك إلا بحجة عقليـة واحـدة.. وسيادة العقل مسألة أساسية لدى حنفي، فإذا كان لسنج يقـول بأن وظيفة العقل تصحيحية تقويمية لشيء موجود سلفا، وأن الوحي هو الذي يمد العقل بالحقائق لأنه غيـر قـادر علـى الوصول إليها بمفرده، فإن هذه المقولات هي حـدود فلسـفة التنوير.. أما المعتزلة فقد أثبتوا قدرة العقل علـى الوصـول إلى حقائق الوحي بمفرده وهو موقف ثوري عقلاني تكـرر لدى دعاة الجناح الجذري في فلسفة التنوير بفرنسا.

وتجديد التراث الذي هو شرط سابق على النهضة هـو بمثابة قضاء على معوقات التطور والتنمية والتمهيـد لكـل تغيير جذري للواقع.. هو عمل لابد للثوري أن يقـوم بـه.. وهو في نفس الوقت عمل عقلاني. فالتراث والتجديد- حسب حنفي – (يؤسسان معا علما جديدا هو وصف الحاضر وكأنه ماض يتحرك، ووصف للماضي على أنه حاضـر معـاش (...) ولما كان التراث يشير إلى الماضي، والتجديـد يشـير إلى الحاضر، فإن قضية التراث والتجديد هي قضية التجانس في الزمان وربط الماضي بالحاضر وإيجاد وحدة التاريخ)[١١]

---

(١١) حسن حنفي، التراث والتجديد، ص ١٧.

وبالتالي فالتراث والتجديد يمـثلان عمليـة حضـارية هـي الشعور بالتاريخ والوعي به. لأن الوعي التـاريخي شـرط أساسي لاكتشاف الذات والهويـة، فلابـد أولا مـن تحديـد الوجود. فنحن لا نعيش في القرن العشرين وليس لنا عصـر وسيط وحديث، وإنما نحن في أوائل القرن الخـامس عشـر الهجري، وذلك يفرض علينا معرفة دقيقة ببعدنا التـاريخي. (إن تقدم الشعوب مرهون باكتشـاف شـعورها التـاريخي، والشعور التاريخي هو شرط الوعي التاريخي، ويبدو أن من أسباب تعثر نهضتنا الحالية التي بدأناها منذ القرن الماضـي هو أننا لم نكتشف بعد الشـعور التـاريخي فمنـذ اتصـالنا بالحضارة الغربية ونحن نؤرخ لأنفسنا بتاريخهـا وعصـور ومراحل تطورها حتى لقد تصورنا أنفسنا في القرن العشرين (...) إن غياب البعد التاريخي في تراثنا القديم أورثنا غياب الوعي التاريخي في وجداننا المعاصر، ويكون السؤال: لماذا غاب مبحث التاريخ في تراثنا القديم هو بداية الكشـف عـن الجذور من أجل إعادة بناء شعورنا القومي، وينشأ السـؤال

عندما تتوقف الحضارات وتبدأ بالنهوض من جديد.. لـذلك كانت فلسفة التاريخ مواكبة لنهضة الشعوب)[١٢].

شرط آخر أساسي للنهضة هـو المبحـث الإنسـاني، فالإنسان وإن كان حاضرا في كل علم أو مذهب أو فكرة في تراثنا القديم، لكنه مغلق بمئات الأغلفة اللغويـة والعقائديـة والإلهية والتشريعية التي إن أمكن إزاحتها، فسيظهر الإنسان على أنه أساس كل دين وشريعة: (إن المهمة ليسـت سـهلة لأنها تبغي نقل تمركز الحضارة من الله إلى الإنسان وتحويل قطبها من (علم الله) إلى (علم الإنسان) (...) فالإنسان إمـا محاصر بين الطبيعيات والإلهيات، وإما يفك حصاره ولكنـه يتسطح وهو يئن تحت كم هائل من الطبيعيـات والإلهيـات، وهو نفس ما يحدث الآن في وجداننا المعاصر من حصـار للإنسان بين السلطة وضنك العيش)[١٣].

لا تقوى النهضة بدون توفر شروطها السابقة الذكر، ولا تحدث بدون الاستعانة بتلك الاجتهادات، فلابد من التنوع في إطار الوحدة، ولذلك فإن برنامج حنفي الوطني هو تحويـل

---

[١٢] حسن حنفي، دراسات إسلامية، ص ٣١٧ – ٣١٨.

[١٣] المصدر نفسه، ص ٣٠٩.

تجديد التراث من نظرية في الثقافة والحضارة إلـى نظريـة سياسية تقوم على أساس الدعوة للإبقاء على الاختلافات فـي الأطر النظرية.. وإيجاد برنامج عمل واحد عن طريق رصد أهم القضايا التي تشغلنا جميعا[١٤]. فالصواب النظـري قـد يكون متعددا، ولكن العمل يحتاج إلى اتجاه ومدرسة واحـدة، ولقد عرف حنفي مشروعه في (اليسار الإسلامي) بأنه يمكن أن تلتقي عليه الاتجاهات التحديثية كلهـا: الأخـوة فـي الله (الإخوان المسلمين) والأخوة فـي الـوطن (الماركسـيين) والأخوة في الثورة (الناصـريين) والأخـوة فـي الحريـة (الليبراليين). وهو لا يجد حرجا في أن يعتبر نفسه إسـلاميا أو عربيا أو عالميا أو قوميا دينيا أو علمانيا، فالإسلام ديـن وقومية، عربي وعالمي، دين ودولة.. و (اليسار الإسـلامي) لا يعبر عن ثورة المسلمين وحدهم بل هو أيضا ثورة أهـل الكتاب الذين يمثلون جزءا من تراث الأمة وتاريخها الوطني

---

(١٤) يعدد حنفي أهم القضايا هذه -: قضايا تحرير الأرض، قضايا القهـر والطغيان والدفاع عن الحريات، قضايا الفقر والغنى وضرورة إعـادة وتوزيع الدخل على الأمة، قضايا الوحدة والتجزئة، الهوية والتغريـب، التقدم والتخلف، وتعبئة الجماهير وتجنيد الأمة.

ونضالها ضد الاستعمار، بل إن طليعـتهم الثوريـة تعتبـر الإسلام تراث الأمة)[١٥]

تلك هي معالم فلسفة حنفي الثورية التي يعتبرها ماريان فان دين بوم قوى محركة لإعادة وعي البروليتاريا الإسلامية من أجل إقامة مجتمع عقلاني بلا طبقات، بحيث يتم تحويـل الدين من الثيولوجيا إلى الانثروبولوجيا. والإسلام لدى حنفي ليس نظرية للبؤساء ولكنه فكر معارضة هذا البؤس[١٦].

لكن قبل أن نختتم هذا التقديم وننتقل إلى الحوار المباشر مع حسن حنفي، لابد أن نشير إلى حملة النقد الواسعة التـي بدأ يتعرض لها فكره في الآونة الأخيرة من أصحاب اليمـين وأصحاب اليسار على حد سواء. وإذا كان النقد من اليمين لم يضف جديدا، بل جاء تكرارا للمواقف السلفية التقليدية التـي ترفض أية محاولة للتفسير اليساري للإسلام، ولو من داخله، فإن أخطر الانتقادات وأحدثها هي التي جاءت بقلم د. فـؤاد زكريا الذي نشر مؤخرا مقـالا عـن (مسـتقبل الأصـولية

---

(١٥) حنفي، اليسار الإسلامي، العدد الأول ١٩٨١.

(١٦) رسالة دكتوراه قدمها ماريان فان دين بوم إلى جامعة أمسـتردام فـي آيار / مايو ١٩٨٤ بعنوان تحرر الإنسان في المنظور الإسلامي.

الإسلامية)[١٧] حمل فيه بعنف، وفي خمس وثلاثين صفحة من القطع الكبير، على الموقف الأصولي الإسلامي لحسن حنفي، آخذا عليه، من موقع علماني، جملة من التناقضات والمواقف المداهنة للفكر الديني، واللاغيـة للعقـل النقـدي وللعصـر ولتوطراته، والمتعاطفة مع (الصحوة الإسلامية) التي لا تمثل (مظهرا لمزيد من التقدم في الوعي الإسلامي، كمـا يـزعم المنتمون إليها، وكما يجاريهم كثير من الكتـاب، المحليـين والأجانب، الذين ينافقونهم لأسباب متباينة.. بل هي، في واقع الأمر، بصورتها الراهنة، مظهر لذلك التخلف الـذي سـاد العالم الإسلامي، والعالم العربي بوجه خاص، في السبعينات من هذا القرن. فالصحوة هي الانعكـاس المباشـر للهـزائم والإحباطات في وعي الناس، وليسـت رد فعـل عليهـا أو محاولة لتجاوزها، وليس الهروب إلـى الشـعائر الشـكلية وإغماض العين عن المشـكلات المتجسـدة فـي الماضـي والتغاضي عن كل ما أتت به قرون عديـدة مـن تحـولات وتغيرات، ليس هذا كله سوى فكر الهزيمة نفسه وانعكـاس

---

(١٧) مجلة فكر، العدد ٤، ديسمبر ١٩٨٤، ملف عن (الفكر الديني والفكـر العلماني)، ص ١٦ – ٥٠.

للإحباط العام الذي ولدته على وعي البشر.. وتعبير مباشـر عن بلوغ الانحطاط الفكري ذروته.. فالجو العقلي نفسه الذي جعل من ثروت أباظة أديب مصر الرسـمي، ومـن أنـيس منصور ومصطفى محمود أهم المفكرين والفلاسـفة، ومـن أحمد عدوية أكثر الفنانين شعبية، هو الذي جعل من التطرف الديني أوسع الاتجاهات انتشارا بين الأجيـال الجديـدة مـن الشباب)[18]

- سؤال: أثارت قراءة حسين مروة للتراث في كتابـه (النزعات المادية في الفلسفة العربيـة – الإسـلامية) عـام ١٩٨١ كثيرا من الجدل واعتبرت المحاولة ضمن المشـاريع الفكرية المهمة. كيف تقيمون هذا العمل؟

* د. حنفي: بادئ ذي بدء يجب التمييز بين فئتين مـن الناس: الأولى عاش أصحابها طـويلا فـي الأيـديولوجيات العلمانية ومنها الماركسية والليبرالية والقومية والاشـتراكية وتيار الوطنية.. والفئة الثانية هم من عاش التجربة الإسلامية وتطور داخلها. بالنسبة للأولى فقد اتجه بعض أصـحابها – بعد الفشل النسبي الذي ألم ببرنامجها فـي عالمنـا العربـي

---

[18] المصدر نفسه، ص ٤٩.

الإسلامي- إلى الإسلام، وبدأ يجـرب الإسـلام ويكتشـف ايجابيات كان في غفلة عنها، ومن هؤلاء خرجت مجموعـة من الدراسات أشهرها دراسة حسين مروة والطيب تيزينـي. وهي دراسات تقرأ التراث الوطني الإسلامي مـن منظـور الأيديولوجية التحديثية العلمانية.. مع عدم القطع بين الماضي والحاضر. بل هي ضمن محاولة تجديد الماضي بانتقاء جزء منه.

إن هذه المحاولات مهمة، فهي تلقي الضوء على جوانب من التراث الإسلامي، وربما تضـفي عليـه بعـض الآراء الاستشراقية التي كانت تقال عن التراث ولكن بدون أن يكون لها دلالة.. وهي وإن كانت محاولة تحليلية وضعية فإنهـا لا تفيد الجماهير بشيء.. قد تحمس بعض الشباب لقراءة التراث من منظور خاص يقول إن البحث عن النزعات الماديـة لا يشترط الذهاب إلى الغرب فقط، بل قد نجد هذه النزعات في التراث الإسلامي نفسه.

إن مساوئ هذه المحاولات أكثر من محاسـنها، وذلـك لعدة أسباب أولها أنها محاولة للقفز على التراث من الخارج، أي إسقاط مذاهب خارجية على التـراث الإسـلامي. مـرة

ماركسية وأخرى ليبرالية ثم وجودية فقومية فوضعية وظاهراتية. وفي هذه الحالة نسقط على التراث الإسلامي وجهات نظر غربية وننسى خصوصية التراث الإسلامي. وبالتالي تنشأ صراعات حول قراءة التراث لا تمت بصلة إلى صراعات التراث العربي الإسلامي الداخلية بقدر ما تعبر عن مناهج متباينة اتخذت من التراث ذريعتها للتصارع. إن عيب هذه المحاولات يكمن في كونها قراءة غربية بمنهج غربي.

أما العيب الثاني فهو في دراسة جزء من التراث، اقتطاعه وتسميته ماديا أو علميا أو طبيعيا أو داروينيا أو تاريخيا، وتقديم هذا الجزء على أنه التراث. مع أن هذا الجزء يقابله جزء آخر متصارع معه في حيوية متميزة للتراث الإسلامي. وحتى ما سمي بالنزاعات المادية التي أسماها القدماء بالنزعات الطبائعية أو أصحاب الطبائع أو مدرسة الطبائع أو الطبائعيين مثل النظام والجاحظ ومعمر وثمامة والهشامين.. وكل هؤلاء لا يرون غضاضة على الإطلاق بالإيمان بالله ذاتا وصفات وأفعالا، علما وقدرة وحياة، سمعا وبصرا وكلاما وإرادة.. الخ.. وفي نفس الوقت

يؤمنون بالطبيعة وبقوانين الطبيعة، وبأن القانون ثابت عـام شامل، وأن النار تحرق، وأن الثلج يذوب، وأن الحديد يتمدد بالحرارة، ويؤمنون بالقوانين العقلية والرياضية، وأن ١ + ١ = ٢، وأنه لم يحدث أن ١ + ١ = ٥، ولم يحدث أن كانـت النار قادرة على تبريد الماء بل على تسـخينه.. هـذه هـي قوانين الطبيعة عندهم. فلو قلنا إن الله قادر على أن يجعل ١ + ١ = ٥ أو أن يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا إلى آخـر هذه الأشياء، فلن يكون ذلك إلا لتبريـر المعجـزة، مـع أن المعجزات ليس بالضرورة كسرا لقانون الطبيعة، فعندما كان موسى وعيسى يحاولان صدم الشعور اليهودي لإثبات أن الله قادر بالمعجزات، كان ذلك بإذن الله، فاليوم ليست لنا حاجـة إلى كسر قوانين الطبيعة لإثبات الإيمـان بـالله وبقدرتـه. الإسلام تحدى بالقرآن أن يأتي بشر بمثله وهو تحـد خلقـي إبداعي فني فكري تشريعي، أما قوانين الطبيعة فهـي ثابتـة كسنن الله في الكون.

إن العيب الثاني هذا يكمن في اقتصار هذه الدراسـات على نظرة مادية طبائعية علمية للعالم، وإغفال مسألة كونهـا في صراع مع نظرة إيمانية أقـل علميـة، وهـي النظـرة

الأشعرية التي ترى أن الله قادر على تغيير قوانين الطبيعـة، وقادر على أن يجعل الشمس تشرق من الغرب وتغرب مـن الشرق. ومن هذا المنظور خـرج التيـار الآخـر العلمـي الإسلامي الطبيعي، ونشأ حوار بين الاثنين كانـت نتيجتـه الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي، إن الغيب في هـذه الدراسات هو عدم رؤيتها للحركة الداخلية في التراث.

أما العيب الثالث والأخير فهو أن هـذه الدراسـات لا تخرج عن وسط المثقفين في إطار الاهتمامات والتجديـدات التي تروج بين الحين والآخر في كل عهد وزمان وتتعدد إلى وجودية مرة وشخصانية أخرى وظاهراتيـة ثالثـة.. الـخ. ولكنها لا تتحول إلى حركة جماهيرية عامة كأفكار الأفغاني ومحمد عبده وعلال الفاسي وعبد الكريم الخطابي وجمعيـة العلماء في الجزائر والطاهر بن عاشور في تـونس. بحـث هؤلاء جميعا في داخل التراث وأخذوا التراث ككـل ولـيس كجزء وفي نفس الوقـت كتبـوا لـيس لجمهـرة المثقفـين المحدودين فحسب، بل لحركة جماهيرية واسعة، وتحولـت أفكارهم إلى جيل ثان وثالث، بل أصبحت حركـة إسـلامية ناشطة ومتجدده، أما النزعات المادية في الإسـلام أو مـن

التراث إلى الثورة فهما سيبقيان في أطر محدودة لا تحـرك الجماهير ولا تنتقل إلى جيل لاحـق. وأخيـرا فـإن هـذه الدراسات تبقي تغريبية، غربية، تأتي مـن خـارج التـراث الإسلامي ولا تنبع من داخله، كما لا تأخذ بعين الاعتبار كلية وشمولية التراث الإسلامي وحركته الداخليـة، كمـا تهمـل الجماهير صاحبة المصلحة الحقيقية في تجديد التراث وإعادة قراءته.

- سؤال: يرى الطيب تيزيني من خلال قراءته للتراث أن هناك ثلاثة مواقف مـن التـراث: الأول هـو موقـف العصريين الذين أخذوا فكرهم من خلال تبلور العلاقة بـين الغازي والمغزو، أي المقلَد والمقلِد. وهؤلاء قـد ارتبطـوا بالغرب إلى درجة أنهم ينظرون إلى الأصالة وكأنهـا لغـم موجه للمعاصرة، لذلك رفضوا التاريخ والتـراث العربـي الإسلامي رفضا قطعيا، منهجيا وأخلاقيا. أما الموقف الثاني فهو: موقف السلفيين وهم النقيض الكامل للأولين، والموقف الثالث هو موقف التلفيقيين الـذين يجمعـون بـين الاثنـين ويبشرون بولادة وتبلور البديل المطلوب، والنتيجة التي يصل إليه تيزيني هي أنـه لا إشـكالية هنـاك اسـمها الأصـالة

والمعاصرة، بل هناك التباسات سلفية وعصرية وتلفيقية. إن موقف التيزيني هذا هو جزء من قراءاته الخاصة للتـراث، كيف تقيمون هذا الموقف وما الذي تأخذونه علـى مشـروع التيزيني الفكري؟

* د. حنفي: إن هذه التقسيمات ليست جديدة في شـكلها العام، فهي موجودة وشائعة عند أغلب الدارسـين، وهـي لا تعبر عن واقع بقدر ما تعبر عن فكر. لقد قام السـيد رشـيد رضا في كتابه (الخلافة العظمى) بنفس الشيء إذ تكلم عـن حزب الخلافة أو السلفيين وعن حزب التجديـد الغربـي أي العصريين، ثم حزب الإصلاح. أن هذا التقسيم الثلاثي شائع ومعروف لدى الجميع. أما الحكم بأن تيار التجديـد الغربـي والتيار السلفي جاء كل واحد منهما كرد فعل على الآخر فهو حكم قد وقع ضحية العلمانية، حكم منقطع الصلة بالتراث، إنه ليس موقفا من التراث ولكنه إنكار لهذا التراث، لا يوجد في الأساس موقف كهذا، فحتى لو تفحصنا ذلك عند مـا يسـمي بفكرنا المعاصر وممثليه: شـبلي شـميل والتيـار المـادي الداروني. حتى هؤلاء كانوا يرون في التـراث الإسـلامي

جوانب ايجابية كثيرة تساعد الأمة على النهـوض، وهـم لا يقفون كنقيض كامل للتراث.

إن في فكرنا العربي المعاصر تيارا مقلدا للغرب، ولقد سبب المغالون في هذا التيار ردة فعـل لـدى معارضـيهم أساسها رفض لكل ما يأتي من الغرب.. هذا يعني أنه لـولا الحركات التغريبية في عالمنا الإسلامي لما نشأت الـدعوات الرافضة للغرب، ولا يخرج الأمر عن هذه الحـدود. يبقـى التيار الذي سماه التيزيني بالتلفيقي. إن من الظلم أن نسـميه تلفيقا، لأن التلفيق لا ينتج فكرا أصـيلا مبـدعا. إن هنـاك مطلبين، الأول هو الدفاع الهوية، والثاني مواجهـة العصـر والدخول في تحدياته الرئيسية. فإذا كانـت المنـاداة بهـذين المطلبين تلفيقا، فهذا معناه إننا كلنا ملفقون، كلنـا نريـد أن نحمي تاريخنا وتراثنا وأن نتطور من خلال التواصل وليس من خلال الانقطاع، ولا نريد أن نكون تركيا أو بولنـدا. إن مسئولية الإنسان عن تراثه ومواجهة تحديات العصر ليسـت تلفيقا بل اجتهاد تقره الشريعة الإسلامية.. مسئولية من هـذا النوع هي أساس الاجتهاد في العقيدة. إن التلفيق كلمة تحتوي على نوع من الإدانة. إن هذا التيار ليس جديدا أيضـا فقـد

سماه رشيد رضا (حزب الإصلاح) وسماه الأفغاني (الحزب الإسلامي الوطني) ونسميه نحن (اليسار الإسلامي)، ويسميه كثير من الأخوة (الإسلام السياسي). إن هذا ليس تلفيقا أو توفيقا. فإنا مسلمون، وهذا حكم واقع، ونحن منفتحون في الوقت نفسه على قضايا العصر، وهذا أيضا حكم واقع. ونظرا لسيادة أجهزة الإعلام على التوجيه الإسلامي ونظرا لأننا بقينا مدة طويلة في عصور تخلف وانحلال فقد تصورنا بأن الإسلام مضاد للتقدم وللعصر، كما بين ذلك محمد عبده في كتابه المشهور (الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية). بسبب هذا الإرث الذي ورثناه والذي أدخل في الأذهان أن الإسلام شيء والتقدم شيء آخر، نرى اليوم أن أية محاولة لقراءة إبداعية في الإسلام تأخذ بعين الاعتبار قضايا العصر تتهم بالتوفيقية، وكأنه لا مصالحة ولا تعاون ولا صلة بين الماضي والحاضر، بين متطلبات الهوية ومتطلبات الانفتاح على طبيعة العصر.

أقول إذن كلما استنار العقل وكلما شعر الإنسان بأهمية المطلبين قل حكمه على هذا التيار بأنه تلفيقي.. ومع ذلك فهناك من يحاول أن يجمع بين الإسلام وقضايا العصر

بطريقة تطعيم خارجي مصطنع، من خلال تطعيم بعض الجوانب في الفكر الإسلامي والشريعة الإسلامية ببعض النظريات الحديثة، فإذا كان هو المقصود، فإنه يستحق أن نقول عنه إنه تلفيق.

والحقيقة أن أي محاولة في الاقتصاد أو فائض القيمة أو الأجر أو السياسة إلى غير ذلك تبحث في التراث عن تأييد لها إنما تدل على نقص في الوعي بالتراث الإسلامي. ففي هذا التراث تستطيع أن تجد كل ما تريده. فإذا كان للإنسان دور إصلاحي في مجتمعه، فإنه لا يحتاج بالضرورة إلى منهج جدلي أو مادي ولا إلى نظرية في فائض القيمة ولا في الصراع الطبقي. وإذا أردنا أن نغير الأمة وأن نجد أدوات تساعدنا على النهضة والإصلاح، ففي التراث الإسلامي بكل علومه أدوات ووسائل تساعد على ذلك وتهيئ للدخول إلى ساحة تحديات العصر.

وبالتالي فكلما زاد وعينا بالتراث قلت حاجتنا إلى هذا التطعيم. فالتجديد إنما يكون من الداخل كما فعل بدافع المسئولية الإمام الشافعي وأبو حنيفة ومالك وابن حنبل وكل الفقهاء القدماء وفي ذهنهم الأصول الإسلامية وأمام أعينهم

القضايا الرئيسية لعصرهم. نجدد ونبدع ونجتهد، وللاجتهـاد نماذج عديدة، فعندما رأى ابن حزم ضياع المسلمين بالأندلس أصدر فتاوى فقهية في الأرض والعناية بالتجـارة ومقاومـة العدو، وعندما رأى ابن تيمية الشيء نفسه لما هاجم التتـار العالم الإسلامي وكادت الحضارة الإسلامية أن تنقرض فـي آسيا وفي العراق والشام أصدر أحكاما فقهية شرعية بمحاربة العدو والدفاع عن الديار. وهكذا، فكلما وعي الإنسان التراث القديم وزاد إحساسه بمشاكل العصر لجـأ إلـى التوفيـق أو الاجتهاد، وأنا في كل مرة أجد أنني بحاجة إلى أن أستعير أو أقتبس بعض النظريات الحديثة لأجعل ثقافتي الإسلامية قادرة على مواجهة تحديات العصر، ألجأ إلى هذا الاجتهاد. ولقـد فعل العلماء القدماء هذا حتى في مسألة التـأويلات للعقائـد الدينية، فلم يروا حرجا على الإطلاق في الحديث عن الله في صفاته وذاته وأفعاله باعتبار أن ذلك كله مجاز وكـل ذلـك قياس للغائب على المشاهد، وأن الإنسان هو الحـي المـتكلم المريد بالحقيقة، وأن الله هو قادر حي عليم مريد بالمجـاز، لأننا لم نر الله ولم ندرك صفاته لا بالحس ولا بالتجربـة ولا بالعقل، وشتان بين الإنسان المخلوق المحدود الميت الفـاني

وبين الله الذي لا يموت. فكل محاولة للوصف هـي قيـاس للغائب على الشاهد، هكذا قال القدماء إنني لا أحتـاج إلـى هيجل وماركس أو فيورباخ لاكتشاف أن الإنسان يصـف الله بما يصف به نفسه.

أقول إذن إن التجديد من الداخل وليس من الخارج، الثقة بالذات والقدرة على الإبداع، والقدرة على أن يتحمل الإنسان مسئولية ما تحمله القدماء من قبل، وإنا لسنا نقلة علوم لا من القدماء ولا من الغرب المعاصر، لكننا مبدعو علوم. وأنه في حقيقة الأمر فإن النهضة العربية الإسلامية الحالية لن تسـير خطوة إلى الأمام أكثر ما دامت تعتبر نفسها ناقلة علم وكأنها تلميذ ينقل من أستاذ على الدوام. إنني أؤكد بـأن المسـئول الأول عن نشأة الحركات السـلفية المعاديـة للغـرب هـم التغريبيون في مجتمعاتنا، إنهم هؤلاء الذين يقولون بضرورة تغريب التراث لأنهم لا يثقون بـالتراث ولأنهـم منبهـرون بالغرب.

- سؤال: يرى د. محمد عابـد الجـابري أن إشـكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر لا تعني بالضرورة وضعا طبقيا ولم تعبـر بالضـرورة عـن

مصالح طبقية، وإن الفكر يتمتع باستقلال نسبي عن الواقـع وإن الإشكالية في الحقيقة هي في جزئها الأعظم ثقافية، كيف ترون ذلك؟

* د. حنفي: تكمن أهمية ما يقوله د. الجابري في كونه يتجاوز التحليلات الماركسية التقليدية للتراث التي قـام بهـا حسين مروة والطيب تيزيني وصادق العظم وغيـرهم. إنـه يحاول بقدر الإمكان أن يبين أن هناك بنية فوقيـة تتجـاوز التحليلات الطبقية، وأن التراث الإسلامي يخترق ما يسـمى بالتحليل الطبقي. إن تحليلات الجابري هـذه أكثـر أصـالة وإبداعا وأكثر اتجاها نحو خصوصـية المجتمعـات التـي ندرسها... ومع ذلك يبقي السؤال ماذا نفعل فـي المسـتوى الثقافي؟ هذا فقط يبدأ – ربما – نوع من التمايز بيني وبـين الجابري.

إن وجود المغرب كبلد عربي إسلامي قريبا من الغرب وفرنسا بالذات جغرافيا، جعل تحليلات الثقافة تخضع لكثيـر من اتجاهات العلوم الإنسانية في الغرب، كعلم النفس وعلـم التاريخ والتيارات الفلسفية الأخرى في الغرب.. الخ، ومن ثم إذا ما حللوا الثقافة فإنهم يقعون ضحية بعض المفاهيم التـي

تفرض نفسها في النهاية على المستوى الثقافي مثل القضـية الابستمولوجية (المعرفية)، مثل القراءة والفصل بين القـراءة والمقروء. ومع ذلك تظل أهمية دراسة الجابري في كونهـا تحاول أن تجعل من العقل العربي المعاصر المصب للتراث العربي القديم، وفي الوقت نفسه البداية للدخول في التحديثات الأساسية للعصر. يكفي موقف الباحث مع مجتمعـه.. هـذا الموقف لا ينفصل عن موقفه كعالم، وبالتالي يجـد المفكـر نفسه وقد وحد في شخصيته بين العالم والمواطن، بين المفكر والمناضل، وهذا ما يتميز به الجابري باعتبـاره أحـد رواد الفكر العربي المعاصر وفي نفس الوقـت أحـد المناضـلين العرب المعاصرين.

- سؤال: بعد الحديث عن مشاريع حسين مروة والطيب تيزيني ومحمد عبد الجابري نتطرق إلى المشروع الفكـري الرابع وهو مشروعكم لقراءة التراث، وهو ما يطلـق عليـه البعض (القراءة من الداخل) إلى أيـن وصـلتم فـي هـذا المشروع وكيف تقيمون بداياته؟

* د. حنفي: لقد حاولت في حقيقة الأمر – قدر الإمكان – أن أبدأ بداية جذرية وألا أتسرع لأن في ذهنـي كبـوات

الحركات الإصلاحية الحالية منذ ابن تيمية والأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا والجماعات الإسلامية.. الـخ. أنا أريد أن أجعل الإسلام حركة ثورية مسـتمرة وأن نـتعلم جيلا بعد جيل وأن يحدث تراكم للخبرات الإسـلامية، لكـي نكون رصيدا ضخما يمكـن أن يحـدث حركـة للخبـرات الإسلامية، لكي نكون رصيدا ضخما يمكن أن يحدث حركـة كبيرة، فإلى جوار العرب توجد حركة تمكنت جيلا بعد جيل من الانتقال من حركة صهيونية ثقافية إلى حركة صـهيونية سياسية ثم إلى تأسيس (دولة) ومنها للانطلاق إلـى التوسـع إلى أن وصلت إلى (الدولة الإمبريالية) وتطرح نفسها اليـوم كبديل كلي لدول المنطقة العربية. إن هذا التحدي المتنـامي إلى جوارنا يدفعنا إلى الإسراع في النهضة. ولابد من معرفة أسباب كبواتنا المتلاحقة تاريخيا. فنحن فـي كـل محاولـة للنهضة نكبو، فمحمد عبده أقل من الأفغاني، ورشيد رضـا أقل من محمد عبده، وجماعة الجهاد أقل من الكل.. الخ. مـا السبب؟ بالنسبة إلي حاولت أن أبدأ منذ البداية: كيف نشـأت الحضارة الإسلامية الأولى. كيف نشأت العلوم: علوم العقيدة، علوم الشريعة، الحكمة، التصوف، والعلوم النقلية الصـرفة:

القرآن، الحديث، الفقه، السيرة، التفسـير، والعلـوم العقليـة الصرفة كالطبيعة والكيمياء والرياضيات، والعلوم الإنسـانية كاللغة، الأدب، الجغرافية، التاريخ.. الخ. وكيف استقرت هذه العلوم لأنها هي التي ما زالت تواجه أجهزة الإعلام والتـي يقرأها الطلاب في المدارس والتـي يعلمهـا المشـايخ فـي المساجد.

أقول إذن إن التراث الذي كتب ودون من هذه العلـوم غلب عليه في النهاية تيار واحد وهو الذي يسـمى بالتيـار الإسلامي المحافظ: الأشعرية في علم العقيدة، والفقـه عنـد الحنفي أو الشافعي، وكتب السيرة الكبيرة المعروفة.. الخ. إن هناك تيارا واحدا من تراثنا القديم قد استقر وهو تيار الدولة بعد أن كان لابد للدولة أن تستقر وتـرفض كـل التيـارات الفكرية الأخرى المعارضة مثل الخوارج، الشيعة، المعتزلة. هذه كانت الصورة التي أمامي.. وكان لابد من طرح السؤال التالي: هل من مصلحة المسلمين تأييد الدولة وتأييد أنظمـة الحكم والترويج لتراث الدولة كما كان الحال دوما أم لابد من محاولة تقديم آخر، فكر تـراث أقـرب إلـى إذكـاء روح المعارضة عند الناس حتى تتمكن من أخذ حقوقها المفقودة.

حاولت إذن النظر إلى الأزمة التي نعيشـها فـي هـذا العصر وانحسار دور الجماهير وضياع حقوقها، ومن خلال بحثي في التراث القديم وجدت الحل في تراث المعارضـة. لكن تراث المعارضة دون وكتب من قبل مؤرخي السـلطة، وهو التراث السائد، فكان علي إعادة كتابة التراث كله حتـى أستطيع أن أحجم تراث السلطة، وأبرز التيـارات العقلانيـة عند المعتزلة والخوارج، أو التفاؤلية المستقبلية عند الشـيعة. حاولت ذلك وفي ذهني حال الناس الآن، الـذين لا يزالـون يتصرفون وفق ثقافتهم الإسلامية، على الرغم مـن تـرويج أجهزة الإعلام الغربية لثقافتهم، إلا أن الإسلام بقي عميقا في قلوب الناس، ولكن المؤسف هو أن التراث الـذي يعتمـدون عليه في تصوراتهم للعالم هو التراث الـذي لا يـدافع عـن مصالحهم. خذ مثلا أنا. أنني أريد أن أجعل الناس يفكـرون ويعتمدون على العقل، لكن التراث السائد الذي تعلمنـاه فـي المساجد هو التراث الذي يعطي الأولوية للنقل على العقـل. أنا أريد أن أذكي في الناس روح المسئولية والاعتماد علـى النفس، لكن التراث الذي تعلمناه من المشايخ وأجهزة الإعلام الذي تروجه الدولة هو التراث القدري الذي يقول بأنه مهمـا

فعل الإنسان فإن الله يفعل ويقدر له كل شيء. إنها كلمة حق يراد بها باطل، أنا أريد أن أذكي في روح الناس المعارضة للحكم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأن الحاكم يمكن أن يعزل أو يخلع في الإسلام إذا تهاون في الدفاع عن البلاد، إذا لم يحصن الثغور، إذا لم يدافع عن الحدود، إذا تصالح مع الأعداء. كل ذلك وارد في الفقه الإسلامي، لكن الذي ساد في المساجد وفي أجهزة الإعلام وفي كتب الفقه هو في إطاعة أولي الأمر، فأصبحت الثورة جريمة.

أقول إذن كانت هذه هي الصورة التي أمامي، فأردت أن أعيد كتابة التراث الإسلامي، حتى يتعرف الناس على أشياء هم في حاجة إليها، كي يأخذوا حقوقهم بأيديهم، فبدأت بعلم العقيدة وسأصدر (من العقيدة إلى الثورة) بعد شهر أو اثنين، أحيي فيه العقيدة الإسلامية من جديد، وأقول إن الله ليس بعيدا عن قضايا الاحتلال والتخلف والغنى والفقر والهوية والتغريب والوحدة والتجزئة وتجنيد الناس. فالله قريب جدا منك وأنا أريد أن يدافع الفلاح باسم الله عن أرضه، والفقير يدافع عن قوت يومه باسم الله، والمظلوم يأخذ

من الظالم حقه باسم الله، حتى يتحول الإسلام إلى قلوب الناس من جديد، إلى نشاط وفاعلية وطاقة بدل أن نتركه مختزنا في القلوب لا يظهر إلا في العبادات والشعائر وفي مواسم الحج التي تخدم في أحيان كثيرة المركز الاجتماعي للحاج.

إنني أقرا التراث الإسلامي القديم وفي ذهني أغلبية الأمة، الأغلبية الصامتة. ومعظمنا أمي، أمي ليس بمعني القراءة والكتابة، وإنما لافتقادنا الباع الطويل في الثقافة. أنا أكتب لجماهير الأمة، أي للناس البسطاء في الأمة، ليس للأقلية المثقفة، سواء كانت إسلامية أو غربية، أكتب وفي ذهني هؤلاء الناس الذين يريدون أن يظلوا مسلمين ومستقلين، قادرين على العيش في مجتمع تسود فيه العدالة والحرية. لا حل أمام المسلمين إلا عندما يظهر الله في قلوبهم لصالحهم وليس ضدهم. فالله سند للفقراء وهو سبيلهم للحصول على الخبز والحرية وعلى الوحدة والتقدم.. وإلا فإن السلطة ستستغل الدين لإبقائهم في ظروف الاستكانة، حيث تشيع لدى بعض المتصوفة مقولات الصبر والرضا والقناعة والزهد والخوف.. الخ.. فهل يا ترى الفقر فضيلة أم

رزيلة؟ وهل الغنى فضيلة أم رذيلة؟ إن للقرآن الكريم يقـول فما أصبركم على النار. ونحن فـي نـار، نـار الاحـتلال والخوف والتخاف والهزيمة والضياع، ونار التشتت، فكيـف أدعو الناس إلى الصبر والتصوف والقناعـة؟ كيـف أقتنـع بمجتمع يقوم على السلب والنهب؟ إنني أعيـد بنـاء علـوم التصوف، وأحول القيم السلبية إلى قيم إيجابية للحفاظ علـى الحقوق والدفاع عن المساواة الاجتماعية وإقامة مجتمع يكون العمل وحده هو مصدر القيمة.. الخ.

نفس الشيء ينطبق علـى مسـألة تطبيـق الشـريعة الإسلامية.. إن الشريعة أتت دفاعا عن الحقوق قبل أن تكون التزاما بالواجبات، فلا يوجد قانون ولا حد إلا فيهما دفاعـا عن النفس وعـن العقـل وعـن المـال وعـن العـرض والشرف..الخ. فلم يوضع الناس من أجل القـانون، ولكـن القانون والشريعة وضعا من أجل الناس، وبالتـالي فتطبيـق الشريعة الإسلامية في بعض البلدان هو كلمة حق يراد بهـا باطل، فليس الهدف من الشريعة هو تخويف النـاس والقتـل وقطع اليد والرجم.. الخ، وكأنه لا يوجد في الشريعة سـوى الشرطة والعسكر والجند والإرهاب. وبذلك يضعون الإسلام

كوسيلة للضغط الاجتماعي وليس للتغير الاجتماعي والمطالبة بالحقوق. وهكذا تستخدم قوانين تطبيـق الشـريعة كأسـلحة للقهر. فالذي يفترض أن تقطع يده ليس هو السارق لرغيـف الخبز بل سارق الملايين، والذي يرجم ليس هـو الإنسـان العادي وأجهزة الإعلام مليئة بالإثارات الجنسية، لكن مسئول الإعلام. إنني أحاول أن أعيد بناء ما هدموه، وأستخرج مـن الشريعة أحكاما موجودة فيها، حتى يكون هناك تواصل بيني وبين القدماء، وحتى تستطيع الأمة أن تجد فيها دفاعـا عـن مصالحها.

الأمر نفسه يتكرر في مسألة الحكمة والفلسفة، فبدلا من البحث في الإشراق والعقل الفعال والاتصال بالعقل الفعـال والاطمئنان بالقلب والسعادة في الرؤية الإلهية، وكـل هـذه التصرفات الإشراقية، بحيث إنني لو زرت جنوب السـودان لوجدت أن الإسلام هناك هو الطرق الصوفية حيـث تتـرك الأرض الخصبة والميـاه لكـي يستصـرخ النـاس وهـم يتراقصون ليلا اتحادا بالله وتوحيدا به. من كل ذلك أحـاول أن أعطي الناس مجموعة من الكتابات الإسـلامية تـدفعهم للعمل والتقدم، كيلا يتهموا الإسلام بالرجعية ويلجئـوا إلـى

الغرب بحثا عن حلول في الماركسية أو الليبرالية أو القومية أو الوطنية. إن الإسلام قوة وطاقة محركة باتجاه النهضـة، إسلام الشعوب المستضعفة، الإسلام الحقيقي، لـيس إسـلام الملوك والسلاطين والأمراء وناهبي أموال المسلمين.

إذن فمشروعي يهدف إلى الأصالة، إلى إعادة الحيويـة للحركة الإصلاحية.. التي ربما اقتربت هـذه المـرة مـن الاعتزال، صحيح أن محمد عبده يقـول إن الإنسـان حـر ويختار ما يريد ومسئول، وعقله قادر على التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح، لكن أحدا لم يحاول أن يتجرأ أكثـر، أن يعيد تصور العقيدة الإسلامية وفي ذهنه تحريـر الأرض وتوحيد الأمة وتحقيق العدالة الاجتماعيـة والقضـاء علـى الاستبداد والقهر.. الخ.. إنني أريد إسلاما ينفع الناس. ولربما لو عشت بعد مئة سنة لقلت شيئا آخر، ولو عشت قبل مئـة سنة لقلت أيضا شيئا آخر، ولو عشت في عصـر الغزالـي لكتبت إحياء علوم الدين، لكنني الآن لا أكتب إحيـاء علـوم الدين، أكتب إحياء علوم الدنيا؛ لأن الأمة بحاجة إلى علـوم دنيا.. إلى صناعة وتجارة وزراعة وأجهزة عسكرية..الـخ.

إن مشروعي هو إعادة التراث وبناؤه بحيث لا ينفصل الإنسان وهو يقرأ تراثه عن ماضيه ويهرب إلى الغرب.

ذلك هو البعد الأول في مشروعي أما البعد الثاني الذي أرجو أن أبدأه قبل أن تنقضي عشر سنوات وهو دراسة الغرب وتحجيمه طالما أن الغرب فارش ذراعيه يضمنا نحوه ونحن ننهل منه، طالما أن موقفي من الغرب مستلهم من موقف التلميذ من الأستاذ. إنه المدرس الأبدي وأنا التلميذ الأبدي، فإن أردت أن أعرف فطبقا للأواني المستطرقة يأتي العلم منه. وأنا لا أتعلم شيئا إذا كان معدل إنتاج الغرب أسرع بكثير من معدل استهلاكي. فمهما حاولت اللحاق به فستتسع الفجوة باستمرار وسأجري وراءه لاهثا ويصيبني ما يسميه الغربيون بالصدمة الحضارية. أريد إذن تحجيم الغرب ورده إلى حدوده الطبيعية. فأنا أستطيع أن أتعلم ليس من الغرب بالضرورة، قد أتعلم من الشرق، قد أتعلم من نفسي، من واقعي.. الخ.، أريد أن أعيد كتابة التاريخ الغربي باعتباره إحدى الحضارات المحلية، صحيح أنه استفاد من تجارب الهند والصين وفارس ومصر واليونان والتراث الإسلامي، لكنه ورث كل ذلك ونسبه إلى نفسه واعتبر نفسه

ناشر الحضارة العالمية، وعلينا جميعا أن ننقل منـه، فعلـى الرغم من تحررنا منه عسكريا وسياسيا، فإننا لم نزل تابعين له اقتصاديا وثقافيا. أريد أن أجعل المفكر الإسلامي عنـدما يفكر في الاقتصاد لا يحتـاج إلـى مـاركس وآدم سـميث وريكاردو، عليه أن يبدع وأن يفكر وأن يقرأ القديم والجديد، أن يعتمد أساسا على قدرته الإبداعية.

البعد الثاني من مشروعي هو إعادة كتابة تاريخ الغرب وجعله تراثا محليا، حتى نتمكن من رؤية تاريخ الإنسـانية. فكل حضارة ساهمت بقسطها في تراث الإنسانية. أريـد أن أتعلم من جديد حضارات الصين واليابان والهنـد وفـارس. وهذه الحضارات التي بالرغم مـن قربنـا منهـا وحـداثتنا بالاستعمار الغربي منذ القرن الماضي، فقد نجح الغرب فـي أن ينسينا إياها، في أن ينسينا بعـدنا الشـرقي، فنسـينا أن الإسلام انتشر أول ما انتشر في الشرق، وأن سكان الملايـو والفلبين مثلا عندما يتحدثون عن الصـحابة الأوائـل فإنمـا يعتبرونهم أبطالهم الوطنيين، وتراثهم الذي يفخرون به. إذن فأوربا وأمريكا ليستا هما البعد الإنساني الثقافي الوحيد للعالم الإسلامي، بل بالعكس، فالشرق الذي يضم الهنـد واليابـان

والصين يشكل ثلاثة أرباع البشرية، وبالتالي فإن تحجيم الغرب واكتشاف الشرق وإعادة كتابة تاريخ البشرية بشكل منصف بحيث يقضي على المركزية الأوربية، ربما قد يعطي بديلا آخر وهو عودة المركزية الإسلامية من جديد. فأنا لست في العصر الوسيط، وما كنت في العصر الوسيط ولا العصر الحديث. بل أنا في القرن الخامس عشر الهجري، قبلي سبعة قرون من النهضة، ولكن السبعة قرون التالية قد توقف مد النهضة، ولكن قد تكون السبعة قرون الثالثة (من القرن الخامس عشر الهجري حتى القرن الثاني والعشرين) بداية نهضة جديدة.

- سؤال: تبدو محاولتكم تحجيم الغرب وكأنها بداية لعملية يمكن تسميتها (بالاستغراب) في مقابل ما يسمى (بالاستشراق). هل تقع محاولتكم هذه ضمن هذا الإطار أم أنها محاولة الانقطاع عن الغرب والانفتاح على الشرق بهدف تحصين الذات من عدوى الهيمنة الثقافية، وربط هذه الذات بجذور وأصول وعمق استراتيجي حضاري يوفر لها المناعة التي تلزمها لمواجهة تحديات العصر؟

* د. حنفي: إنني أحاول قدر الإمكان أن أحـول هـذه العملية إلى علم، فكما كان الغزالي يقول: سأعلم الفلاسفة في كتابي (مقاصد الفلاسفة) ما لم يتعلموه، فالمسلم لابد أن يتعلم الفلسفة مثل الفيلسوف، وأن يعرف المنطق مثله وأكثر، وأنا دارس للفلسفة الغربية وأحد المتخصصـين فـي الدراسـات المسيحية، وأستشار كثيرا في نصوص الإنجيـل: ويسـألني الغربيون هل هذه كلمة صحيحة فـي الإنجيـل أم لا؟ ولـي الخبرة والمعرفة التي تؤهلني للحكم بأن هذه الكلمـة قالهـا المسيح أم لا، والشيء نفسه يتكـرر فـي التـوراة.. وأنـا متخصص أيضا في الفلسفة المعاصرة. لذلك فأنـا أعـرف الغرب جيدا، وبعد أن أنتهـي مـن إعـادة كتابـة التـراث الإسلامي سأحاول أن أعيد كتابة التراث الغربي، معطيا لـه حقه وليس أكثر لأننا أعطيناه أكثر مما يسـتحق، وأعطينـا أنفسنا أقل مما نستحق.

أما البعد الثالث في مشـروعي أو المرحلـة الأخيـرة فسوف أخصصها لتفسير القرآن تفسيرا موضـوعيا، لـيس تفسيرا معتادا طويلا يبدأ بالفاتحة حتى سورة الناس، ولكـن تفسيرا بحسب الموضوعات يجمع مثلا كل الآيات التي تبحث

في الإنسان، في الإرادة، في العقل، في المجتمع، في التاريخ، وكان هذا العمل هو هدف أساسي لعمل الشهيد محمد بـاقر الصدر، فقد كان له تفسير موضوعي. وأنا أريد الشيء نفسه، أنا معجب بفهرس ألفاظ القرآن ولا يفارقني أبدا. وسأعطيك مثلا على أهمية التفسير الموضوعي للقـرآن الكـريم، فقـد طلبت مني الجمعية العلمية السويدية أن أشارك ببحـث فـي حملة حماية البيئة من التلوث، فبعد محاولات هذه الجمعيـة ومراكز البحث السويدية إيجاد حل بدون جدوى اتجهت فـي نطاق البحث نفسه إلى حملة عالمية حيث طلب من علماء من الصين واليابان وأمريكا، كما طلبوا منـي، أن أسـاهم فـي الحملة هذه وأجيب عن سؤال مفاده: هل يمكـن أن تسـاهم الحضارة والثقافة في حماية البيئة؟ ولقد جاءتهم عدة بحـوث من بينها بحثي الذي يركز على مفهوم الطبيعة فـي الثقافـة الإسلامية، فقمت بتفسير موضوعي للقرآن الكريم وأخـذت كل ألفاظ الطبيعة: نبات، حيوان، أرض، سماء. وحاولت قدر الإمكان أن أصف صورة الطبيعة في القرآن الكـريم. كـان بحثا في مائة صفحة ترجم إلى كل اللغات حتـى الهولنديـة والسويدية. ولأول مرة تدرك الجمعية بأن حضارة يمكن أن

يكون لها تصورها الخاص للطبيعة، تصـور يحميهـا مـن التلوث؛ لأن الطبيعة بالنسبة لنا من صنع الله وخلقت للإنسان الذي عليه أن يحترمها ويحميها من العوادم ومـن كـل مـا يسيء لصورتها العامة وجوهرها.. أقول إذن بأن المرحلـة الأخيرة من مشروعي ستكون مخصصة للتفسير الموضوعي للقرآن الكريم واضعا في اعتباري كل مشاكل العصـر.. إن تفسيري سيكون نفسيا أدبيا اجتماعيا تاريخيا يحاول أن يعطي قدر الإمكان نظرية إسلامية أو بداية الأيديولوجية الإسلامية انطلاقا من تحليل الألفاظ في القرآن الكريم.

- سؤال: السؤال الأخير سيكون حول مجلـتكم التـي أصدرتم عددا واحدا منها وتوقفت وهي (اليسار الإسـلامي) أين هي وهل من أعداد في الطريق ومتى؟

* د. حنفي: في حقيقة الأمر فقد أحزنني جدا كوني لـم أتمكن من إصدار الأعداد الأخرى، وقد كان حرصي علـى العدد الأول يدخل ضمن إعلان بداية فكر إسـلامي ثـوري تقدمي حضاري، فالإسلام السياسي ليس فقط على مسـتوى البحث العلمي الطويل ولكن أيضا علـى مسـتوى الحركـة الجماهيرية. و(اليسار الإسلامي) هو المنبر أو لسـان حـال

التراث والتجديد جماهيريا، بلغة أسهل وبحماس أكثر، وربما بجوانب عاطفية. لم يكن الإسلام (اليسار الإسلامي) جديـدا، ولم يكن أمامي بديل، هل أقول العروة الـوثقى الجديـدة، أو الإسلام المجاهد، الإسلام النشط، الجهاد، الـدعوة، المنـار، النور، الهداية. وكلها أسماء استخدمت سابقا. بعض الأخـوة في الحركة الإسـلامية يعتـرض علـى تسـمية (اليسـار الإسلامي)، إلا أن الاسم يبدو جماهيريـا، فهنـاك الشـباب المثقف الذي يريد أن يكون يساريا وفي الوقت نفسه إسلاميا، وكلمة اليسار لها بعض السحر عند الشباب في الجامعـات، وهي كلمة ليست جديدة ولكنها فعالة.. إن مهمة المجلة هـي إحياء العقيدة في قلوب الناس، والتأكيد على أن الإسلام أكبر بكثير مما يتصورون، أكبر من العقائد والشعائر، وأكبر مـن الممارسات اليومية والذهاب خمس مرات يوميا إلى المساجد والذهاب إلى الحج. الإسلام حليف المواطن في الدفاع عـن مصالحه يسترشد به في قضايا الفقـر والحريـة والتوحيـد والتحرر والثقافة. الإسلام يحافظ على الهوية ضد التغريـب وهو عامل تجنيد الجماهير في بلاد الإسلام المترامية. لتكون حركة إسلامية عامة يمكن أن تنضم إليها التيارات السياسية.

فالإسلام كان قادرا على أن يوحد فـي داخلـه العلمـانيين والماركسيين، والمثقفين والليبراليين. إن (اليسار الإسـلامي) يدعو لجبهة وطنية عريضة تضم الجميع.

أما لماذا تأخر العدد الثاني عن الصدور – برغم طـول الانتظار فالأسباب كثيرة، فنحن نحاول أن نقدم مجلة يكتبهـا مسلمون ثوريون من كل أرجاء العالم الإسلامي، تهيئ لتقديم نظرية إسلامية ثورية وقد تمكنا من جمع مادة ثورية مهمـة جدا ومعي الآن مادة الأعداد الثاني والثالـث والرابـع، ولا نحتاج إلا بعضا من الوقت وبعضا من المادة كي نصدر هذه الأعداد..

ب – حوار حول الفكر الإسلامي:

* **الديمقراطية في الفكر أو لا...**
* **الحاكم الواحد... والتفسير الديني الواحد همـا سـبب أزمة الفكر وغياب الحوار.**
* **حضارتنا قامت على الحوار المتبادل واختلاف الأئمة.**
* **الدين... والسلطة... والجنس ثالوث مقدس حرم علينا التفكير فيه!**

* تصورك لنوعية الأخطار التي تواجه فكرنا العربي المعاصر؟

* إن أهم الأخطار التي تواجه فكرنا العربي المعاصر هو (أحادية الطرف) أعني سيادة الرأي الواحد وغياب الحوار بين الاتجاهات الفكرية المختلفة حتى أصبح كل من يخرج على المألوف متهما بالكفر أو الإلحاد أو الخيانة أو العمالة. فالديمقراطية ليست في الأنظمة السياسية وتعدد الأحزاب وحدها بل هي أولا في الفكر أي القدرة على إيجاد البدائل لما هو سائد والتعبير عن الرأي الآخر، والأخطر من ذلك أن يكون ذلك الرأي تبريرا للسلطة وتابعا لها، يتم التعبير عنه بأسلوب إنشائي خالص لا يعبر عن شيء بقدر ما يعبر عن انفعالات السلطة وأهوائها.

* ما هي الأسباب التي نتجت عنها أزمة الفكر؟

* لقد نتجت أزمة الفكر عن احتواء السلطة السياسية لجميع مواطن الفكر، وعدم التمييز بين السلطة السياسية والحرية الفكرية، فقد ظنت السلطة أن الحرية الفكرية موجهة ضدها، نظرا لعدم شرعيتها، وعدم تعبيرها عن القواعد الشعبية العريضة وعن مصالح الجماهير. ولقد ساعدت

السلطة الدينية السلطة السياسية في ذلك عن طريـق فـرض التفسير الواحد، وتكفير كل ما عداه، فالحاكم السياسي الواحد والتفسير الديني الواحد هما سبب أزمة الفكر المتمثلـة فـي أحادية الطرف وغياب الحوار.

* ما هي مظاهر الأزمة في حياتنا العربية العامـة أو الخاصة؟

* تظهر هذه الأزمة في حياتنا العامة في غياب الترشيد الناتج عن سيادة العقل، فما زلنا نتعامل مع الواقـع بالعمـل اليدوي وبالعضلات دون ترشيد للعمل أو للسلوك مما سـبب الفوضى في حياتنا الخاصة فـي المواصـلات واصـطدام الصاعد بالنازل وفي عدم احترام قواعد المرور، وفي غياب التخطيط في حياتنا العامة. كمـا تتمثـل أيضـا فـي عـدم الإحساس بالزمن حتى أصبح شعبنا العربي يضرب به المثل للزمان الضائع. فلا تفرق في حياتنا السـاعات أو الأيـام أو الأسابيع أو الشهور أو السنوات، لقد عرف عنا عدم الدقة في المواعيد، وعدم تحديد ساعات الزيارات ونكتفي بعبـارة – أبقى أفوت عليك – دون تحديد موعد، وعدم التمييـز بـين أوقات العمل وأوقات الراحة، فنستريح ونحن نعمل، ونعمـل

ونحن نستريح، حتى خلطنا بين الحياة العامة والخاصة، ولم نميز بين الجد والهزل. لم نحسب الوقت بمقدار ما ننتج فيه حتى أصبح إنتاجنا القومي محدودا بأقل من ربع الوقت اليومي، وأصبحنا نضيع من الزمان أكثر مما ننتج فيه كما هو الحال في البطالة المقنعة لدى بائعي الأرصفة ومتسلقي المركبات، وفي العمالة الزائدة في دور الحكومة.

* ما موقف التفكير الإسلامي والفلسفة الإسلامية من حرية الفكر؟

* لقد قامت حضارتنا القديمة التي نعجب بها ونفخر على حرية الفكر وعلى الحوار المتبادل بين الاتجاهات الفكرية المختلفة التي ظهرت في الفرق الكلامية، كان الشيخ يسند ظهره إلى عامود المسجد ويدرس ثم يعترض الطلاب ويحاورون شيخهم أو ينفصلون عنه ويكونون حلقات أخرى حول الأعمدة المجاورة.. وفي الحديث: اختلاف الأئمة رحمة بينهم. وقد كانت كلها اتجاهات شرعية لم يتهم أحد فيها الآخر كما نفعل نحن هذه الأيام بتوزيع اتهامات الكفر والخيانة. وفي الحديث: أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم. كان هناك خلاف بين الصحابة، وكان الرسول يقول

لعمر: ارفع قليلا، ويقول لأبي بكر: أنزل قليلا. فقد كان أبو بكر أكثر التصاقا بالفكر على حساب الواقع، وكان عمر أكثر التصاقا بالواقع على حساب الفكر، وكلاهما موقف شـرعي. وهو ما يحدث في حياتنا هذه الأيام من خلاف بين الاتجاهات الإسلامية والاتجاهات الاشتراكية، الأولـى ألصـق بـالفكر والثانية ألصق بالواقع. ولكننا لسوء الحظ تركنا هذا النموذج وأخذنا بنموذج آخر بناء على حديث الفرقة الناجية: ستتفرق أمتي على ثلاث وسعين فرقة، كلها في النـار، إلا واحـدة، وهي ما عليه أنا وأصحابي، واعتمدنا على ذلك في تكفير كل الاجتهادات والدفاع عن رأي واحد هو رأي السلطة الدينيـة والسياسية، رأي الحكومة.

* هل وصل العقل العربي يوما إلى درجة التحرر؟

* بالطبع نعم. فقد استطاع العقل الإسلامي في تراثنـا القديم أن يحصل على أقصى درجات التحرر، خاصة عنـد المعتزلة، المفكرون الأحرار في الإسلام في أصلي التوحيـد والعدل. فقد استطاع التنزيه أن يقضي علـى كـل مظـاهر التشبيه والتشخيص التي ما زالت سائدة في عقليتنـا اليـوم. فنحن لا نفكر إلا بضرب الأمثال والأشباه. كما أننا نشخص

الأفكار والنظم، ونؤرخ لحياتنا بأسماء الأشخاص، ونعرف مؤسساتنا بأسماء المديرين. كما استطاع المعتزلة إعطاء الأساس الخلقي للتوحيد، واعتبار الصفات الإلهية مبادئ للسلوك، ومثلا للحياة الفاضلة، وغايات يقوم الإنسان بتحقيقها. كما أعلن المعتزلة حرية الإنسان ومسئوليته عن أفعاله، واعتبروا العمل وحده مصدر القيمة، وهو ما عرف باسم الاستحقاق وليس ما نحن فيه الآن من قدرية وتواكل وتسليم بالمحتوم ورضا بالمكتوب. واحترموا الطبيعة وقوانينها، وجعلوا هذا العالم يسير نحو غاية وهدف، هو الأصلح للبشرية أي التقدم المستمر نحو الأفضل. كما جعلوا العقل أساس النقل فكل من يقدح في العقل يقدح في النقل، وليس كما نفعل الآن من هدم للعقل واعتماد مطلق على (قال الله... وقال الرسول)، وتكييف واقعنا وحياتنا طبقا للنصوص واستمداد طبنا من حديث جناحي الذبابة، كما جعلوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساس العلاقات الاجتماعية، وصلة الحاكم بالمحكوم، وليس كما نفعل نحن من تبرير لقرارات السلطة أو خوف من إرهابها أو حرص على الارتزاق منها.

* لماذا تم تصفية الاتجاه العقلاني في الفلسفة الإسلامية وكيف؟

* لقد تمت هذه التصفية في القرن الخامس الهجري بعد هجوم الغزالي على العلوم العقلية وعلى رأسها المنطق والفلسفة، والدعوة إلى التصوف والعلوم القلبية، وهو ما نحن فيه حتى الآن. كما حدث أيضا أن سادت الأشعرية بعد القضاء على المعتزلة في نهاية أيام المتوكل، فورثنا التصوف والأشعرية وسادا في حياتنا اليومية وفي معاهدنا الدينية حتى الآن، حتى أصبح الرقباء في حياتنا على ما نقول وما نفعل. ولما كان كلاهما يقوم على الانقياد والتسليم فقد وجدت السلطة السياسية منذ العصر المملوكي والتركي في هذين التيارين أكبر دعامة للحكم المطلق، فالانقياد والتسليم في الدين يؤدي إلى الطاعة والولاء في السياسة.

* هل الأزمة في الفكر الإسلامي نتيجة لغياب المنهج العلمي في تناول القضايا الفكرية؟

* إننا نروج هذه الأيام لكلمتي العلم والتكنولوجيا وكأنهما مفتاحان سحريان سندخل بهما عالما آخر. لقد تحولا إلى أسطورة مضافة إلى أساطيرنا. والحقيقة أن العلم خطوة

تالية للعقل، والعقل يقوم أساسا على الاستقلال عن كـل مـا سواه من سلطة دينية أو سياسية. تتلخص الأزمـة إذن فـي غياب المنهج العقلي الذي هو أساس التصور العلمي للعـالم. فاللاعلمية في حياتنا ترجع أساسا إلـى اللاعقلانيـة. ولقـد استطاع علماؤنا قديما تأسيس العلم نظرا لمعرفتهم بوظيفـة العقل وكيفية استعماله، والعقـل يشـمل الحـس والتجربـة والتاريخ معا. إن إدخال آلة في القرية يدخل فيها البرتقال من ناحية وتخرج منها المعلبات من ناحية أخرى قد تقوم بـنفس وظيفة الضريح القادر على إجراء المعجزات.

* ما هو دور الفكر الديني الموجود في الحجـر علـى حرية الفكر والإبداع؟

* هناك أنماط عديدة من الفكر الديني: هناك فكر ديني يبدأ من النص. وتكون وظيفة العقل فيه شرح النص وتبريره ثم تكييف الواقع حسب النص، وهو الفكر السائد في حياتنـا. وكانت النتيجة أن وقعنا في الغيبيات وفي التفكير فيما يضـر ولا ينفع، كما أدنا الواقع وخرجنا عليه وعاديناه وحكمنا عليه سلفا بالكفر والإلحاد. كما أن هناك فكرا يقوم على الإيمـان بالمقدسات والتسليم بها دون تفكير أو تحليل ثم تتحول هـذه

المقدسات إلى محرمات. وهذا سـائد أيضـا فـي عقليتنـا المعاصرة. فقد حرمنا التفكير في الدين وفي السـلطة وفـي الجنس. فتحولت إلى مقدسات وأصبحت – تابو – كما يقول علماء الاجتماع يوجه سلوكنا اليومي ترغيبا مـرة وترهيبـا مرة أخرى. وهناك فكر ثالث يقوم على الخطابـة والـوعظ والإرشاد والعنتريات التي ما قتلت ذبابـة، منطـق النـاي والربابة على ما يقول أحد شعرائنا، وهو الفكر السـائد فـي مساجدنا في خطب الجمعة والأعياد، فنعيش حالمين داخـل المساجد ثم نخرج إلى الحياة العامة، فنصطدم بهـا ونعـاني منها. وهناك فكر يقوم على الجدل والمحاجاة وعلى الهجـوم على بعض النظريات والدفاع عن البعض الآخر أما الواقـع نفسه فلا يتحدث عنه أحد، وهو سائد أيضا في حياتنا. فمـا أكثر ما كتب عن الإسلام والاشتراكية في بلد متوسط الدخل القومي فيه للفرد الواحد مائة جنية سنويا. وما أكثر ما كتـب عن الإسلام والعلم في بلد ما زالت يظهـر فيـه القديسـون والأشباح!

* ما هو طريق الخلاص لأزمة فكرنا المعاصر؟

* طريق الخلاص هو إيجاد البديل، فهناك فكر ديني آخر يقوم على العقل أولا، كما هو الحال عند علماء أصول الدين من المعتزلة أو يبدأ بالواقع كما هو الحال عند علماء أصول الفقه من المالكية، فالعقل هو سبيل الترشيد في حياتنا. والاجتهاد، أخذا في الاعتبار واقع المسلمين الحالي، هو وسيلة التقدم، وهو ما سماه محمد إقبال مبدأ الحركة في الإسلام.

* من نحن (وما هويتنا)؟

* لقد مر حوالي قرنين من الزمان منذ حركاتنا الإصلاحية الحديثة ولم نستطع بعد الإجابة على سؤال الهوية: من نحن؟ ويمكن ذلك بتحديد موقفنا الحضاري ويتلخص في ثلاثة محاور: الأول مسئوليتنا عن التراث القديم الذي ما زال يؤثر فينا بمفاهيمه وقدراته وقيمه، فما نحن إلا تعبير عنه وتراكم له. والثاني متاخمتنا للتراث الغربي منذ عدة أجيال، وضرورة تحديد علاقاتنا به التي ما تزال يغلب عليها طابع الترجمة لأعماله، والعرض لنظرياته، والتجميع لمذاهبه، والدعوة لها، حتى أصبحنا مجرد وكلاء للغرب في ثقافتنا المعاصرة، وهو أثر من آثار الاستعمار الثقافي الذي

ما زال سائدا حتى الآن، والثالث وجودنا في واقع خـاص، وإحساسنا بأزمة طاحنة، ومواجهتنا بقضايا العصر المصيرية وعلى رأسها الاحتلال والتخلف ولامبالاة الجماهير. فـنحن نوجد في ملتقى هذه المحاور الثلاثة، فهويتنا ليست دينيـة أو فقهية أو لغوية بل حضارية خالصة تتحدد بتحمل المسـئولية التاريخية لجيلنا المعاصر.

* إلى أين؟ أزمة الرؤيا المستقبلية أو غياب اليوتوبيا؟

* إن أزمة رؤيتنا المستقبلية تنشأ من عـدم إحساسـنا بالتاريخ، فقد غاب البعد التاريخي في تراثنا القـديم نظـرا لسيطرة الإلهيات عليه. فقد كان التاريخ جزءا من الطبيعـة تسيرها الإرادة الإلهية. ولم تتعد تحليلا للتـاريخ وقصـص الأنبياء، وأخبار الأولين في الحوليات التـي تـؤرخ لحيـاة الملوك والأمراء أو علم الحديث أو الرواية، وهـو تـاريخ النصوص أو تاريخ لفرق تكفر صاحبة السلطة فيهـا جميـع الفرق الأخرى. وبالتالي ضاعت حركة التاريخ، أو تاريخنـا خارج العالم في مدن فاضلة يعشقها الإنسان بالتمني. بـل إن ابن خلدون، فيلسوف تاريخنا، قد جعل الماضي أفضل مـن المستقبل، وجعل البداوة أعلى من الحضارة، فالتاريخ يتقـدم

إلى الوراء، وعصرنا الذهبي في الخلف وليس إلى الأمـام. فكيف نفكر في مستقبلنا ونحن نعيش في ماضينا؟ وكيف نفكر في التاريخ ونحن نعيش خارج التاريخ؟

* هل كانت هناك فترات نهضة في تاريخنا العربي وتم إجهاضها؟ ولماذا حدث ذلك؟

* نحن نعيش عصر الإصلاح الديني منذ ابـن تيميـة وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب عن طريق المنهج السلفي. ومنذ الكواكبي والسنوسي والأفغاني ومحمد عبـده ورشـيد رضا ومحمد إقبـال وسـيد قطـب بـالمنهج الاجتمـاعي، فالإصلاح الديني سابق على عصر النهضـة، إذ الإصـلاح محاولة لإعادة تفسير القديم ورؤيته من جديد حتـى يمكـن الخروج منه إلى الجديد، وهو النهضة. الإصلاح إذن شـرط النهضة، ونحن لم نستثمر بعد كل إمكانيات الإصلاح الديني، فقد ظل إصلاحنا الديني القديم محدود الأثر لا يتعدى الوعظ والإرشاد والتربية. مهمتنا إذن تحويل الإصلاح النسبي إلـى إصلاح جذري بإعادة تفسير العقائد من أجل تغييـر سـلوك الناس. وإعادة النظر في التشريع من أجل العثور على نظام اجتماعي يحقق مصالح الأغلبية، وتحويل الـدين كلـه إلـى

أيديولوجية ووضع أسس للاهوت التحرر، ولاهوت المقاومة، ولا هوت الأرض، ولاهوت التنمية أي ما يسمى بـ اللاهوت السياسي، أي إعادة تفسير الدين بما يخدم مصالح الجمـاهير العريضة ولمواجهة القضايا المصيرية للبلاد.

* ما الموقف من قضية التراث أو الاتجاه إلـى التيـار الغربي؟

* هذا السؤال نفسه يحتوي على الإجابة التي تعبر عن أزمتنا الحالية، إذ يغلب على موقفنا الحضاري، إما الرجـوع إلى الماضي، فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها، وهو ما يحدث في حياتنا اليوم باسم السلفية والمحافظة القائم على منهج التقليد والتبعية للقديم، وأما تقليد الغرب والتبعية له باسم التجديد حتى لقد ظللنا ننتقل أكثر من مائتي سنة، ومـا زلنا حتى الآن مما طبع فكرنـا القـومي بطـابع التجميـع والعرض، فقد طالت الترجمة أكثر من اللازم على خـلاف ترجمتنا القديمة عن اليونان التي سرعان ما أعقبها التـأليف. والموقف واحد وهو التقليد والتبعية للمنقول مرة من تراثنـا القديم ومرة من التراث الغربـي المعاصـر. ولكـن أيـن الحاضر؟ أين واقعنا الحالي؟ أين قدرتنا على مواجهة قضايا

العصر؟ أين تنظيرنا المباشر للواقع؟ أين تحويل واقعنا نفسه إلى فكر؟ هذا لم يتم بعد وتلك هي أزمتنا.

* هل تمكن النموذج الكوبي والفيتنامي من التخلص من أزمة العقل ووصل إلى درجة التحرر؟

* إن لكل حضارة مسارها الخـاص، ولا يمكـن لأي مجتمع أن يتخذ نموذجا مغايرا له فـي مجتمـع آخـر. إن النموذج الكوبي والفيتنامي هو النموذج الشرقي الذي لا يبـدأ بالتحرر العقلي من أجل التحرر الوطني والاجتماعي. فهـذا هو النموذج الغربي الذي هاجمه ماركس في (الأيديولوجيـة الألمانية) وفي (العائلة المقدسة). إن النموذج الأسـيوي فـي السياسة الذي يقابله نمط الإنتاج الأسيوي في الاقتصاد يبـدأ بالجماهير، ويجنـد الشـعب، ويقـوم بـالتحرر الـوطني والاجتماعي عن طريق قيادة طليعية شعبية من نوع ماوتسي تونج وكاسترو، وليس من نوع كانط وفـولتير. والطريـق أمامنا مفتوح إن شئنا أخذنا بالنمط الأسيوي، تجنيد الفلاحين، وإن شئنا أخذنا بالنمط الغربي، وهو التنوير العقلي، فأيهمـا مستحيل وأيهما ممكن؟

* ما هي أهم انجازات عصر النهضة الأوربي؟ وهل لا بد أن نمر بنفس الظروف حتى نصل إلى درجة التحرر العقلي؟

* لقد ورث عصر النهضة الأوربي منجزات الإصلاح الديني الذي استطاع التخلص من التوسط بين الإنسان والله، ورفض احتكار التفسير، ورفض التبعية القومية للقوى المركزية، ورفض المظاهر الخارجية في الدين، فالإصلاح الديني كان مقدمة للنهضة الحضارية الشاملة وكأن الدين هو دعامة الحضارات وأساسها الأول. لقد تميز عصر النهضة بالجرأة على القديم. والموقف النقدي من التراث، ورفض التبعية والتسليم، ورفض سلطة الموروث، والاعتماد على العقل وليس السلطة، واكتشاف الواقع دون التجريد. وبدايات العلم دون الأسطورة، واكتشاف الإنسان داخل الإلهيات القديمة. وهذا ما نحاول نحن القيام به منذ جيل أو جيلين متعثرين متخوفين وناكصين. يبدو إننا ما زلنا دون هذه المرحلة بعد.

فمأساتنا اليوم هي في عدم الدراية بوظيفة العقل وتصورنا له على أنه تبرير لما هو موجود سواء في الدين أم

في السياسة، وأنه مجرد تعبير عن انفعالات يتحـول فيهـا الفكر إلى مجرد صراخ في حين أن وظيفة العقل تكمن فـي التحليل، تحليل التصورات وتحليل الواقع وتحليل التجـارب، كما أن مأساتنا في انعزالنا عن الواقع وعدم أخـد مصـالح الجماهير في الاعتبار سواء في إعادة البناء الثقافي أو فـي صياغة المشروع القومي، ولذلك كان المعتزلة وابـن رشـد روادا في تحليل العقل وكان مالك بن أنس الذي خرج عـن عبد الله بن مسعود الذي خرج بدوره عن عمر بن الخطـاب رائدا في البداية بالمصالح المرسلة، وبأن ما رآه المسـلمون حسنا فهو عند الله حسن، فالمصلحة أساس التشريع، ومقاصد الشريعة الأساسية هي المحافظة على الضروريات الخمـس: الدين والعقل، والحياة، والعرض والمال.

* هل لتكوين الشخصية المصـرية دور فـي حـدوث الأزمة أو في حلها؟

* إن مفهوم الشخصية القومية ذاته لم يستقر علميا بعد ومن الخطورة التسليم به. ومع ذلك يمكن القول بأن ما يسمى بروح الشعب أو بالطابع القومي له دور فعال في تحديد معالم الفكر القومي. فمثلا هناك سمة أساسية في مصر والصـين

معا تتعلق بدور الدولة ومركزية السلطة، كما أن هناك سمة أساسية في الشعوب السامية كلها وهي تصور العـالم كلـه صادرا من مركز واحد، ولكن هذا الطابع حركي وليس ثابتا، ويمكن تكييفه طبقا للنظرية السياسية والاجتماعية، فتصـبح الدولة في الصين قديما هي الشعب حديثا ويصـبح التوحيـد لدى الشعوب السامية القديمة التصـور المعاصـر للوحـدة الوطنية. فالأزمة ليست في الطابع القومي السائد بـل فـي طريقة التعامل معه.

* التقاء الحضارات؟

* يكثر الحديث في هذه الأيام عن التقـاء الحضـارات والحوار بين المجتمعات والالتقاء بين التكتلات فـإذا كـان المقصود من ذلك هو التعاون الاقتصادي والتبادل التجـاري الذي يقوم أساسا على المصلحة كـان بهـا، أمـا إذا كـان المقصود هو القضاء على خصوصية حضـارات الشـعوب النامية واستيرادها لتكنولوجيا المجتمعات المتقدمة فذاك نوع من الاستعمار الثقافي، فنوعية الحضارات لا يمكن تمييعها أو تسطيحها، وقد برزت مشكلة الثقافات الوطنيـة فـي الـبلاد النامية مواكبة لحركات التحرر الوطني مـن أجـل تحقيـق

شخصيتها الوطنية المستقلة. فالتكنولوجيا تعبير عن التقدم الصناعي الذي يقوم بدوره على ثقافة في مجتمع الوفرة والاستهلاك، فإذا كان الغرب الآن يشعر بوطأة أزمته، أزمة الوعي الأوربي على ما يقول الفلاسفة المعاصرون وينتظر وعيا جديدا من شعوب الشرق، فالأحرى بنا التأكيد على الوعي الحضاري المستقل وإعطاء مثل أكثر شمولا وأقوى فاعلية من الفلسفات الليبرالية الغربية.

الحقيقة أن معظم المفكرين المعاصرين يتفقون على تشخيص الأزمة على أنها أزمة تحديث وتحديد الصلة بين الماضي والحاضر، أو كما يقول الأخوة في المغرب مثل عبد الله العروي، بين الاعتراب (الرجوع إلى الشخصية العربية) والاغتراب (الرجوع إلى الغرب) أو كما يقول الأخوة في المشرق بين الاتباع والإبداع مثل أدونيس ولكنهم يختلفون في تصورهم لحلها.

فمثلا يرى البعض أن حل الأزمة يكمن في تبني النظرة العلمية الخالصة وعلى رأسها الماركسية وترك كل القديم الذي يغلب عليه الغيب والأسطورة، وهو موقف صادق جلال العظم في سوريا، ويرى البعض الآخر مثل عبد الله

العروي في المغرب أن حل الأزمة فيما يسـميه الماركسـية الليبرالية وتعني تكييف الماركسية طبقا لظـروف المجتمـع العربي الذي يعيش العصر الليبرالي وفلسفة التنوير فنحن لا نستطيع أن ننقد وأن نرفض الليبرالية ونحن لم نتمثلها بعـد. ويرى فريق ثالث مثل محمد عزيز الإحبابي أن حل الأزمـة يكمن في اكتشاف (الشخصانية) وتعني البحث عن الشخصية الإنسانية العربية ومعالمها الأساسية وقدرتها على الحوار مع الآخرين وعلى التحرر في مواقف القهر والكبت.

والحقيقة أن هذه الحلول المختلفة ليست متعارضة، بـل يركز كل منها على جانب ويعطيه الأولوية علـى الجانـب الآخر، مثل: العلم، الثورة الاجتماعية، احترام الإنسان، ولكن يكاد يتفق الجميع على أن حل أزمتنا الراهنة هو فـي نقـل مجتمعنا من طور إلى طور آخـر، ومـن الإلهيـات إلـى العقليات، ومن الإنشاء إلى الخبـر، ومـن ثنائيـة السـماء والأرض أو النفس والبدن إلى وحدة الفكر والواقع ووحـدة الإنسان مع عالمه، والمطلوب منا جميعا صدق النية والعمل الجاد. والقادر على تغيير الواقع بالفعل هو القادر في النهاية على التنظير له.

ج – مفهوم اليسار الإسلامي يخيف السلطات:

*** جرب العرب كل الأيديولوجيات المعاصـرة ومـا زالـت قضاياهم كما هي.**

*** منذ متى تهتم أمريكـا بالشـعوب الإسـلامية؟ وشـعب فلسطين أليس شعبا إسلاميا؟**

*** أعتز بمفهوم اليسار الإسلامي لأنه يخيف السلطات.**

* في الفترة الأخيرة خاصـة بعـد انتصـار الثـورة الإيرانية، بدأت فكرة العودة إلى الإسلام تنتشر على نطـاق أكثر شمولا عن ذي قبل وتحمل في طياتها توجهات وطنيـة تقدمية في بعض البلدان وفي البعض الآخر تحمل النقـيض من ذلك. كيف تفسر هذه الظاهرة؟

- قضية العودة إلى التراث، أو إعاد اكتشاف الإسـلام، أو العالم الإسلامي يسير إلى الامام، هي في الواقـع قضـية على قدر كبير من الأهمية في فترتنا الراهنة. الغرب يحاول دراسة هذه الظاهرة، يعقد لها المؤتمرات، يقيم لجان البحوث لمعرفة مستقبل هذه الحركة ولمعرفة أي خطر تمثلـه أمـام

الغرب أم أنها مجرد عاطفة هوجـاء تنقضـي بمجـرد أن تنشب.*

والحقيقة أنها ظاهرة تعبر عن شيء حقيقـي موجـود، ربما ليس كفعل – وهذه هي الخطورة – ولكن كـرد فعـل. ويكون التحدي الأعظم هو كيف يستطيع الفكـر الإسـلامي حاليا تحويل رد الفعل إلى فعل مخطط مؤصل يسـتطيع أن يستغل رد الفعل هذا وطاقاته الكامنة فـي سـبيل مصـالحة الخاصة وليس لحماية مصالح الغرب أو الهجوم على الشرق.

بدأ الأتراك تقليد نهضة الغرب باعتبارهم بؤرة الإسلام ولتحديث مجتمعاتهم ولكن للأسف كانت مناهج التحديث تـتم عن طريق النموذج الخارجي، عن طريق الليبرالية الغربيـة التي انتشرت في القرن الماضي بانتشار المفكرين والفلاسفة والصحافيين العرب وذهابهم للغرب وإعجابهم بنمطـه فـي الحرية والديمقراطية والعلم.. حتى الأفغاني ومحمـد عبـده المصلحين الدينيين كانا ينظران باستمرار إلى أن الغرب قـد تقدم عن طريق العلم والحريـة والديمقراطيـة والأحـزاب

---

* جريدة الهدف الكويتية، الخميس ١٩٨٠/١٠/٣

والحياة النيابية وكانا يطالبان العالم الإسلامي بالأخـذ مـن حضارة الغرب، وهذا هو النمط الغربي المسـتنير، وهنـاك أيضا دعوة شبلي شميل وفرح أنطون ويعقـوب صـروف وولي الدين يكن وغيرهم للتغييـر علـى الـنمط الغربـي ومطالبتهم بترك الدين باعتباره خرافة وكانوا يروجون أيضا لبعض الكتابات الغربية التي ظهرت في القـرن الماضـي، التيار الأول كان يرى في ذلك وسيلة لتجديد الدين ذاته دون انقطاع عنه، أما التيار الثاني فكان يرى ضرورة الانقطـاع عنه من أجل بناء مجتمع حديث علمي تقدمي. هناك أيضـا محاولة الطهطاوي من أجل إعادة بناء المجتمعات ذاتها، ليس عن طريق إيجاد نمط غربي بل البداية بالواقع، بواقع الأمـة العربية، وكان في ذهنه مصر ودولة محمـد علـى وكيفيـة تحديث هذه الدولة بحيث تقوم على التمييز بـين السـلطات وتكوين تقدم زراعي وصناعي وتجاري، ودون أن ينفصـل عن التراث الإسلامي القديم. لكـن للأسـف هـذه الـدعوة الليبرالية، أي تحديث المجتمعات على النمط الغربي انتهـت في العشرينات والثلاثينات خاصة في مصر التي كانت رائدة لهذه الحركة في الشرق الأوسط نظـرا لظروفهـا الخاصـة

واتصالها بالغرب في وقت مبكر، فقد بدأت هذه الدعوة تنتج آثارا سلبية على التكوين الاجتماعي حيـث سـادت طبقـة الباشوات والأقليات وملاك الأرض. صحيح كانـت هنـاك مكاسب علـى مسـتوى الديمقراطيـة وقـانون الصـحافة والمطبوعات ورأت مصر أزهى فترات عصورها فيما يتعلق بالحرية الفكرية لكن كانت قضية العدالة الاجتماعيـة حجـر عثرة أمام هذا النظام الليبرالـي، وبـدأت قضـية العدالـة الاجتماعية تظهر وكأنها وريثة لهذا النظام الليبرالي.

بعد ذلك جرب المسلمون الثورات العربية وكانت هناك مكاسب تحديد ملكية، قطاع عام، حقـوق العمـال وتحديـد ساعات العمل والأجر، مكاسب على المسـتوى الخـارجي: سياسة عدم الانحياز، مقاومة الاستعمار والصهيونية. لكـن كما تعلم ما هو مصير هذه الثورات العربيـة؟ مزيـدا مـن الاحتلال، عدم الوقوف أمام الصهيونية موقف جاد، ظهـور طبقات جديدة ورثت الطبقات القديمة، عدم تعبئة الجمـاهير في حزب طليعي يدافع عن مصالح الأمة.. إذن بعد أن جرب العرب كل أيديولوجيات التحـديث المعاصـرة مـا زالـت قضاياهم كما هي: تخلف، فقر، صهيونية، احتلال، تمـزق..

وبالتالي بدأ الناس يفكرون إذا كانوا قد جربوا الأيديولوجيات العلمانية التحديثية فلماذا لا يجربون ما لديهم وهذا ما أسـميه برد الفعل، بمعني، في غياب أيديولوجية ناجحة بـدأ النـاس يلجئون إلى وجود الذات في غياب وجود الآخر، في غيـاب الخارج وجود الداخل، في غياب البعيد وجود القريب، بـدأوا يفكرون، ربما قد يكون لديهم حل.. فمـاذا وجـدوا ومـاذا اكتشفوا؟ اكتشفوا تخلفا ومحافظة وأشـعرية وتصـوفا منـذ هجوم الغزالي على العلوم العقلية في القرن الخامس وضياع فرصة ظهور اتجاه عقلاني تقدمي عند المعتزلـة وضـياع فرصة استمرار ابن رشد في العالم الإسلامي بعد اضـطهاده بالرغم من أن الغرب سار في أعقاب المعتزلة وابن رشد في التفكير العقلاني الطبيعي وتقدم، أما نحن فقد سرنا في أعقاب الغزالي والأشاعرة. وعندما تجد تحت شعار (العـودة إلـى الإسلام) تحركات غامضة ومتخلفة ذلك يعني أن أصحابها لم يرتكنوا إلا إلى الفكر الديني السائد من ألف عام أي الإسـلام الأشعري الصوفي المحافظ.

* تحدثت عن إخفاق معظم أيديولوجيات التحديث التي سادت في فترة تطورنا الحديث لكن لم يكن كلامك تشوبه نفس الحدة عندما تحدثت عن التيار الديني المستنير؟

- لأنه لم يجرب أصلا ولم تتح له الفرصة الكافية لإثبات مدى صلاحيته في التعبير عن الواقع، على سبيل المثال بدأ الأفغاني بداية عظيمة في معاداته للاستعمار والدعوة إلى الوحدة الإسلامية وكان يناهض الحكام الذين أصبحوا ألاعيب في أيدي الاستعمار كما كان يدعو إلى العدالة الاجتماعية (عجبت لك أيها الفلاح تشق الأرض بفأسك ولا تشق قلب ظالمك) لكن للأسف هبطت الثورة الإسلامية عند الأفغاني إلى المنتصف عند محمد عبده عندما شارك في الثورة العرابية ثم ندم بعد ذلك.

*عندما تهبط الثورة إلى المنتصف، هل يعود ذلك إلى طبيعة المفكرين فقط؟

- ربما لأن الأفغاني لم يؤسس تيارا أو حركة أو حزبا ورائه، لأنه كان مطاردا في كل ركن، كان الإصلاح فرديا، ومحمد عبده بروحه كشيخ لم تكن لديه نفس الدفعة الموجودة عند الأفغاني فهبط الفكر الإصلاحي إلى المنتصف. وعندما

تسلمه رشيد رضا هبط به إلى نصف النصف فكان إصلاحيا سلفيا. وحين جاء حسن البنا حاول أن يحقق ما لـم يحققـه الأفغاني في تكوين حزب وإنشاء حركة جماهيريـة ولكنهـا للأسف كانت بدورها أقرب إلى السلفية والمحافظـة، وكلنـا يعلم موقف الإخوان من لجنة الطلبة والعمـال فـي ١٩٤٦ ورفضها الدخول في الحركة الوطنية، والدخول في قضـايا التكفير.. وبالتالي ظل الفكر الإسـلامي المسـتنير هابطـا. وكنتيجة لاستمرار الإخوان في الفترة الناصـرية كحركـات تحت الأرض أن تحول الفكر السـلفي لفكـر مضـطهدين رغبتهم الانتقام والأخذ بالثأر ورفض ما هو قائم دون محاولة إعادة صياغة الفكر الإسلامي وتطويره حتى يتبنى من جديد قضايا العدالة الاجتماعية والثورة ضد الاستعمار والإقطاع.

* إذن كيف تفسر هذا الهبوط المستمر للفكر الإسلامي المعاصر؟

- لأنه يبدأ دون أن يتحول إلى حركة مستمرة، إما عن طريق حزب إسلامي وتقدمي أو عن طريـق الاتحـاد مـع الحركات الوطنية والدخول في حوار مع كل الحركات التـي تبغي التحديث سواء كانـت ماركسـية أو قوميـة. فـالفكر

الإسلامي المعاصر لا يستطيع أن يعيش بمفرده لأنه إحـدى صيغ الحركة الوطنية، فإذا ما انعزل حتما يختفي وينتهـي. لكن إذا ما اتحد وهو ما نحاوله نحن فـي مصـر (باليسـار الإسلامي) يجعل الإسلام كما حدث في إيران بوتقة للوحـدة الوطنية والجبهة الوطنية في مواجهة خطر الدكتاتورية فـي الداخل والاستعمار والصهيونية في الخارج.

* ثمة نقد شائع لمحاولات في أن القضية مع الحاضـر ليست الماضي وأننا حين ننقد الحاضر فإننا بذلك نقوم بنقـد مبطن لهذا الماضي من خلال بقاياه في الحاضر.

- نحن نعيش في عالم متأزم مـن قضـايا التغريـب واحتلال الأراضي ومن طغيان الاستعمار علينـا، وسـيادة التخلف.. في الإطار هذا أنا أزمتي مع الحاضر، لكن عندما أحلل هذا الحاضر (التخلف، الاستعمار، الصهيونية، الفقـر، الدكتاتورية، الطغيان) ماذا أجد؟ أجد مـا أسـميه الجـذور التاريخية. وهنا أبدأ في البحث عن العلل التاريخية، المخزون النفسي، الرواسب الحضـارية، التـي ظهـرت بالحاضـر، فالحاضر بالنسبة لي هو تراكم للماضي، فأنا لا أذهب إلـى

الماضي، أنا لست عدوا للماضي إلا بقدر مـا أجـده علـة تمنعني من الحركة والتقدم.

* في مشروعك الكبير نحو (التراث والتجديد) هل هناك عقبات موضوعية تقف أمام هذه المحاولة؟

- أحاول قدر الإمكان تجاوز بعض التجديدات الضـيقة التي تمت في تيار النهضة عند الطهطاوي أو فـي التفكيـر العلماني الغربي أو الإصلاح الديني عند الأفغاني، فأنا تراكم تاريخي لما حدث منذ مائتي عام، أحاول تجاوز ذلك باللجوء إلى الواقع والانحياز لصالح الجماهير وعدم رفض أي تيـار آخر بل نسعى للدخول معه في حوار جاد حتى نسـتطيع أن نخلق في النهاية ثقافة وطنية واحدة في نفس الوقت متعـددة المناهج والاتجاهات. ثمة مشكلة حقيقية تكمن في عدم رغبة بعض التيارات الأخرى في الحوار، الماركسي مثلا يفكر في أنه لا يريد أن يترك الفرصة لتيار آخر أن يسحب البساط من تحت قدميه، فلسان حاله يقول لماذا أترك تيـارا تكـون لـه فرصة في النجاح أكثر.. يبدأ بالعدالة الاجتماعية والفقـراء ومحاربة الاستعمار والصهيونية وفي نفس الوقت يبـدأ مـن تراث الأمة وتقاليدها وإسلامها.. مشكلتي إذن مـع بعـض

الأخوة التقدميين أنهم ينظرون إلى هذا التيار على أنه منافس لهم على نفس مستوى القضايا. كـذلك أجـد صـعوبة فـي التحاور مع التيارات الدينية الأخرى، يكفرون هـذا التيـار ويلعنونه، يعتبرونه ماركسية مقنعة، تحاول أن تبين لهـم أن الإسلام ليس لحى أو مسابح، وليس صلاة أو صـوم فقـط، يقول اك القرآن دستورنا والرسول زعيمنا، لكن حين تسـأله يا أخي وبعد ذلك ماذا ستفعل مع مجتمع مستوى دخل الفـرد فيه ٢٠٠ جنيه سنويا؟ لا يأتيك بجواب في هذه الحالة. ناهيك عن الصعوبة الأكبر مع النظام القائم، فهذه الـدعوة تؤرقـه لأنها تدعو إلى رفض ما هو موجود ومن الصـعب كـذلك رفضها تحت (تهمة) شيوعي لأنها تبدأ من الإسلام أو تحت تهمة (أصولي) لأنها تبدأ من قضايا الواقع.

* بالنسبة للدور الذي تلعبه حاليا هل يتعدى إطار إلقاء محاضرات ونشر كتب أو إصدار مجلة؟

- أنا بالإضافة إلى مساهماتي في المجـلات العربيـة ودراساتي العامة، بدأت تنفيذ مشـروع التـراث والتجديـد وإعادة بناء كل التراث القديم من منظـور ثـوري تقـدمي. فأخرجت (المقدمات النظرية) للتراث والتجديد منـذ شـهر

وسيصدر (من العقيدة إلى الثورة) تحويل العقيدة الإسلامية لأيديولوجية سياسية عند جماهير محتلة متخلفة، ثم إعادة بناء علم أصول الفقه القديم من استنباط إلى استقراء لأحوال المسلمين، وإعادة بناء التصوف من حركة هروب من المجتمع كقيمة سلبية في الرضا والصبر والورع إلى آخره إلى قيمة جهاد ونضال ومقاومة وصراع، ثم التوجه بعد ذلك إلى الغرب ومحاولة وضع الغرب داخل حدوده الطبيعية وبيان أن كل ما نشأ من علم وفكر وثقافة وفن كان مرتبطا بظروفه وتاريخه وحتى أستطيع أن أجد مكانا لثقافات غير غربية على مسرح الثقافة العالمية وحتى يستطيع التاريخ الإنساني العالمي أن يكون أكثر عدلا عندما تؤرخ الروح الإنسانية لنفسها بدلا من أن تقتصر فقط على الروح الغربية واعتبار أن الروح والحضارات الشرقية مجرد تمهيد لها ويكون على نفس المستوى من المساهمة، وكذلك مخاطبة الناس مخاطبة عامة وعمل كتاب غير دوري أو مجلة – نظرا لعدم حصولنا على تصريح – تنشر معظم الكتابات الأساسية لهذا التيار. وسيصدر العدد الأول من مجلة (اليسار الإسلامي) في القاهرة خلال هذا الشهر، تشارك فيها جميع

التيارات السياسية والفكرية المستنيرة وتحـاول بـذلك قـدر الإمكان أن تقيم أساسا للوحدة الوطنية والحـوار.. وهنـاك إشكال فيما يتعلق باسم المجلة، البعض يخشى مـن أن اسـم (اليسار) قد يخيف التيارات الإسلامية، وقد يغضب الدولـة، وبالتالي لماذا نخسر بهذه المخاطرة حول الاسم لكني مستعد للصراع حول الاسم، فالماركسية إحدى التيـارات اليسـارية وليست كلها، وأنا أعتز بمفهوم اليسار باعتباره أولا يخيـف السلطة، وباعتبار أن من مهمتي تخليص هذا اللفظ، فإلى متى سنظل نخاف من الأسماء؟ في الأربعينات كان يقال كل مـن يذكر كلمات الشعب والنضال والحرية والديمقراطية ابتعـدوا عنه لأنه مخيف، قاتل، دموي. ولكن تخلصنا من كـل ذلـك وتم تطهير هذه المفاهيم في الثقافة الوطنية خاصة (واليسار) اسم علمي، هناك اليسار الهيجلي والفرويدي والجديد واليسار في الكنيسة.. وبالتالي فلماذا أخشي من اسم تمت صياغته في العلوم الإنسانية؟ وفي هذا العدد الأول من (اليسار الإسلامي) يجد القارئ دراسة عن: هل يجـوز شـرعا الصـلح مـع إسرائيل؟ وأخرى عن مناهضة الاستعمار والصهيونية علـى أسس من تراث الأمة، وهناك أيضا دراسـة عـن الإسـلام

والاستعمار، ونص (لعلي شريعتي) عن مسئولية المفكر، كما يوجد نص لسيد قطب عن إسلام أمريكاني وكيـف يسـتغل الغرب الإسلام أحيانا لمصالحه، أنا ضـد تـدخل الاتحـاد السوفيتي في أي ثورة، لكن منـذ متـى وأمريكـا مهتمـة بالشعوب الإسلامية؟ أليس الشعب الفلسطيني شـعبا مسـلما أيضا؟ لكننا لم نسمع عن حقوق الفلسطينيين باسم الإسـلام. وهناك نص أيضا في هذا العـدد للسـلطان جـالييف عـن محاولاته لإقامة ثورة إسلامية اشـتراكية تقدميـة ودون أن تكون الجمهوريات الإسلامية مهيمنا عليها من قبـل الدولـة السوفيتية.

* في كتابات د. حسـن حنفـي نلاحـظ نوعـا مـن الازدواجية، فأنت تحلل من جهة الجذور التاريخيـة لغيـاب الحرية والديمقراطية من وجداننا المعاصر، ومن جهة أخرى تتحدث عن الجماهير في كتابات أخرى بشكل يثير التساؤل، في أحدث مقالاتك كتبت (الأحادية في الحكم تنبع من طبيعـة المخزون الحضاري عند الناس، فحتى لو كان هنـاك نظـام ديمقراطي ليبرالي لحولته الناس بالضرورة إلى نظام تسلطي فالجماهير تود عبادة الأفراد وتأليه الحكام) فلمـاذا تفتـرض

هذا؟ أليس من المحتمل أن الحكام هم الذين يفرضون علـى الجماهير تألههم وأنه عندما تتاح للجماهير أدنى فرصة فإنها تسقط المتألهين من بروجهم المحصنة!

-أنا حين أتكلم عن الجماهير لا أعني الجماهير الثائرة، الغاضبة، الجماهير الممتلكة الوعي بمصالحها والقادرة على عدم الانخداع أو الاغتراب في شعورها الـوطني اجتماعيـا وسياسيا. فعندما أقول الجماهير فأنا أعني المخزون النفسـي التقليدي، القوالب والقيم الموروثة. قد تكون هنـاك جمـاهير ثائرة في ٢٤ ساعة نظرا لغياب الخبز والزبد والأسعار كما حدث في ٧ يناير بمصر، لكن لماذا لم تستمر هذه الحركـة أكثر من ٤٨ ساعة؟ في تصوري أن أحد الأسـباب الهامـة وراء ذلك تكمن في عدم وجود مقولات ثورية مـن خلالهـا يستطيع هذا الغضب الثوري يثبت أكثر فأكثر ويحوله إلـى ثورة، وطبعا لا يوجد حزب يحول هذه المقولات إلى حركات ثورية. لذلك عندما أقول إن الجماهير تؤله الحكام فإن ذلـك يعني أن المقولات القديمة ما زالت موروثة في أذهان الناس، وأن أحادية الطرف، وفكرة الواحد المسيطر على كل شيء، وأن الأمر لا بد أن يهبط. وأن الجماهير ليس لها إلا الطاعة،

في رأيي كل هذه الأمور هي جرثومة التخاف. وسـأعطيك نموذجا بليغا، وذلك بغض النظر عن تطابقه مع قضـيتنا أم لا، في محاولة الانقلاب التي قام بها طلبة الكليـة الحربيـة بالمغرب ضد الحسن الثاني – بغض النظر عـن موضـوع الجنرال أوفقير- ماذا حـدث بعـد الهجـوم علـى قصـر الصخيرات؟ اختفي الملك الحسن في إحدى دورات المياه، ثم نظر من النافذة فوجد أحد ضباط الكليـة الحربيـة بمدفعـه، خرج الملك الحسن وقال له ألا تعرفني؟ فانهار الطالب. فمد إليه الحسن يديه فقبلها الطالب وقال: أنت مولاي.. تصـور شخصا أعزل في دورة مياه وشابا بمدفع! ماذا حدث إذن لهذا الشاب ليندفع ويقبل أصابع الحسن الثاني؟ لقد انـدفعت فـي ذهن الشاب مقولة المقدس، الإله، المولى. لكن لو كان هـذا الشاب في قوالبه الذهنية يعلم أن كل الأفـراد سواسـية، ولا يوجد فرد له سلطة على الآخر، وتغيب عن ذهنه فكرة هـذه السلطة المركزية التي تسيطر على كل شيء لما كـان قـد حدثت مثل تلك الواقعة. إذن لابد أولا حتى تستطيع الجماهير أن تعي مصالحها من خلال قوالبها الفكرية، لابد من القضاء على ما يسمى بمقولة المقدس في شعورنا.

* أخشى أن أقول أنك رغم كل ذلك تدافع فـي بعـض الأحيان عن فكرة السلطة المركزية، أو على الأقل أنت تريد توظيفها، فماذا يعني أن تقول: (البعض يقول الحاكم القـوي، صانع الدولة القوية في الشرق في مقابل التحديث الغربي) ثم تستطرد بأن هذا تعبير عن بناء حضاري أساسي في وعـي الجماهير والمهم هو توظيف هذا التصور الهرمـي للعـالم لصالح التغيير الاجتماعي. فلتسمح لي، هذا المنطق مرفوض جملة وتفصيلا!

- الواقع أنا في حيرة، صديقي د. أنور عبد الملك فـي رأيه أن المجتمعات الشرقية كمصر والصين لها نمط خاص من التحديث هو التحديث عن طريق جهـاز الدولـة، ديـن الدولة، وفي رأيه أن الجيش والـدين همـا أهـم دعـامتين للتحديث، وبالتالي فإن أية محاولة لمعارضة جهاز الدولـة، جيش الدولة ودين الدولة مصيرها الفشل مسـبقا كمـا فـي محاولات التحديث العلماني، أي أن تحديث مجتمعاتنا لا يـتم إلا عبر نمط الدولة جيشا ونمط الدولة دينا.

* إذا كانت مشكلتنا المزمنة في وجود مثل تلك السلطة المركزية والتصور الهرمي للعالم، فكيف أبرز ذلك أصلا؟

- هذا صحيح، عادة أنا لا أميل إلى هذا الرأي، لكنـي أخشي لو دافعت عن الرأي الآخر أن يقـال إننـي تـأثرت واستغربت عن طريق الديمقراطية والتعدد والحوار، فأنا لي مصادري الخاصة (وأمـرهم شـورى بيـنهم) و (الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر).

* إنها قضية إنسانية في المقام الأول وليسـت قضـية شرق أو غرب، إنها نتاج تجارب إنسانية حقيقية.

لكن هناك أيضا حجة تاريخية لصـالح وجهـة النظـر الأولى – السلطة الأولى – السلطة المركزية – وهي أين في المجتمعات الشرقية ظهرت التعددية؟

* وهل غيابها تاريخيا – رغم أنني أشك في هذا الرأي – يبرر استبعادها نهائيا؟

- يا أخي أمام هذه الأنماط المقدسة. ألا يمكن توظيـف هذه الأشياء مرحليا لصالح عمليـة التغييـر الاجتمـاعي.. فالجماهير عندما يتم تجنيدها يمكن تحويلها إلى فكرة واحـدة مركزية من أجل العدالـة الاجتماعيـة وضـد الصـهيونية والاستعمار، يعني مـثلا فـي حركـة التحريـر الـوطني الجزائري، كان طبعا كل شعب الجزائر من أجـل مقاومـة

الاستعمار الفرنسي، في اللحظات الحاسمة في تاريخ الـبلاد التوحد في قضية واحدة قد يفيد، ففي مواجهة الصـهيونية لا يمكن أن تكون هناك صهيونية جيدة وأخري غير جيدة.

لكن أنا ما زلت عند رأيي من أنه لا بـد مـن تغييـر القوالب والتراث والمفاهيم الموروثة أي المخـزون النفسـي عند الجماهير حتى يمكن إعادة بناء الثقافة الوطنية، فالتراث والدين في البلاد النامية يمثل الأيديولوجية السياسية وبالتالي لابد من عمل ثقافة وطنية وألا تحدث ردود فعل كما حـدث في إيران وتركيا.

*بالنسبة لي، أنا أعتز بجهودك في التنقيب عن الجذور التاريخية لأزمة الحرية في وجداننا المعاصر، وفـي نفـس الوقت أبدي تحفظي على موقفك من قضية (توظيف السلطة المركزية والتصور الهرمي للعالم) لأني أعلم جيدا أن العكس هو الذي يحدث دائما فيما يتعلق بقضية (التوظيف)!

- الفرق بيننا هو الآتي: أنني أعيش في عصـر وفـي زمان وفي مكان وفي فترة تاريخية معينة، وهـذا لا يعنـي أنني براجماتي لكنه يعني أنني قادر علـى تصـور الواقـع تصورا علميا، أي بمعني ما هو موجود لابد أن أسـلم بـه،

نظرا لأنني لا أفرق بين التصور والسلوك بين النظر والعمل، فكل فكر لدي لابد أن يتحول إلى حركة، ربما أنت أكثر علمية وقادر على تصور الحقائق النظرية وقادر على مواجهة الواقع والتأثير فيه، لكن الخوف أن يأتي إنسان آخر ذو لحية وفي يده كتاب وبمجرد خطبة حماسية يتبعه ٩٥% من جماهيرك، فلماذا لا آخذهم أنا صاحب التيار الديني المستنير بدلا من أن يأخذهم صاحب العمامة؟

* أنا لا أشك لحظة في بداهة الجماهير التي تتحدث عنها، قضيتنا أساسا هي قضية حريات، وإنني واثق أن الـ٩٥% من الجماهير من خلال اقتراع ديمقراطي حقيقي ستجدها معك، تؤازرك بوعي متقدم ولا تنس أن صاحب العمامة لا يسيطر إلا في غياب الديمقراطية وسيادة أجواء القمع والإرهاب وتفاقم ظروف المعيشة، لذا أرى أنه من الضروري أولا وقبل كل شيء القيام بنقد دعاوى وشعارات تغيب الحياة الديمقراطية من واقعنا، إنها قضية أولية في تصوري ولا يجب أن نذبحها ونحن نتحدث عن العدالة، القومية، المعركة، الدين، الدولة المركزية.. الخ، لأنها مفتاح معظم المشاكل والقضايا المثارة وغير المثارة.. على سبيل

المثال محاولاتك أنت لن يكتب لها النجـاح إلا مـن خـلال نضال ديمقراطي لا يتوقف، ينـزع إلـى تكـوين وتجميـع الإرادات الوطنية والشعبية والا فإنك لن تخسر فقط الـ ٩٥% من جماهيرك بل جهودك وذاتك أيضا.

- هذا صحيح، ولكنني أفهم الحريـة علـى أنهـا ذات مستويات آخرها ربما تكون الحرية السياسـية وقبـل هـذه الحرية السياسية التي تتبدى في نظـم ومؤسسـات وتعـدد أحزاب وصحافة حرة.. أنا أريد الحرية الفكرية، أي لا أريد أن يفكر لي دون أن أشعر في ذهني، أريد أن أكون صاحب القرار في الحكم، لا أريد لا مقولات قديمـة ولا تصـورات موروثة تفكر لي دون أن أشعر، فعادة التـراث يفكـر لـي ولست أنا الذي أفكر فيه، فالعادات والتقاليد تفكر لـي حتـى على الرغم من دعوتي إلى الحرية السياسية. ومن ثم فالحرية بالنسبة لي هي الحرية في الاختيار، ولكن وللأسـف العقـل العربي حاليا غير متساوي الكفتين، هناك كفة راجحة للغايـة وهي الأشعرية الصوفية الموروثة، وكفة أخرى هي العقلانية الاعتزالية التي توارت، طبعا حاول الأفغاني ومحمد عبـده إبرازها ولكن إلى النصف في الحسن والقبح العقليين، لكنهم

لم يفعلوا نفس الشيء في التوحيد، أي أنهم في العدل معتزلة وفي التوحيد أشاعرة، أنا أريد أن يكون الناس معتزلـة فـي العدل والتوحيد. أقول إذن إن الحرية الفكرية تعني الاختيـار بين البدائل وإعادة الحوار وطرح جميع الاختيارات وتـرك الناس تفكر كما فعل ديكارت. الشك في القديم والمـوروث، الوقوف أمام القديم موقفا نقديا والعودة إلى الطبيعة واكتشاف بدائل جديدة ومناهج للمعرفة تجريبية حسية عقلية، حدسـية، استقرائية.. وترك المصدر المسبق في المعرفة.

* في النهاية. كيف ترى إمكانية تحقق هـذه الحريـة الفكرية واستكمال الكفاح العقلاني الذي بـدأ منـذ عصـر النهضة؟

- حاليا ربما أخطر فترة يمر بها العقل العربي هي مـا نعيشه الآن، من تخاف وعدم مقابلة الرأي بالرأي، والفكـرة بالفكرة، بل مواجهة الرأي بالاغتيال والتصفية الجسدية وسلخ الأيادي، أقول إذن الفكر لا بد أن يواجه بـالفكر، والـرأي بالرأي، وأن يتم الحوار بين الآراء، وأن تكون هناك تقاليـد وأدبيات للحوار، الوطن للجميع، والحق للجميـع فكـل منـا يحاول تحديث مجتمعه، والحرية للجميـع ولنجعـل محـك

الاختبار للناس، كل إنسان يصوغ برنامجه ونترك الناس تختار أيهما أقرب في التعبير عن مصالحها. وبالتالي من خلال الحوار المتبادل تستطيع الوحدة الوطنية أن تنشأ في النهاية. فالحقائق واضحة، الاستعمار والصهيونية ومحاولات إدخال الشرق الأوسط كله في عجلة القوى الكبرى حتى تضيع استقلاليته. قضية الطغيان والاستبداد الداخلي والتخلف والفقر، هي قضايا عامة يستطيع كل تيار أن يطرح برنامجه في حلها، ويكون المحك كما قلت هو مدى قدرته ليس على حلها نظريا فقط بل وعمليا أيضا ومدى قدرته على التوجه إلى الجماهير وتعبئتها من أجل التصدي لهذه القضايا.

د – اليسار الإسلامي لا يطلب السلطة ولا يراها!

*** الإسلام ثقافة الجماهير والمساجد مراكـز حزبيـة قائمة.**

تفكير مشترك:

***** لن نسأل لمـاذا (اليسـار الإسـلامي) فقـد قرأنـا أطروحاتكم. لكننا نود أن نبدأ بسؤال بسيط جدا هـو كيـف سيتم استخدام هذه الأطروحات لإيصالها إلى المواطن العادي – المسلم – والذي ما زال مطوقا بحركات إسـلامية عديـدة (رجعية)؟ هل ستقول لنا إن هذه ليست مهمة (المفكـر) بـل السياسي الذي ينطلق من أطروحاتنا؟ *

---

* أجرت الحوار هاديا سعيد في ديسمبر ١٩٨٢. وقد صدرته بالآتي:

يعتبر الدكتور حسن حنفي أحد المفكرين المصريين الذين أسسـوا للتيـار التقدمي الديني عبر العديد من المؤلفات والدراسات وكذلك الترجمـات فله: التراث والتجديد، دراسات إسلامية، قضايا معاصرة فـي فكرنـا المعاصر وفي الفكر الغربي المعاصر، الثقافة الوطنية واليسار الديني. كما أنشأ مجلة اليسار الإسلامي التي أرادها أن تكون امتـدادا للعـروة

يكاد الجميع يتفق على ما يسمى باليسار الإسلامي أو الإسلام الثوري أو الإسلام المستنير أو الإصلاح الديني، بعد أن يخطو خطوة إلى الأمام في الإصلاح إلى النهضة ثم في النهضة إلى الثورة. فقد شكل الإصلاح الديني كل تياراتنا السياسية – ليبرالية أو قومية أو اشتراكية أو إسلامية، ومن ثم فلا خلاف على المشروع كفكرة فيا ليتها تتحقق، إنما القضية في وسائل التنفيذ لذلك أقول الآن:

افترقت الأمة عدة فرق متناحرة كل منها يكفر بعضه بعضا فالقوميون يكفرون الإسلاميين، والإسلاميون يكفرون القوميين، والماركسيون يكفرون القوميين والإسلاميين، والإسلاميون يكفرون الماركسيين والقوميين، والليبراليون يكفرون الجميع باعتبار ذلك كله نظما تتجاوز الحرية وتعتمد على السلطة سواء سلطة القديم وأهل السلف أو سلطة الجديد

الوثقى، وقد صدر منها العدد الأول الذي تضمن دراسات جادة ومهمة لعدد من المفكرين والكتاب الذين يبحثون في نفس هذا الاتجاه.

وفي هذا الحوار مع د. حنفي حاولنا أن نستخلص الملامح الرئيسية لهذا التيار ومهمات انتقاله من أفق الفكر إلى واقع الفعل.

والعلم أو سلطة الدولة والنظام القائمة. أي أنه لا توجد ثـورة واحدة، حد أدنى في الاتفاق بينها يمكن أن يجمعها كي تكون نواة لوحدة وطنية تقوم على برنامج عمل ثوري موحد تتحقق فيه مصلحة الأمة بصرف النظـر عـن اخـتلاف الأطـر النظرية، خاصة وأن الأهداف واحدة، فكل الفرق السياسـية تتفق على مواجهة الاستعمار والصهيونية ومواجهة قضـية الفقر والغنى والتقدم والتخلف والتنمية والكل يعاني من القهر ويأمل في الحرية والكل يأسف للتجزئة ويعمل علـى وحـدة الأمة، فإذن الأهداف القومية واحدة، ولكن لسوء الحظ كـل منها يظن أنه الوريث الشرعي للسلطة، ومن ثم نشأ الصراع بينها كصراع على السلطة. هنا يأتي اليسار الإسـلامي ولا يطالب سلطة ولا يريدها لأن الجميع يطلبها وفي نفس الوقت يعقد حوارا أصيلا جادا وطنيا أمام الجماهير بين كل الفرق، فالإسلام يتفق عليه الجميع بصرف النظـر عـن الدرجـة، فالليبراليون مثلا في التجربة المصرية من أمثال طه حسـين والعقاد ومحمد حسين هيكل، مـن رواد الفكـر الإسـلامي، والقومي خاصة في برامج حزب الوفد وفي مواثيـق الوفـد وفي مواثيق الثورة المصرية كلها تتحـدث عـن الجوانـب

الثورية التقدمية التي تدعو للحرية والعدالة الاجتماعية فـي الإسلام، فالإسـلام هـو تـراث قـومي للأمـة العربيـة. والاشتراكيون بما فيهم الماركسيون يعترفون بأن الإسلام هو ثقافة الجماهير وبأن الدين قد يكون أفيون للشـعوب تسـتغله السلطة القائمة ويستغله الاستعمار لتسكين الجماهير، ولكنـه في نفس الوقت قد يكون ثورة على الظلم من الطغيان ونداء للعدالة الاجتماعية ودعوة لتحرير الأرض كما حـدث فـي الثورة الجزائرية وفي حرب الريف وكما حدث في فيتنام في البوذية وكما هو الآن عند قساوسة أمريكا اللاتينيـة الـذين يفسرون المسيحية لصالح الشعب ضد الكنيسـة والشـركات الأمريكية المسيطرة على الاقتصاد القومي.

فاليسار الإسلامي قادر على إيجاد هذا الحد الأدنى فـي الاتفاق بين الاتجاهات السياسية المختلفة في عالمنا الحاضر، ولا ترفضه الحركة الإسلامية لأن ما نعيبه عليها الآن مـن عداء للجميع وإطالة اللحى ومسك للمسابح ولـبس للجلبـاب وتركيز على العبارات ونداء لحاكمية الله ضد حاكمية البشر إنما نشأ للظروف الاجتماعية والسياسية التي عاشتها الحركة الإسلامية إبان الثورة العربية المعاصرة، فقد تم اضـطهادها

وإبعادها ضد الحياة السياسية وزج بها في السجون فاستشهد قادتها وعذب أعضاؤها. فمن الطبيعي أن ينشـأ نـوع مـن العداء والمطالبة بالأخذ بالثأر فلا يغسل الدم إلا الدم.

لذلك كان من واجب الأنظمة العربية الحالية أن تسـرع لأعادتها إلى ملف المجتمع وتواجهها بالتحـديات الرئيسـية للأمة... وأن تتوجه لها باعتذار رسمي عما حدث لهـا وأن تعيد لها أجهزتها التنظيمية ومراكزها ومجلاتها.. هنا فقـط يمكن للحركة الإسلامية الحالية التي تعاديها السلطة المحافظة أن يظهر منها جوانبها الاجتماعية والسياسية، وأن يتـوارى سيد قطب الثاني الذي كتب معالم في الطريق تعبيـرا عـن نفسية السجين المظلوم إلى سيد قطب الأول الذي كان بـؤرة للوحدة الوطنية في أواخـر الأربعينـات صـاحب العدالـة الاجتماعية في الإسلام والسلام العالمي والإسلام.

وأخيرا اليسار الإسلامي هو مجـرد حركـة مسـتنيرة تهدف إلى تبصير التيارات السياسية القائمـة إلـى أهميـة الإسلام وتراثه كعنصر ربط بينها وكأداة لحل عزلة الأحزاب السياسية عن الجماهير العربية فالإسـلام ثقافـة الجمـاهير والمساجد مراكز حزبية قائمـة، علمـاء الـدين مجنـدون

جاهزون، ومن ثم يتعامل اليسار الإسلامي مع كل الأحزاب القائمة، فهو ليبرالي يدافع عن الحريات (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا)، واشتراكي يدافع عن الفقير في مال الغني (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم)، ليس عن طريق الزكاة فقط ولكن عن طريق الملكية العامـة لمصادرة الثروة وأن تكون الأرض لمن يفلحها، وأن يكـون الركاز (أي الثروات التي في باطن الأرض) ملكا للأمة بمـا في ذلك النفط، وهو قومي فلا عزة للعرب إلا بالإسـلام، لا يعادي أحدا ولا ينافس أحدا ولكنه يقوي الأجنحة الإسـلامية في كل تيار حتى تتحقق الوحدة الوطنيـة المنشـودة، هـذه الوحدة التي ضاعت إبان الثورة العربية.

* يقول د. حنفي إن اليسار الإسلامي هو أيديولوجيـة ثورة المسلمين طامحا إلى قوة إسلامية تقـف إزاء القـوتين الأعظم فأية دولة (حلمية) هذه التي ستكون؟ وهل نواتها الآن إيران أم مصر أم أفغانستان؟

* نحن ما زلنا في مرحلة يقظة الوعي وليس تأسـيس دول أو تكوين إمبراطوريات أو تحقيق حلم. إنما ننقل الوعي الفردي الذي ركز عليه الإصلاح الديني (الأفغـاني، محمـد

عبده، رشيد رضا) إلى الوعي الاجتماعي. الهدف هو الاستنارة والتخفيف من حدة المحافظة الدينية التي ورثناها منذ ألف عام عندما هاجم الغزالي العلوم العقلية. فسادت الأشعرية مزدوجة بالتصوف وظهرت الطرق الصوفية والتواكلية إبان الحكم العثماني في حين أننا قد عشنا التعددية والعقلانية فقط قرنين أو ثلاثة حتى الرابع الهجري. فهناك في وعينا القومي كفتان غير متعادلتين، محافظة وتقليد ونقل وتمركز حول الله وفقه افتراضي نظري وبعد عن العالم وقيم سلبية تدور حول الزهد والتوكل والورع والرضى، وكفة أخرى تعتمد على العقل والطبيعة والحرية والعدالة الاجتماعية والمساواة وتقوم على نظرة علمية للعالم كما وضح ذلك عند المعتزلة.

مهمة اليسار الإسلامي هي فقط جعل هاتين الكفتين أكثر تعادلا فتخف قبضة ألف عام من المحافظة وتزيد الفترة الزمانية للتعددية والعقلانية والعلمية، أي أننا ما زلنا نناضل من أجل العقلانية والعلمية والتجريبية ومصالح الأمة وحرية الأفعال. وقد يستمر ذلك إلى عدة أجيال حتى تقل نسبة المحافظة الدينية وتزيد نسبة الثورة العقلية والجرأة على

القديم فيتحول الإصلاح الديني إلى نهضة شاملة. نستمد علمنا من الطبيعة ونقضي على كل معوقات التقدم في أذهاننا مثـل التصورات الهرمية للعالم التـي هـي أسـاس مجتمعاتنـا البيروقراطية والإقطاعية والرأسمالية.

مهمتنا التنوير، والتنوير شرط التثوير فإلى أن يحـدث ذلك حتى تتفجر طاقات الجماهير الإسلامية وحتى نعد قـادة قادرين على قيادتها، وحتى نؤسس أدبيات إسـلامية ثوريـة جديدة يقرأها النشء وتنشر في أجهزة الإعلام قادرة على أن تحرك الطلبة والفلاحين والعمال، كما اسـتطاعت كتابـات مركوزة في ثورات الشباب من أن تحدث ثورة شبابية فـي الغرب... في ذلك الوقت فقط، تتحقق بدايات الحلم.

لقد ربى الرسول الصحابة على مدى ثلاثة عشر عاما، تحت الأرض وفوق الأرض، فما كان أسهل في بضعة أعوام أن تنطلق الجزيرة العربية جماهير وقادة حاملة فكر ورسالة تقضي على أكبر ثـورتين عظيمتـين فـي هـذه الفتـرة: إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم، وفتحت جميع البلاد الإسلامية في أقل من ٤٠ عاما من خراسـان شـرقا إلـى المغرب غربا، لكن كل ما نرجو الآن هو إقامة وحدة وطنية

وتجهيز البيت من الداخل (أشداء على الكفار رحماء بينهم)، وإعداد الأمة بجماهيرها وفكرها وقادتها إلى تحقيق رسالتها في منظور تاريخي وبوعي بالمراحل دون تسـرع حتـى لا نضع العربة أمام الحصان كما فعلنا في الثـورات العربيـة المعاصرة عندما قام الضباط الأحرار بانقلابات عسكرية دون أن يسبقها إعداد وتثوير للجماهير على يد المفكرين الأحرار.

* نصر على التوقف أيضا عند وسائل تطبيق هذا كله، فما هي منابع وأطر الأدبيات التي ستتوجهون عبرها لنشـر هذا الوعي؟

* وسائل نشر هذا الوعي، منابر الأحزاب السياسـية، دور النشر الإسلامية التقدمية، ولكن أفضل من ذلـك كلـه الكتيبات الصغيرة والنشرات التي تباع بدراهم قليلـة علـى نواصي الشوارع ويحملها المتطوعون دون كسب أو أجـر، ومنبع هذه الأدبيات موجود: المعتزلة في علم التوحيد التـي قضينا لسوء الحظ على معظمها في التراث القديم ولم يبـق منها إلا القليل، الأفكار على لسان الخصوم. مـثلا نظريـة العدل والاستحقاق والصلاح والأصلح.. وأن الإمامة لا تكون إلا اختيارا، ومن الفقه المالكي الذي أعطـى فـي مقاصـد

الشريعة وأن الشريعة أتت للحفاظ على المصـالح العامـة: النفس والعقل والحياة والدين والعرض والمال، وهي أسـس الحياة المادية في المجتمع الحديث. وفي الفلسفة: الكندي وابن رشد، أي التيارات العلمية والطبيعية والعقلانية بعيـدا عـن التيارات الإشراقية الصوفية وكتابات الإصلاحيين المحـدثين وتطويرها وكذلك كتابات محمد إقبال، ثم إعطاء نماذج فـي تاريخ الثورات الدينية المعاصرة في آسيا وأفريقيا وأمريكـا اللاتينية، فالقضية عامة وهي كيف يمكن تثوير الشعوب التي ما زالت مرتبطة بتراثها وتاريخهـا تسـتمد فيـه ثقافتهـا وأيديولوجياتها ومذاهبها السياسية تعويضا عن أمتها.

* ذكرت محمد إقبال.. رغم أنه نادرا ما يـؤتى علـى ذكره رغم بصماته في السعي لتجديـد الفكـر الـديني فـي الإسلام.. لماذا؟ وهل لأصل محمد إقبال سبب في هذا؟

* الحقيقة أن محمد إقبال من أهم الشخصيات الفكريـة المعاصرة التي أرادت إحياء الأمة وتراثها وبعـث روحهـا وفي نفس الوقت التصدي للغرب والغزو الثقافي لكل مظاهر التغريب التي نعاني منها هذه الأيام حيث مـا زلنـا نعتبـر الغرب مظهرا للعلم والمعرفة ونموذج التقليد والاقتداء. وقـد

ترجم إلى العربية من قبل في الخمسينات تجديد الفكر الديني في الإسلام.. كما ترجمت بعض دواوينه.. ومع ذلك فقد ظل إقبال لا يمثل رافدا إصلاحيا لعدة أسباب منها أننا نسينا في وعينا القومي الإسلامي جناحنا الشرقي نظرا لارتباطنا بالغرب ولأن الاستعمار نجح في جعل البحر الأبيض المتوسط شمالا وجنوبا مركزا حضاريا شمالا وجنوبا، بالنسبة لنا في المشرق نذهب غربا والمشرق يذهبون شمالا ولم يفكر أحد في أن لنا جناحا شرقيا في إيران والهند والملايو والفلبين والصين وأفغانستان وخراسان، حتى الثورة العربية عندما بدأت بإرسال البعثات إلى الشرق وكان الشرق يعني الجمهوريات الاشتراكية وليس العالم الإسلامي بالرغم من التنبيه إلى أنه ليس في الحقيقة إلا العالم الأفريقي الأسيوي. فهناك في الوعي القومي كفتان غير متعادلتين بالنسبة لجناحي العالم الإسلامي الشرقي والغربي، بالنسبة لكم المشرق لا يتجاوز العالم العربي، في حين أن المشرق يمتد إلى الصين.. نتعلم الإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية، ولم نفكر في تعلم الفارسية والإدارية وهما أهم لغتين في المشرق. في زيارتي الأخيرة لأفغانستان، شعبي

المسلم كان المترجم الروسي، يترجم لي من الفارسـية إلـى العربية وهو الأجنبي. مع أن الإسلام أول ما انتشر، انتشـر شرقا، وفتحت خراسان وما وراء النهرين. وهنـاك رصـيد ضخم لأهل السنة وصحابة الرسول والعروبة تعمل إلى حـد التبرك بأي عربي مسلم زائر يذهب إليهم.

ثم إن حركة الإصلاح الديني عنـدنا بـدأها الأفغـاني ومحمد عبده ورشيد رضا والكواكبي وحسن البنا وسيد قطب وخرج منها عبد الحميد بن باديس، جمعية علماء الجزائـر، تونس، المغرب، ولم يكن محمد إقبال أحد روافـدها، ولمـا كانت حركاتنا السياسية، ارتبطت بحركة الإصـلاح الـديني الأساسية لذلك لم يتحول محمد إقبال بالرغم من أهمية فلسفته في بناء الذاتية الإسلامية وتحـدي الغـرب فـي حركاتنـا الإسلامية المعاصرة.

وهناك نقطة ثالثة وهي ارتباط حركة الإصلاح في الهند وباكستان بحركات أخرى ترى أنها إصلاحية ولكنها مشبوهة وتبطش بالغرب تعتمد على التصوف والإشراق ولا تـدخل في حركات التحرر، بل تعاديها، لذلك شجعها الغرب وأعني بذلك الإسماعيلية، ووحيد الدين خان وغيرهم، مع أن محمـد

إقبال منفصل تماما عن هذا التيار إلا أن في عالمنا العربـي الإسلامي كانت الحركات الإسـلامية الباكسـتية باسـتمرار موضع شك وتردد.

أما النقطة الرابعة فهي أن معظم أفكـار إقبـال كتبـت أشعارا بالأردية، لم نترجم منها بالعربية إلا القليل في حـين معظمها مترجمة بالإنجليزية والفرنسية، روج لهـا الغـرب كثيرا نظرا لارتباطهـا بـالتراث الصـوفي (نيكلسـون – ميورفتش). والحركة الإصلاحية لدينا مرتبطة باللغة العربية وبالتراث الفقهي ولها رصيد ضخم من الوطنية في الثـورة العرابية وفي الثورة الهندية والسودانية المهدية وفي الثـورة الجزائرية وفي حركة التحرر العربي.

أين العروبة؟

***** ألا ينبغي قبل كل هذا الانطـلاق أن يكـون هنـاك حديث ما عن دولة عربية موحدة؟ وفي رأيك أيـن يصـير مشروع الوحدة العربية في خضم الدعوة إلى حركة إسلامية كبرى؟

* في حقيقة الأمر نشأ صراع مفتعـل فـي وجـداننا المعاصر بين العروبة والإسـلام. نظـرا لظـروف الشـام

الخاصة به في حين أننا في المغرب الكبير خارج هذه المعركة المتوهمة فالعروبة والإسلام شيء واحد، والوطنية والإسلام شيء واحد. حتى يهود المغرب هم عرب ثقافة ورؤية وهموما وأهدافا، لكن لسوء الحظ نظرا لأننا كنا جميعا جزءا في الخلافة العثمانية ونظرا لأن أحد أسباب انهيار الخلافة هو قضية القوميات واضطهاد الأرمن والعرب على أساس أنها جميعا حركات انفصالية ودعوات قوية تهدد وحدة الدولة.

نشأت القومية إذن كرد فعل على الخلافة العثمانية وعيوبها وعدم استطاعتها صهر القوميات في إطار الوحدة الإسلامية كما فعل الإسلام قديما فنشأت العروبة تاريخيا في مواجهة الإسلام، أي الدولة العثمانية، بالإضافة إلى أن المستشرقين والمبشرين والإرساليين قد وجدوا في تراجم فكرة العروبة. دفاعا عن نصارى الشام كما وجدوا في الفرعونية دفاعا عن أقباط مصر وفي الفينيقية دفاعا عن التراث المحلي في الساحل الشرقي في البحر الأبيض. وقد يكون لذلك رصيد تاريخي ولكنها استخدمت كوسائل لتفتيت الخلافات والجر للتغريب نظرا لأن الغرب هو الذي كان

يحمل لواء القومية، فنشأت حركة التحرر العربي مـن هـذا المنبع، خاصة بعد أن تحولت الدولة الإسلامية كلها إلى دول قومية بالمعنى السياسي والجغرافي وبقـي الإسـلام مجـرد رابطه روحية ثقافية تقوم على حد أدنى من التعاون بعـد أن فقدت الأمة وحدتها السياسية.

وحتى الآن ما زلنا في مرحلة رد الفعل هذه، نتصـور أن الإسلام ضد العروبة وأن العروبة ضـد الإسـلام، هـي مشكلة فقهية صرفة لا رصيد لها فـي الواقـع والتـاريخ. فالقرآن لسانه عربي، لكن العروبة ليست قومية عرقية جنسية تقوم على لون البشر ونقاء الدم والعنصر، ولكنها حضـارة وتراث ولغة يشاركنا فيه غير العرب.

هـ - كيف يفكر اليسار الإسلامي؟

*** زحام المتمسحين بالإسلام يضم كثيرين يبـرأ الإسـلام مما فعلوا.. ويفعلون! لم يقل أحد منهم يوما كلمة حق في وجه سلطان جائر! لم يحتج أحد منهم حين جـاع المسلمون، وحين أصـابهم الفقـر وحطـت علـيهم المسبغة، وحين مرغت أعلامهم في التـراب، ولطـخ تاريخهم بالوحل!**

*** ليس الإسلام ذقنا وجلبابا ومسبحة!** [*]

---

[*] الأهالي ١٩٨٢/٦/٧ حوار أسامة عرابي، وقد صدر الحـوار بـالفقرة الآتية:

ووسط زحام هؤلاء المتمسحين الذين يملأون السـاحة، تختفـي أصـوات مخلصة، لمفكرين يريدون للإسلام أن يكون كما أراده الله عز وجـل: دين المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.. فقهاؤه ليسـوا فقهـاء سلطة. أو سلطان.. وفقهه ليس فقه حيض ونفاس.. لكنهم فـي أبسـط الأحوال من يقولون كلمه حق في وجه سلطان جائر!

بين هؤلاء المخلصين، يقف الدكتور حسن حنفي، أستاذ الفلسفة الإسـلامية بجامعة القاهرة، في موقع متميز، كمفكر، ومناضل، وداعية مـتحمس

*** مطلوب مصالحة علنية بين ثـورة يوليـو والإخـوان المسلمين**

*** الحوار مع المعتقلين مساومات واسـتجداء والمأسـاة ستتكرر.**

*** الدعوة إلى (الحاكمية لله) رد فعل سلبي على مآسـي العرب.**

*** الشيخ الشعراوى عالم ساحر بليغ لكنه يستغل للدعاية السياسية.**

الصحافة الدينية.

* ما رأيكم في الصحافة الدينية التـي كانـت قائمـة ثـم توقفت، كالدعوة، والاعتصام، والمختار الإسـلامي،

لتجديد الدين وغربلة التراث، ومفكر أصيل، قد تختلف معه، ولا بد أن تختلف، لكنك لا تستطيع إلا أن تحترم هذا الصوت الإسلامي المميـز الذي يعيد إلى الأذهان أصداء صوت الأفغاني الذي خفت أو ضاع!

ود . حسن حنفي يتميز إلى جانب هذا بسعيه الدءوب، لاكتشـاف الأسـس النظرية والحركية للإسلام كقوة، في مؤلفه الهام الذي صدرت مقدمتـه باسم (التراث والتجديد) ويصدر الجزء الأول منه (مـن العقيـدة إلـى الثورة) في نهاية هذا العام، وهذا الحوار أضواء كاشفة على عقل حسن حنفي.

وتلك التي حاولت أن ترث هذه الصحافة مثل (اللواء الإسلامي) والأدوار التي اضطلعت بها؟

- د. حسن حنفي:

لما كانت مصر أكبر الدول العربية الإسلامية، وكانـت محطا لأنظار المسلمين، فيها الأزهر، وبها دور النشر، وبها العلماء الأجلاء لم تغب عنها الصحف الإسلامية منذ (محمـد علي) حتى الآن، وكان آخر ما وصل منهـا لـدينا العـروة الوثقى، والمنار، والإخـوان المسـلمون، ثـم المسـلمون، والدعوة، والمختار، الإسلامي، وبصرف النظر عن الخلافات الجزئية بين هذه المنابر إلا أنه يغلب عليها جميعـا محاولـة إعادة فهم الإسلام طبقا لروح العصر. وكان يتجاذبها تياران. تيار أسسه الأفغاني نستطيع أن نسميه (اليسار الإسلامي) أو (الإسلام الملتزم) الذي يدخل في قلـب مشـاكل العصـر، ويصطدم بالحكام ويعترض لقضايا الحرية وتجنيد الجماهير، وهي صحف غالبا ما كانت تتوقف نتيجة للمصادرة أو طرد أصحابها أو اغتيالها. والنزعة الثانيـة هـي الحـديث عـن (الإسلام التقليدي) أو الشعائري العقائدي الذي يتجنب الدخول في المسائل الخلافية، ويكتفي بمدح الإسلام العـام الـذي لا

وجود له في أي قطر من الأقطار، أو الذي يوجد كـاملا أو كمثل أعلى في قلوب الناس. وغالبا ما يستمر هذا التيار الذي تدعمه الدولة لأنه يضفي على المجتمع مسحا دينيا مسـالما تتستر تحته الدولة كي تفعل ما تشاء. وفي ذلك مقتل للإسلام لأنه يجعله دين زاوية وذقن وجلباب ومسبحة وليس دين علم وثورة وجهاد ومصالح أمة. (العروة الوثقى) من النوع الأول ولكن لسوء الحظ تحولت (المنار) علـى طريـق (العـروة الوثقى) ولسوء الحظ أيضا تحولت إلى النـوع الثـاني فـي الدعوة والاعتصام، وأيضا مجلات نـور الإسـلام ومنبـر الإسلام، وما أكثرها، لا تسمن ولا تغني من جوع.

ولكن أحيانا يفرض الواقع نفسـه ويفـرض الإسـلام السياسي نفسه على الإسلام الشعائري، كمـا حـدث لمجلـة (الدعوة) منذ اتفاقية الصلح مع إسرائيل ١٩٧٨ حتى انفجار أكتوبر ١٩٨١، هكذا تحولت (الدعوة) إلى نقد للمعاهدة ونقد للتحالف مع الاستعمار، والانحياز للعزلة عن العالم العربـي وقهر للحريات إلى أن توقفت في سبتمبر الماضي، فـأرادت الدولة أن تسد الفراغ الديني فأنشأت مجلات من نوع (اللواء الإسلامي) تأييدا للإسلام الشعائري المظهـري حتـى تمـلأ

الفراغ الديني عند الناس خاصة فـي مجتمعـات إسـلامية متخلفة ما زالت ترى أن الدين يتعلق بالجوانب الروحية، وأن الدولة هي المسئولة عن الجوانب المادية. وفي حقيقة الأمـر أن هذا الجرائد الدينية الحكومية أو الرسمية أو الحزبية ليس لها أي أثر لا من الناحية الدينية ولا من الناحيـة السياسـية، على العكس من الجرائد السياسية الحزبية خاصة (الشعب) و (الأهالي) التي تجذب الشباب، وتملأ الفراغ عن تلـك التـي تسمى بالجرائد القومية. ولكن لسوء الحظ يبقى الميدان فارغا من منبر إسلامي سياسي من نوع (العـروة الـوثقى) ومـا حاولت ملأه مجلة (اليسار الإسلامي) التي أصـدرت منهـا عددا واحدا لكنها لم تستطع ذلك لأنها ليست جريدة يومية أو أسبوعية بل كتابات غير دورية.

ظاهرة الشيخ الشعراوي

* ما رأيكم في ظاهرة الشيخ الشـعراوي.. والتفسـير الذي يقدمة للقرآن الكريم؟

- د. حسن حنفي:

على الرغم من احترامنا لجميع علماء المسلمين، وعدم نقدنا لهم فهم مسئولون أمام الله وأمام الناس إلا أن ظـاهرة الشيخ (الشعراوي) تسترعي الانتباه نظرا لمـا تمثلـه مـن خطورة سياسية ودينية في آن واحد.

فهو عالم له باع كبير في سحر البيان والبلاغة، والقدرة على التأثير وفهم لإحساسات القرآن ودقيقات المعاني. يستمع إليه الناس داخل مصر وخارجها، ولكن لسوء الحظ تستعمله النظم القائمة لتدعيم سياستها دون مراعاة من العلماء الأجلاء إلى أي حد تتفق هذه السياسات مع الإسـلام أو تعارضـه. فمثلا في ليلتي ١٨، ١٩، يناير ١٩٧٧ عندما هبت الجماهير دفاعا عن قوتها ضد غلاء الاسعار تقدم الشيخ الجليل بحديث يبرر قرار الحكومة بزيادة الأسعار بأن ذلك كالـدواء المـر الذي يصـفه الطبيـب لمعالجـة المـريض. وبعـدها رأى المشاهدون (مدرسة المشاغبين). هذا الدور إذن لعالم الـدين يفقده استقلاله، ويجعله مجرد تابع للنظـام السياسـي؛ لأنـه موظف يخشى فقدان وظيفته وسلطته ومركزه، لهذا كان نظام الوقف السابق أفضل لأن معاش العالِم – بكسر اللام – يأتي من الأوقاف الأهلية وبالتالي لا يخشى من فقد قـوت يومـه

فيظل صادق الكلمة، قادرا على النصح لأولي الأمر، وفي وقت يطالب الشعب كله فيه بمراجعة الحكام يقف الشيخ (الشعراوي) ليطبق الآية الكريمة على الرئيس السادات (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وهي لا تنطبق إلا على الله.

وأردف د. حسن حنفي يقول:

-السؤال الآن: ما هي وظيفة العالم – بكسر اللام؟ هل هو فقيه السلطان، وفقيه الحيض والنفاس، أم أنه يسير أمام السلطان وليس وراءه، ويتعرض للقضايا المصيرية للبلاد مثل الحرب والسلام، والفقر والغنى، والحرية والقهر، والتجزئة والوحدة، والاستعمار والتحرر؟ لذلك نجد أن عالما جليلا آخر مثل الشيخ أحمد المحلاوي ما زال معتقلا، تحترمه الجماهير لصلابته في الدين، واستقلاله في الرأي، وقدرته على مواجهة النظام، وقول الحق في وجه حاكم ظالم. والقرآن في نهاية الأمر ليس سحرا، ولا بيانا، ولا إعجازا. ولا تمثيلا، ولا فتحا للعيون، وهزا للأكتاف، ورفعا للحواجب ولكنه أيديولوجية سياسية واجتماعية واقتصادية للمسلمين تقوم على العقل والواقع.

البنوك الإسلامية:

* انتشر كثيرا موضوع البنوك الإسلامية في مصر والسعودية فإلى أي حد يكون هذا إسلاميا؟

-د. حسن حنفي: الدين في المجتمعات الرأسمالية المحافظة يلعب دورا أساسيا في المحافظة على تلك المجتمعات، وذلك عن طريق إقناع الجماهير به لما كان الدين ما زال موضع ثقة وإيمان في قلوب الناس.

وفي هذا الجو من المحافظة الدينية الثورية المستنيرة ظهر بعض التحرج من الفوائد على أنها (ربا). فقامت هذه المجتمعات برفع الحرج عن طريق تأسيس ما يسمى (البنوك الإسلامية)، وهي في حقيقة الأمر بنوك رأسمالية عادية تقوم على الربح، وتوظيف أموال المسلمين في البنوك الأجنبية، ودفعا للشبهة توضع كثير من الآيات القرآنية مثل (وأحل الله البيع، وحرم الربا) أو تغيير بعض الألفاظ أو التلاعب ببعض القواعد مثل المشاركة في الأرباح والخسائر وبذل الجهد. وفي النهاية ليست القضية في هذه البنوك هي مقدار الفوائد سواء أكانت كسبا حلالا أم لا بل رأس المال ذاته من أين يأتي؟ هل من عوائد البترول التي هي ملك للأفراد والعشائر

والأسرة الحاكمة؟ البحث إذن في هذه البنوك يجب أن يتوجه إلى ملكية رأس المال. وإسـلاميا (الركـاز) ملـك للأمـة. والركاز هو ما تحتويه باطن الأرض من معادن مثل الحديـد والنحاس والذهب والفضة، على النحو الذي عرفه القـدماء. وعرفنا نحن منه النفط. ومن ثم إذا كانـت رءوس الأمـوال تأتي من عائدات البترول فإنها تكون ملكا للأمـة تصـرف تنمية الأمة بلا فوائد تأكيدا للصالح العام وتوظيفا لبيت المال وسدا لحاجات المسلمين. إنما تنشأ الحاجة إلى (الربح) عندما يصبح رأس المال ملكية خاصة، والحال لـيس كـذلك فـي الإسلام.

حوار وراء الأسوار

* كيف ترى ما يجري الآن من حـوار بـين الدولـة والمعتقلين من أعضاء الجامعات الإسلامية، وبيـنهم وبـين بعض رجال الدين الذين توفدهم وزارة الداخلية للسجون لهذا الغرض؟

د. حسن حنفي:

إن كل ما يحدث الآن من محاولات الحوار بين الدولـة والجماعات الإسلامية – أعداء الأمس، وأصدقاء الغد – لـن

يأتي بنتيجة طويلة الأمد فلا يوجد حوار بين سجان ومسجون.. إنما الحوار بين الأنداد والأحرار.

ومن ثم لابد أيضا من ضرورة الإفراج عن جميع السياسيين – إسلاميين أو علمانيين – ثم يتم الحوار بعد ذلك. إنما الحوار الآن يتم عن طريق المساومات واستجداء الرضا، والدخول في الأحلاف والتنازلات المتبادلة حتى تتكرر مأساة الأمس. وما حدث بين الجماعات الإسلامية والنظام السياسي السابق هناك مشكلة حقيقية وهي الازدواجية في فكر الأمة بين حركة إسلامية تجد أصولها في التراث القديم وحركة علمانية تجد أصولها في التراث الغربي، والجماهير المطحونة بالفقر، والتي تئن من القهر، وترزح في رداء اللامبالاة دائرة بين هذا وذاك. وأضاف جيلنا على هذه الازدواجية الثأر بين الإسلام والثورة كما جسده الصراع بين الإخوان والضباط. فلا حوار بين طرفين غير متكافئين، متباعدين متنافرين. يجب أولا تصفية الخلافات الوقتية وتجاوز مرحلة الأخذ بالثأر عن طريق مصالحة علنية بين الإسلام والثورة.. عن طريق السماح بحركة إسلامية علنية مثل (الإخوان المسلمين) تقوم ببلورة التيار الإسلامي، وتجنيد

الجماهير، وتربية الشباب، وحماية الأصالة، والقضاء على التغريب. وما أسهل أن يتم ذلك عن طريق رفع الخطر عن نشاط الجماعة، وإلغاء قرار حلها، وإعادة المركز العام لهم التي اشترته الجماعة بأموالها وحلي نسائها. والاعتذار لهم، وتكريم شهدائها. ثم توجه الحركة الإسلامية نحو التحديات الحقيقية للمجتمع المصري، وأن يصب جهدهم داخل الوعاء المصري وليس على هامشه. وبالتالي ينتهي الازدواج في الأمة، ويتكون مجتمع إسلامي ثوري أو ثوري إسلامي نتجاوز به معا الثورة الإسلامية في إيران، والثورة العربية في مصر والشام، والأنظمة المحافظة في الحجاز، وهذا ما تستطيعه مصر.

ظاهرة الردة:

* تراجع الأستاذ (خالد محمد خالد) في كتابه (الدولة في الإسلام) – الذي صدر عام ١٩٨١ – عن دعوته التي طالما تنادى بها، وحرص عليها في كتابه (من هنا نبدأ) – الذي صدر عام ١٩٥٠ – من ضرورة الفصل بين الدين والدولة إلى التصريح البين بأن الإسلام (دين ودولة، عبادة وسياسة). وقبله كان طه حسين والشيخ على عبد الرازق مثلا. هل

المأزق الذي وقع فيه هؤلاء يكمن في المنهج ذاتـه. أو أنـه يعزى إلى عجز وتخلف البرجوازية المصرية في تطورهـا الرث الذي لا يقدم آفاقا؟

- د. حسن حنفي: الظاهرة- ظاهرة الردة أعـم مـن الأفراد. بل تشمل الجماعات والحركات وربما التاريخ. لقـد حدث تراجع في حياة (علي عبد الرازق) وحياة (طه حسين) وحياة (خالد محمد خالد) نظرا لتقدم العمـر والسـن وشـدة مقاومة المجتمعات بالرغم مما عاشته مـن نظـم ليبراليـة وقومية واشتراكية إلا أن المحافظة الدينية تسري في الأعماق سريان النار في الهشيم.

الظاهرة إذن سياسة، اجتماعية، تاريخيـة.. هنـاك ردة على مستوى أربعة أجيال منذ فجر النهضة العربية الحديثـة بروافدها الثلاث. لقد أسس (الأفغاني) حركة الإصلاح ولكنها هبطت إلى النصف عند محمد عبده ثم إلى النصف عند رشيد رضا. ثم حاول الإخوان المسلمون تنشيط الحركة لكن نظرا لما حدث انقلبت إلى الضد على يد الجماعـات الإسـلامية.. وأصبح ما نادت به حركة الإصلاح من مقاومة الاسـتعمار، وقضاء على التخلف، وتوحيد الأمة أقصى ما يبلغه جيلنا من

آمال. وبدأ الطهطاوي التيار الليبرالي ولكنه هبط إلى النصف على يد الجيل الثاني من أمثال لطفي السيد والجيل الثالث من أمثال طه حسين والعقاد. والجيل الرابع من أمثـال سـندباد مصري – حسين فوزي – حيث انتهى إما إلـى التغريـب وإما إلى التعتيم مع مطالبة المجتمع كله بإعادة محاكمة طـه حسين – أنور الجندي – ونهاية عصـر الحريـة بضـياع الحرية، وسيادة القهر والتسلط، وبدأ التيار العلمي على يـد شبلي شميل، ونقولا حداد، وفرح أنطوان ولكنه هـبط إلـى النصف على يد سلامة موسى، وإسماعيل مظهـر، وزكـي نجيب محمود، وفؤاد زكريا، وانتهى إلى العلمانية المطلقة أو إلى تقريظ التراث أو الهجوم عليه أو نقده من أجل الربط بين العلم الغربي وتراث الأمة. وذلك راجع إما إلـى تصـور النهضة على نمط غربي أو إلى عدم تأصيل الجـذور إلـى الأسس النظرية وشروط النهضة أو إلى عدم تحول النهضـة إلى حركة جماهيرية واسعة حتى تتحول حركة التنوير إلـى ثورة. فالتنوير ليس فقط تجربة غربية تدور في حلقات مثقفة محدودة الأثر في مقاهي مصر وصـالوناتها الأدبيـة. بـل (التنوير) حركة جماهيرية تستمد جـذورها مـن الحركـات

التنويرية السابقة عند المعتزلة والفلاسفة والعلماء والفقهاء المجددين. مظاهر الردة إذن شاملة تتجاوز الأفراد والمجتمعات والعصور. وما لم ترس قواعد النهضة على نحو جذري أصلي داخلي ستظل حركاتنا في التحديث نسبية، غربية، خارجية.

التجديد الإسلامي:

* هناك كتاب إسلاميون تجديديون عديدون مثل د. خلف الله، ود. عمارة فما أوجه الاختلاف والاتفاق فيما بينهم. وأين تضع نفسك في مصافهم؟

- د. حسن حنفي: لم يصبح الإسلام التجديدي تيارا واضحا بعد له أسسه وقواعده ونظرياته وجماهيره وتنظيماته وجرائده وأثره على السلطة وثقله الأدبي لأنه ما زال حتى الآن مجموعة من الأفراد المستنيرين داخل مصر وخارجها مثل محمد عمارة، وطارق البشري، وخلف الله، وكمال أبو المجد، وعبد العزيز كامل، وبالرغم مما يجمع بينهم من أوجه الاتفاق العديدة مثل ضرورة التجديد، والتحديث، والالتزام بقضايا الأمة، والدعوة إلى العقل، والدفاع عن مصالح الناس، والجرأة في التجديد، والاستقلال عن السلطة

أكثر أو أقل، إلا أن التمايز بينهم واضح. فالبعض يركز على التجديد في الشريعة الإسلامية (كمال أبو المجد، خلف الله، عمارة) وإبراز الجوانب المضيئة في تاريخنا القديم أو المعاصر وإعادة نشر المؤلفات الكاملة لزعماء الإصلاح – عمارة – وتأصيل الإسلام السياسي في مبادئ أصول الحكم عند المعتزلة – عمارة. إلا أنه حتى الآن لم يحدث تجديد على مستوى العقيدة، ما يهمني التجديد على مستوى العقيدة النظرية من أجل تأسيس أيديولوجية ثورية إسلامية قادرة على استيعاب جميع الأيديولوجيات الثورية المعاصرة، وفي الوقت نفسه ارتباطها بجذور أصيلة في العقيدة، وفي تراث الأمة ووجدان الجماهير، وفي واقع الناس.

فمثلا أبرز – أنا – أهمية الأرض في عقيدة التوحيد حتى تساعد في عملية التحرير، تحرير أراضي المسلمين، والله في القرآن رب السماوات والأرض، وهو الذي في السماء إله، وفي الأرض إله. كما أركز على قضية (العدالة الاجتماعية) وحق الفقراء في أموال الأغنياء. وعلى قضية حريات الناس والنصح للمسلمين، وإرشاد أولي الأمر – أمامهم وليس خلفهم لتأصيلهم لا تبريرهم. كما أختلف عنهم

في أنهم قد يقصرون جهدهم على ما هو مكتبي نظري. فـي حين أن الأجدى هو الجمع بين ذلك، وبين النضال السياسي. فمن أتون المعركة يبرز التجديد، ومن قلب المعارك يبـرز الجديد. وقد تطورت – أنا - كثيرا من الممارسة أكثر ممـا تطورات من القراءة. بالإضافة إلـى أن بعـض المجـددين يرضون بالشهرة والكسب والكلمة السريعة التـي ترضـي أذواق الجماهير. في حين أن الأجدى العمل الـدءوب علـى الأمد الطويل، والعبارة المحكمة الخالية من الإنشاء والصيغ الخطابية، ومخاطبة عقول الناس، وتصوير واقعهـم حتـى يمكن أن تصبح الأيديولوجية الإسلامية الثورية الجديدة تحديا جديدا للأيديولوجيات العلمانية المعاصرة، ومحـور جـذب للجماهير الواسعة.

هل هو صراع ديني؟

* لاحظ البعض عـدم دقـة بعـض المفـاهيم التـي استخدمتموها في مجلتكم (اليسار الإسـلامي) ومنهـا إنكـم نشرتم مقالا عنوانه (هل يجوز شـرعا الصـلح مـع بنـي إسرائيل؟) ويقول هؤلاء إن استخدام مصطلحات مثـل بنـي إسرائيل و (اليهود) بدلا من (الصهيونية) ومثل شرعا بـدلا

من (سياسيا واقتصاديا ووطنيا) ويقولون إن الصراع العربي – الإسرائيلي ليس صراعا دينيا بحال من الأحوال؟

- د. حسن حنفي: أنا على يقين من أن الحركة الصهيونية حركة صهيونية بالأصالة نشأت إبان المد الاستعماري الغربي في القرن الـ ١٩ الأوربي أثناء السيادة الرومانسية والقومية وفكرة العودة إلى الجذور والانتشار خارج أوربا لزيادة تجميع المواد الأولية ونشر الحضارة الأوربية على سواحل أفريقيا وآسيا بعد أن نجحت التجربة أو كادت في العالم الجديد.

لكن الردة التي حدثت في مصر خلال العشر سنوات الأخيرة، وقلب الحقائق والمسلمات الرئيسية لجيلنا جعلتني أتوجه إلى وجدان الشعب ودفعني إلى ذلك أيضا محاولة أجهزة الإعلام الحكومية الدفاع عن الصهيونية وتصديرها لنا، معلنة بأن اليهودي لم يعد ذلك المحدب الظهر، المقوس الأنف، الأخنف الصوت، المرابي العجوز بل الإنسان الصديق الذي يحافظ على الكلمة والوعد والشرف والذي يبغي مصلحة مصر!! كنت أخشى من آثار الموز والبيض والدواء الإسرائيلي الذي بدأ يغزو الأسواق، وخلق طبقة

ترتبط مصالحها بالنظام الإسرائيلي. فأنا هنا منظـر الثقافـة الشعبية، وجدت في القرآن سلاحا يفيد القضية ويحرم موالاة بني إسرائيل، ويكشف عن مخططاتهم وألاعيبهم.

لم نفهم!

* لم أفهم، ولم يفهم كثيرون قولكم في مجلتكم (اليسـار الإسلامي) أنكم ترون أن السياسة في ثقافة الأمة ونهضـتها، وأن تياركم ليس موجها ضد حكومات أو نظام، لأن المعارك، كما تقولون، ثقافة الأمة وداخل وعيهـا الحضـاري، فهـل أصبحت الثورة مجرد فكرة في الرأس، موضوع ثقافي؟!

- د. حسن حنفي: نظرا لكل ما فات وجدت أنه قـد آن الأوان لبداية نهضة إسلامية لا تتعثر وأن تقوم على أسـس جذرية تؤصل نفسها وتواجه تحديات العصر، وتعمـل فـي إطار من الوحدة الوطنية لا تحقد على أحد، بل تحيي الجميع، وتقوي وتدعم كل الحركات الوطنية. فالإسلام هـو الأقـدر على أن يكون بوتقة الحركة الوطنية كما حدث فـي الثـورة الإسلامية في إيران قبيل سقوط الشاه. أريد أن أبدأ هذه المرة بالمفكرين الأحرار وليس بالضباط الأحرار. أريد أن أضـع

الحصان أمام العربة لا العربة أمام الحصان. وذلك يتطلب إعادة بناء الثقافة الوطنية، وإعادة بناء التراث القديم، وأخذ موقف من الهيمنة الغربية على الثقافة والأراضي، وتوجيه شعور الناس نحو الواقع، والمصلحة العامة. ربما لن نكون الجيل الذي سوف يرى مجتمعاتنا حرة، اشتراكية، علمية، ولكننا قد نكون الجيل الذي يمهد لذلك عن طريق إعداد البنية الفوقية والتجهيز للثورة. فما أسهل نقل النظريات والتكنولوجيا والعلم دون أن تتغير الأبنية التقليدية في الذهن والشعور، وفي تصوراتنا عن العالم، ويا ليت هناك تنظيم شعبي أو سياسي يتبنى قضية (التنوير الإسلامي) أو توحيد عنصري الأمة، وأن يجد في الإسلام كتراث ثورة تمتد إلى وجدان العصر، وعلى هذا النحو نحفظ الأمة من الوقوع في المحافظة الدينية وفي الثورة العلمانية، فالمحافظة الدينية انعزال وتخلف، والثورة العلمانية انقطاع وقصر نظر.

<u>نظرة إلى الغد</u>

* ما تصورك لمستقبل الأمة؟

- د. حسن حنفي: نحن نعيش في عصر تذبح فيه المقاومة، ويقضى على الشعبين: الفلسطيني واللبناني أمام

الجميع. يقف الفكر فيه عاجزا بصرف النظر عن تياراته لا فرق فيه بين حركة إسلامية، وحركة تقدمية، مما يصيب الإنسان بالغثيان. ومع ذلك فمعارك التاريخ طويلة. الدعوة إلى (الحاكمية لله) التي ترفعها الجماعات الإسلامية الآن ما هي إلا رد فعل على مآسي العرب وأحزان المسلمين، رد فعل سلبي أكثر منه وضع إيجابي. وضع الأمة إذن في حاجة إلى إعادة نظر على المدى الطويل. معاركها مستمرة، تتعلم من تجاربها، وتسترشد بأبنائها. تتكاتف كل الجهود، وتتحاور كلا الآراء. فالوطن للجميع.. لا حكر فيه لأحد على أحد. إمكانات الأمة هائلة ماديا وبشريا، تاريخيا ومستقبليا، وطالما تتمخض المآسي عن بواكير نهضة جديدة. فالإعداد للثورة، الثورة الدائمة، وتربية الأجيال خطوة ضرورية، وعدم التفريط في المبادئ أو الحقوق أو تقديم التنازلات شرط جوهري. الحق باق، والباطل ذاهب. هناك فرق شاسع بين الحكومات والشعوب، وفرق شاسع أيضا بين ما يبدو على السطح، وما يعتمل داخل النفوس، فاربما كانت مآسي اليوم فاتحة يقظة جديدة، فليس لنا نقاء الدم والعنصر ولكن لنا الأرض والمعبد والهيكل والنصر دون مقابل بإذن الله. ولكن

كيف يحدث اللقاء بين وعي الأفراد.. وحركة الجماهير؟.. هذا هو السؤال.

و. حديث حول الوحدة الوطنية:

١- ما هو تصورك لنوعية الأخطار التي تواجه فكرنا العربي المعاصر؟

إن أهم الأخطار التي تواجه فكرنا العربي المعاصر هي (أحادية الطرف) أي سيادة الرأي الواحد، وغياب الحوار بين الاتجاهات الفكرية المختلفة حتى أصبح كل ما يخرج على المألوف متهما بالكفر أو الإلحاد أو الخيانة أو العمالة.

٢- تظهر هذه الأزمة في حياتنا العامة في غياب الترشيد، وسيادة العقل. فما زلنا نتعامل مع الواقع بالعضلات أو بالعمل اليدوي دون ترشيد للعمل أو للسلوك مما سبب الفوضى في حياتنا العامة، في المواصلات والحياة. كما تتمثل أيضا في عدم الإحساس بالزمان حتى أصبحنا نموذج الزمان الضائع، لا تفرق في حياتنا الساعات أو الأيام بل والأسابيع والشهور والسنوات. وهذا ما عرف عنا بعدم الدقة في المواعيد، وعدم تحديد ساعات الزيارات، وعدم التمييز

بين أوقات* العمل وأوقات الراحة. فنستريح ونحـن نعمـل، ونعمل ونحن نستريح. ويتضح ذلك من عبارات (أبقى أفوت عليك) دون تحديد موعد. حتى خلطنا بـين الحيـاة العامـة والخاصة، بين الجد والهزل. لم نعد نحسب الوقت بمقدار ما ننتج فيه حتى أصبح إنتاجنا القومي محدودا بأقل مـن ربـع الوقت اليومي، وأصبحنا نضيع من الزمان أكثر مما ننتج فيه كما يحدث في البطالة المقنعة لدى بائعي الأرصفة، ومتسلقي المركبات، والعمالة الزائدة في دور الحكومة.

٣- ما هي الأسباب التي نتجت عنها أزمة الفكر؟

لقد نتجت أزمة الفكر من سيطرة السلطة السياسية على جميع مواطن الفكر، وعدم التمييز بـين السـلطة السياسـية والحرية الفكرية. فقد ظنت السلطة أن الحرية الفكرية موجهة ضدها نظرا لعدم شرعيتها وعدم تعبيرها عن القواعد الشعبية العريضة. وساعدت السلطة الدينية السلطة السياسية في ذلك

---

* أجري الحوار محمد عتمان لمجلة روز اليوسف عام ١٩٧٦ ولكن يبـدو أنه آثر نشره في مكان آخر. وهذا ملخص الحوار أعيـد كتابتـه مـن المسودة الأولى في ديسمبر ١٩٨٨. انظر الحوار السابق مـع جريـدة الشعب الأردنية ص ٢٥٩ - ٢٧٣.

عن طريق فرض التفسير الواحد، وتكفير كل ما عداه، فالحاكم السياسي الواحد والتفسير الديني الأوحد هما سبب أزمة الفكر المتمثلة في أحادية الطرف وغياب الحوار.

٤- ما هو موقف الفكر الإسلامي والفلسفة الإسلامية المتحررة من حرية الفكر؟

لقد قامت حضارتنا القديمة التي نعجب بها ونفخر على حرية الفكر، وعلى الحوار المتبادل بين الاتجاهات الفكرية المختلفة التي ظهرت في الفرق الكلامية، وكان الشيخ يسند ظهره على عامود المسجد ويدرس ثم يعترض الطلاب، ويحاورون شيخهم أو ينفصلون عنه، ويكونون حلقة أخرى حول العامود المجاور، وفي الحديث (اختلاف الأئمة رحمة بينهم) وكلها اتجاهات شرعية لم يتهم أحد منها الآخر كما نفعل هذه الأيام، ونوزع اتهامات الكفر والخيانة، وفي الحديث (أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم). وكان هناك خلاف بين الصحابة. فكان الرسول يقول لعمر: يا عمر، أرفع قليلا، وكان يقول لأبي بكر: يا أبا بكر، أنزل قليلا. فقد كان أبو بكر أكثر التصاقا بالفكر على حساب الواقع وكان عمر أكثر التصاقا بالواقع على حساب الفكر، وكلاهما موقف

شرعي، وتأتي المصائب من الحديث الموضوع (ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة..هي ما أنا عليه أنا وأصحابي..) وهو الحديث الذي يرفضه ابن حزم باعتباره مجافيا لروح الجماعة وأن الأمة لا تجتمع على ضلالة. وقد وضعت مثل هذه الأحاديث لإعطاء الشرعية للسلطة القائمة ولتكفير المعارضة.

٥- هل وصل العقل العربي يوما إلى درجة التحرر؟

بالطبع نعم. لقد استطاع العقل الإسلامي في تراثنا القديم أن يصل إلى أقصى درجات التحرر خاصة عند المعتزلة، وهم المفكرون الأحرار في الإسلام ووضعهم الأسس النظرية للعقائد في أصول خمسة: التوحيد، والعدل، والحسن والقبح العقليان، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ففي مبدأ التوحيد استطاع التنزيه أن يقضي على كل مظاهر التشبيه والتجسيم والتشخيص التي ما زالت سائدة في عقليتنا اليوم. فنحن لا نفكر إلا بضرب الأمثال والأشياء. كما أننا نشخص الأفكار والنظم، ونؤرخ لحياتنا بأسماء الأشخاص، وتعرف مؤسساتنا بأسماء المديرين، كما استطاع المعتزلة إعطاء الأساس الخلقي للتوحيد، واعتبار الصفات

الإلهية مبادئ للسلوك، ومثلا للحياة الفاضلة، وغايات يحققها الإنسان. كما أعلن المعتزلة حرية الإنسان، ومسئوليته عن أفعاله، وأن العمل هو مصدر القيمة، وهو ما عرف باسم الاستحقاق، وليس كما نحن فيه الآن من قدرية وتواكل، وتسليم بالمحتوم، ورضا بالمكتوب، وجعلوا العقل أساس النقل، وأن كل من يقدح في العقل يقدح في النقل، وليس كما نفعل الآن من هدم العقل، ومن اعتماد على قال الله، وقال الرسول، ومن تكييف لواقعنا وحياتنا على النصوص، واستمداد طبنا من حديث جناحي الذبابة، وأعلنوا حتمية قوانين الطبيعة وبالتالي أمكن تأسيس العلم الطبيعي وليس مثلنا نعيش في عالم لا يحكمه قانون. كما جعلوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساس العلاقات الاجتماعية وصلة المحكوم بالحاكم وليس كما نفعل نحن من تبرير لقرارات السلطة أو خوف من إرهابها.

٦- لماذا تم تصفية الاتجاه العقلاني في الفلسفة الإسلامية وكيف؟

لقد حدثت هذه التصفية في القرن الخامس الهجري بعد هجوم الغزالي على العلوم العقلية وعلى رأسها المنطق

والفلسفة، والدعوة إلى التصوف وإلى العلوم القلبية، وهو ما نحن فيه حتى الآن، كما حدثت أيضا أن سادت الأشـعرية، وتم القضاء على المعتزلة في محنـتهم. ورثنـا التصـوف والأشعرية، وسادا في حياتنا اليومية وفي معاهـدنا الدينيـة حتى الآن، وكلاهما يقومان على الانقيـاد والتسـليم، وقـد وجدت السلطة السياسية منذ العصر المملوكي التركي في هذا التيار أكبر دعامة للحكم. فالانقياد والتسليم في الدين يـؤدي إلى الطاعة والولاء في السياسة.

٧- هل الأزمة في الفكر الإسلامي نتيجة لغياب المنهج العلمي في تناول القضايا الفكرية؟

إننا نروج هذه الأيام كلمتي العلم والتكنولوجيا وكأنهمـا مفاتيح سحرية ندخل بها عالما آخر حتى تحولا إلى أسطورة مضافة إلى أساطيرنا، والحقيقة أن العلم خطوة تالية للعقـل، والعقل يقوم أساسا على الاستقلال عن كل ما سواه، تتلخص الأزمة إذن في غياب المنهج العقلي الذي هو أساس التصور العلمي للعالم. واللاعلمية في حياتنا ترجع إلى اللاعقلانيـة. ولقد استطاع علماؤنا قديما إنشاء العلـم نظـرا لإدراكهـم

لوظيفة العقل وكيفية استعماله. والعقل يشمل الحس والتجربة والتاريخ معا.

٨ – ما هو دور الفكر الديني الموجود في الحجر على حرية الفكر والإبداع؟

هناك أنماط عديدة من الفكر الديني: هناك فكر ديني يبدأ من النص، وتكون وظيفة العقل تبرير النص، ويهدف إلـى تكييف الواقع حسب النص. وهو الفكر الـذي أوقعنـا فـي الغيبيات وفي التفكير فيما يضر ولا ينفع. أدنا الواقـع كلـه وخرجنا عليه وعاديناه. ولكن هناك فكر ديني آخر يقوم على العقل أولا كما هو الحال عند المعتزلة وعلماء أصول الـدين أو يبدأ من الواقع كما هو الحال عند علمـاء أصـول الفقـه خاصة المالكية منهم. فالعقل هو وسيلة الترشيد في حياتنـا، والاجتهاد هو سبيل التقدم، وهو ما سماه إقبال مبدأ الحركـة في الإسلام.

ز – التحديات السبعة التي تواجهنا اليوم:

* عيبنا إننا ندرس روحا منتصرة في بدن مهزوم.
* لا فرق بين من ينقل عن ابن تيمية وبين من ينقـل عـن كارل ماركس.
* لماذا لا يكون شعارنا هو نفس شعار الإمـام الشـافعي: رأيي صواب يحتمل الخطـأ، ورأيـك خطـأ يحتمـل الصواب.
* كل الزعماء المصريين من عرابي حتى عبـد الناصـر كانوا إسلاميين.
* أربعة أحزاب فقط تعبر عن الشعب المصري: الإسلامي، والناصري، والليبرالي، والماركسي.
* مطلوب حوار وطني بين كل الأحزاب.
* الإسلام هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى عقـل وقلـب الجماهير.

*كان سؤالي الأول:ما تعريفك الخاص للحضارة؟

*أجاب: هناك تعريفات عديدة للأكاديميين، لكن مـا يهمنـا نحن[*] في العالم العربـي الإسـلامي وفـي مصـر أن

---

[*] صباح الخير، مايو ١٩٨٨، وقد صدرته إقبال بركة بالفقرة التالية:

وسط معمعة المبارزات الفكرية التي تصـم آذاننـا منـذ فتحـت بوابـة الديمقراطية في بلادنا لنعبر إلى بستان التنمية والتقدم، ألا يجدر بنا أن نتوقف لحظات لنسترد الأنفاس ونتأمل المشهد حولنا، محليا وعالميـا، وأن نحاول ترجمة خريطة العالم حضاريا لنستشف موقعنا. مـن أيـن جئنا. وإلى أين نسير؟

نحن ما زلنا في مرحلة البداية، لم نعبر بعد إلـى السـاحة الديمقراطيـة الرحبة، ومع ذلك فكل منا يتربص بالآخر ليمنعه من الدخول. كما لـو كان بستان الديمقراطية لن يتسع إلا لهرة واحدة، لابد كي تزدهر مـن أن تختنق وتذبل، بل وتموت كل الزهور الأخرى!!

هناك من نصبوا أنفسهم حراسا على البوابة، لا يؤذن بالـدخول إلا لمـن يتمسحون في أعتابهم ويحظون برضاهم. وإسلاميون يرشقون علمانيين بسهام الكفر، وماركسيون يشحذون المناجل لاجتثاث الفكـر السـلفي. وضرب حواة الرأسمالية والثروات الطفيلية. بينما رجال انشغلوا بقضية أهم وأخطر ألا وهي منع المرأة من المشاركة، لأنها لا تصلح – فـي رأيهم – إلا للفراش والمطبخ والحديقة الخلفية.

الحضارة هي قدرة شعب ما على أن يستجيب لتحـديات العصر وأن يعطينا حلولا جديدة غير منقولة لا من نماذج

كيف تبدو الصورة في عيون مفكرينا؟! ما التحديثات التي تواجهنا اليـوم؟ وكيف السبيل إلى مواجهتها والتغلب عليها واستكمال مسيرة الاستقلال السياسي والاقتصادي والثقافي؟!

وكما يشخص الطبيب الداء، وجدت المفكر المصري الدكتور حسن حنفي، يشير للعلة التي أصابت البدن العربي الإسلامي، ويعرف الحل، وقـد كتبه في مؤلفاته العديدة بالعربية والفرنسية والإنجليزية حول القضـايا المعاصرة واليسار الإسلامي والتراث والتجديد. وعلـى الـرغم مـن ابتعاده المكاني عن مصر لسنوات عديدة استعارته فيها جامعات طوكيو والولايات المتحدة الأمريكية والأمم المتحدة والمغـرب، إلا أن ذهنـه العربي ظل حاضرا، وحسه المصري وانتماءه الإسلامي لم يتراجعـا لحظة واحدة من متابعات كل الأحداث في بلاده وكتابـة العديـد مـن المقالات في الصحف العربية حولها. وأخيرا جمعها في ثمانية مجلدات تحت عنوان (الدين والثورة في مصر من ٥٢ – ١٩٨١).

والدكتور حسن حنفي حاصل على دكتوراه الدولة من جامعـة السـوربون بفرنسا عام ١٩٦٦ حول مناهج التفسير، وظاهريات التفسير وتفسـير الظاهريات. ويعمل حاليا أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب جامعـة القاهرة.

قديمة ولا من نماذج معاصرة، يعني لا مـن إبـداعات الآباء والأجداد فهم رجال ونحن رجال، ونتعلم منهم ولا نقتدي بهم، ولا من ظروف مشابهة لحضارات أخـرى، لأن كل حضارة لها خصوصياتها وظروفها. فالحضـارة في رأيي هي القدرة على الدخول من شـعب مـا فـي تحديات العصر والحصول على حلول إبداعية قادرة على الحفاظ على هويته، وفي نفس الوقت على الاستجابة لهذه التحديات.

* قلت: ما دمت ترى أن لكل حضـارة خصوصـياتها التي يجب أن تلتزم بها عند تقدير الحلول لتحديات العصـر، فما خصوصيات الحضارة التي نعيش في ظلهـا – كعـرب ومسلمين – هذه الأيام؟!

-قال: الحضارة هي ما ترسب في أعماقنا خلال أجيال عديدة، أي أنها المخزون النفسي. وفي منطقتنـا لا يختلـف المسلم عن المسيحي عن اليهودي سواء كان من القـدماء أو من المحدثين. فمثلا المترجمون القدماء حنين بـن إسـحق، وإسحق بن حنين، ويحيي بن عدي، وبشر متى بـن يـونس كانوا عربا لغة، وكانوا مسلمين ثقافة، وهؤلاء عندما ترجموا

الثقافة اليونانية فعلوا ذلك ولاء للحضارة العربيـة وللثقافـة العربية وليس للحضارة الأجنبية.

وعلى المستوي الشعبي: ما الفرق بين المصري الـذي يذهب إلى القديسة سانت تريزا في شبرا وذلك الذي يـذهب إلى السيدة نفيسة؟ أن هناك دينا شعبيا عامـا يغلـب عليـه احترام القديسين والأولياء وسيادة العبادات والطقوس، وكـل مظاهر الاحتفالات الدينية عند الأقباط والمسلمين المصريين تقريبا واحدة، عند المثقفين المحدثين هناك تصور ثقافي واحد للدين، عند الخاصة، وعند الطبقة المتوسطة، وهناك تصـور واحد للدين أيضا يدعو إلى الالتزام بـالقيم العليـا والأمانـة والشرف.. الخ.. أنا مثلا أنظر إلى نفسي كمصري المولـد، عربي اللسان، إسلامي الثقافة، وفي هذا لا يختلف أي قبطي أو يهودي مولود بمصر، عربي اللسان، فالإسلام ثقافة نعيش في ظلها جميعا.

* قلت: أنت إذن تري الإسلام ثقافة، إلى جانب كونـه دينا سماويا ووحيا إلهيا.. فماذا عن الإسلام كحضارة؟!

- قال: عندما نشأ الإسلام قديما لم يكن لـدى العـرب سوى الشعر، وبعض العادات والأعراف وقـوانين التجـارة

والقيم العربية القبلية. ولكن بفضل الإسلام، أي بفضل الوحي المنزل، تحول هؤلاء إلى صناع حضارة وأساسـها العلـوم كعلوم التصوف والفقه والحديث والرياضة والكيمياء والفلـك والصيدلة والنبات والحيوان والجبـر والحسـاب والهندسـة والموسيقى.. الخ. وفي نفس الوقت كانت الجيوش الإسلامية تقوم بمهمتها في فتح الأمصار أي أنه كان هناك شعب يقبـل التحديات وينتصر، وجيوشه ممتدة إلـى أراضـي الفـرس والروم فتهزمها وترث حضارتيهما في وقت قياسي لم يشهده التاريخ من قبل. كان المسلمون يستجيبون لحاجات عصرهم عندما أنشأوا علم الكيمياء تعبيرا عن حاجات صناعة السلاح وتطور علم الطب والأدوية والأعشـاب لعـلاج المجنـدين الجرحى، وتطور علم الفلك لمعرفة مواقيت الصلاة، وعلـم الحساب والهندسة لمعرفة زاوية القبلة، وعلم التشريع والفقه لكي يعرفوا ما الخراج، وما القوانين التي يجـب أن يتبعهـا الناس في الأراضي الجديدة، وعلم العقائد لكي يعرفـوا مـن المؤمن ومن الفاسق ومن الكافر بعد الفتنة الكبرى، ومقتـل علي.. الخ.

* قلت: خاصية الاستجابة لتحديات العصر، والانتصار عليها انتصارا ساحقا جعل المسلمين يرثون أكبر حضـارتين كانتا تحكمان العالم القديم: الساسانية (الفرس)، والرومانيـة (الغرب).. لماذا اندثرت.. ولماذا لم تتواصل عبر الأجيـال هذه الخاصية؟!

-قال: المسلمون اليوم يعانون من عيبـين، إننـا ننقـل علوما قديمة نشأت في عصر الانتصار ونحن فـي عصـر الهزيمة والتخلف، نحن ندرس روحا منتصـرة فـي بـدن مهزوم. العيب الثاني إننا ننقل علوما غربية نشأت في بيئـة وظروف تختلف عن ظروفنا وبيئتنا. وبالتالي وقفنا عاجزين مرتين.

* سألته: هل بالإمكان - في ظروف العصر الراهن – أن ننبذ كلا الاتجاهين ونبدأ نحن من أول الطريق؟!

- قال: هذا ممكن.. وفي رأيي أنه لا فرق بـين مـن يقول. قال ابن تيمية، ومن يقول قال كارل ماركس، كلاهمـا ناقل، كلاهما لا يرى الواقع الذي أمامه. لو نظرنا إلى موقفنا الحضاري الآن، لوجدت ثلاث جبهات فكرية. الجبهة الأولى يشكلها كل الذين يقولون قـال الله وقـال الرسـول والـذين

يستشهدون بكتب التراث وينقلون عن القدماء. الجبهة الثانيـة يشكلها أولئك الذين ينقلون عن الغرب فـإذا كـان ليبراليـا استشهد بأقوال جون ستيوارت ميـل وإذا كـان اشـتراكيا استشهد بأقوال سان سيمون وكارل ماركس وإذا كان قوميـا يقول: قال فيشته وقال هيجل.. الخ.. وفي حقيقة الأمر فـإن هاتين الجبهتين تعتمدان منهجا واحـدا، علـى الـرغم مـن اختلاف مصادرهما، أما الجبهة الثالثة، وهي تمثـل الواقـع الذي نعيشه، فلا أحد يفكر فيهـا.. لأنهـا تمثـل الطريـق الصعب.. وتقتضي أن نعرف أولا التحديات التي نواجهها ثم الحلول المثلى لهذه التحديات.. وللأسف فإن أغلب مفكرينـا يلجأون للطريق الأسهل ألا وهو الاحتماء بالثقافة والحضارة. الأول لإثبات الهوية وأنه مسلم، والثاني لإثبـات العصـرنة والحداثة.. والواقع ضائع بينهما.

*سألت: بصفتك واحدا من هؤلاء المفكرين ما هـي – في رأيك التحديات التي نواجهها اليوم كمسـلمين وعـرب.. وأيضا كمصريين؟

أجاب: لو كان الأمر بيدي لأمرت المعلمين أن يلقنوا أولادنا في الكتاتيب والمدارس الابتدائية أن التحديثات التي نواجهها سبعه:

أولا – تحرير الأراضي:

فما زالت قضية الأراضي المحتلة تشغل بال الجميع، سواء كان ذلك عن وعي أو لا وعي، وتأتي في المقدمة طبعا فلسطين، هناك الضفة الغربية والقدس وغزة ومناطق محتلة في المغرب مثل مدينتي سبتة ومليلة اللتين ما زالت أسبانيا تحتلهما منذ القرن السادس عشر، وكشمير في الهند، وأفغانستان.. فالاحتلال أنواع.. قد يكون عن طريق قواعد عسكرية أو أحلاف.. أو قوات عسكرية تحتل الأراضي.. نحن ما زلنا في نهاية العصر الاستعماري والكشوف الجغرافية، وما زلنا نعاني من الحروب الصليبية القديمة. والقرآن الكريم يقول لنا: إله السماوات والأرض، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله.. فالله والأرض شيء واحد في القرآن الكريم، والمؤمن الذي لا يدافع عن الأرض يكون إيمانه فارغا.

ثانيا – قضية الحرية والقهر:

فليس من المعقول إننا ما زلنا إلى اليوم لا تشغلنا سوى قضية الحريات، وقوانين الطوارئ، وحق التعبير، والصحافة الحرة. وليس من المعقول أن نترك الأمم المتحدة ترسل لجانا لتقرر أن العالم الإسلامي العربـي بـه أكبـر عـدد مـن المسجونين السياسيين.. نحن نقول في الإسـلام أن السـاكت عن الحق شيطان أخرس.. وقد أمرنـا بـالأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر.. حتى عبارة لا إله إلا الله تبدأ بـالنفي. إنها تنفي الألوهية عن كل الآلهة المزيفة.. ولا تعطيهـا إلا الله الواحد الحق الذي يتساوى أمامه الجميـع.. رب البيـت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خـوف.. أي أن الله هـو الخبز.. وهو الحرية.

ثالثا – قضية العدالة الاجتماعية:

الأمة الإسلامية اليوم يضرب بها المثل.. ففيها أغنـى أغنياء العالم.. وفيها أيضا الملايين الـذين يموتـون قحطـا وجوعا.. في تشاد وأثيوبيا.. إلخ، هذا مع أن القرآن الكـريم يقول لنا أن المجتمعات تنهار بسبب (بئـر معطلـة وقصـر

مشيد) أي أن مصالح الناس تكون معطلة بينما الأثرياء يبنون القصور، مرتبط بهذه القضية ما نعانيـه فـي المجتمعـات الإسلامية من غلاء فاحش، وتضخم، وتدخل البنـك الـدولي بشروطه المجحفة، تهريب الأمـوال.. وشـركات توظيـف الأموال.. وهي قضايا تشغل بال كل إنسان.. ويفكر فيها ليلا ونهارا.. مع أن حلها إسلاميا سهل.. فالقرآن يقول (والـذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) غير الزكاة.

رابعا – قضية التجزئة:

وهي تقطيع أوصال العالم الإسلامي. فمن هنا تبدأ أغلب مشاكلنا، زمان كان الإنسان المسلم يأخذ جملـه أو راحلتـه فيذهب إلى خراسان، فلا يستوقفه أحد على الحدود، ويطالبه بتأشيرة الدخول، أو يشك في كونه إرهابيا.. الخ، وقد يستقر ويتزوج ويصبح قاضيا.. مثل ابـن بطوطـة الـذي غـادر الأندلس إلى المغرب ثم إلى جزر المالـديف وهنـاك عـين قاضيا..! فالعالم الإسلامي لا تشطره الحدود السياسية التـي افتعلها الاستعمار الغربي فقط، بل هنـاك الطائفيـة.. التـي يستغلها أعداؤه جيدا فيشعلون الفتن بـين الشـيعة والسـنة، والدروز والموارنة والبربر والأكراد.. الـخ، ثـم زرعـت

إسرائيل في قلبه لتقطيع الأواصر.. ومنذ سقوط الخلافة ما زال سؤال يتردد عبثا: هل نحن عرب أم نحن مسلمون؟ هل نبدأ بالوحدة العربية أم بالوحدة الإسلامية؟ والحل هنا سهل أيضا.. وموجود في القرآن (إلهكم إله واحد وأنا ربكم فاعبدون) إله واحد، وفكر واحد، وقضية واحدة.. الخ.

خامسا – قضية التنمية والتخلف:

فهل من المعقول أن نزعم أننا خير أمة أخرجت للناس.. ثم يأتي الناس إلى بلادنا ليشاهدوا التخلف في كل جانب من حياتنا.. في الخدمات والمواصلات والمجاري والمستشفيات.. الخ؟ ويأتي الخبراء الأجانب ليساعدونا على التغلب على مشكلاتنا العديدة والعويصة كأننا عاجزون عن حلها عن طريق أبنية اجتماعية واقتصادية وسياسية ومؤسسات تدل بالفعل على أن لدينا فكرا قادرا على مجابهة تلك التحديات.

سادسا – قضية الهوية.. والتغريب:

هذا الهجوم الكاسح للمصطلحات والعبارات الغربية حتى في المواقع التي تدعي انتماءها للإسلام: مثل البوتيك

والشوبنج سنتر والسوبر ماركت والتيك أواي.. الخ. أتـذكر زمان ونحن طلبة إننا عندما كنا نقـوم بالمظـاهرات ضـد الإنجليز قبل ثورة ١٩٥٢، كنا نذهب إلى المحلات ونحـرق لافتات الدعايات الأجنبية مثل الكوكا كولا وغيرها.

سابعا – قضية تعبئة الشعب وتجنيد الجماهير:

نحن الآن ألف مليون مسلم.. ومع ذلك عاجزون عـن الوقوف أمام ثلاثة ملايين يهودي!! في أي حرب يستطيعون تعبئة مليون تحت السلاح فورا، ونحن مائتا مليون عربي لا نستطيع أن نعبئ منهم نصف مليون.. كان الأفغاني يقـول: والله لو كان المسلمون ذبابا وحط فوق الجزيرة البريطانيـة لأغرقها.. لو كانوا جرادا وفرشوا أرض الغرب لالتهموها.. وهكذا.. والتحدي الذي يواجهنا اليوم: كيـف نسـتغل هـذه الثروة البشرية في غزو الصحراء وتعميرها وتوسيع الرقعة الزراعية.. على العكس من ذلك نحن ننفـق الملايـين فـي محاولة يائسة وفاشلة لإقناع الشعب بتحديد نسله!

* قلت: أنت الآن حددت التحديات الأساسية التي تواجه العالم الإسلامي – العربي من وجهـة نظـرك.. وقلـت إن الحلول الإسلامية لها سهلة ميسرة.. ومع ذلك نجد المسـاحة

السياسية تموج بتيارات متصارعة، حتى بـين الإسـلاميين أنفسهم.. وكل فئة ترى أنها وحدها القادرة على الحل.

قال: من يرد أن يحرر فلسطين باسـم الله فليتفضـل.. ومن يريد أن يحررها باسم الحرية فليتفضل.. ومن يرى أن البروليتاريا العالمية هي التي ستحررها فليتفضـل.. ومـن سيرفع لواء القومية والناصرية والاشـتراكية ليحـرر بهـا فلسطين.. أهلا وسهلا.. إن تعدد الأطر النظرية ممكن، أمـا برنامج العمل الوطني فلا بد أن يكون واحدا، ومن رأيي أن التيارات السياسية التي تعبر عنها الأحزاب الحالية يمكنها أن تتفق جميعا على برنامج عمل وطني موحد لمجابهـة هـذه التحديات الرئيسية للعصر.. وذلك بـاحترام تعـدد الأطـر النظرية.

* وقلت: ألا يبدو كلامك هذا متفائلا.. أكثر من اللازم؟

أجاب: نعم أنا متفائل.. ولكن هناك شرطان أولهما: لابد أن نتعلم احترام الرأي الآخر.. أن نكون كما يريد لنا القرآن الكريم: أشداء على الكفار، رحماء بيننا.. للأسف نحن عكس هذا تماما.. أمام الأمريكي أو الروسي أو الفرنسي أو الياباني نذوب رقة وتساهلا.. أما فيما بيننا فالتكفير والاتهام بالخيانة

والاغتيال و.. الخ، مع أن الشافعي وهو أحد الأئمة المسلمين كان يقول: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب، فلماذا لا يكون هذا شعارنا..؟ الشرط الثاني: لابد من الوحدة الوطنية بين أفراد الوطن جميعا فللأسف عددنا في مصر اليوم يفوق الخمسين مليون مواطن ولكن كم منهم يعمل بإخلاص وينتج بالفعل؟! كم من هذه الملايين الخمسين يشعر بالانتماء الحقيقي لمصر..؟ أنا أرى أن المشاكل التي تواجه مصر الآن ليست عويصة، بل يمكن حلها.. ولكن مع شيء من الإصرار والإخلاص والشعور بالانتماء.. الخ.

* قلت: ألا تشعر معي أن هذا خطأ المثقفين.. وأنهم لم يقوموا بدورهم – عن طريق الأدب أو الفن أو الإعلام.. الخ – في إذكاء ذلك الشعور القومي وتلك الروح الجماعية؟!

قال: المثقفون أنواع: هناك من يشحذون كل همهم لتبرير النظم القائمة، وبالتالي يفقدون دورهم في النقد وفي الريادة وهناك من يختار الهجرة والعمل في الخارج ويعيش بلا وطن، ومن يبقى في الداخل متسلحا بالصمت، ويصاب باليأس والإحباط وينعي حظه وقد يموت مكتئبا.

* قلت: ألا تتعارض هذه الصـورة القاتمـة لوضـع المثقفين في العالم العربي مع تفاؤلك السابق؟! أليس هناك من حل لأزمة المثقف العربي هذه؟!

قال: هناك.. حل.. وسهل جدا[1]

---

[1] وقد أنهت إقبال بركة الحلقة بالعبارة الآتية:

فإلى الأسبوع القادم لنناقش مع د. حسن حنفي الأستاذ الجـامعي - الـذي فصل من الجامعة مرة بسبب تعارض آرائه مع السـلطة الحاكمـة - أزمة المثقف العربي وقضايا أخرى عديدة.

وقد صدرت الحلقة الثانية بالفقرة الآتية:

مثل الفارس القديم ينطلق الدكتور حسن حنفي على ظهـر فـرس عربـي إسلامي، فوق مضمار مهدته الليبرالية (حرية التعبير واحترام الـرأي الآخر) ليجتاز حواجز سبعة، ويحقق نهضة شاملة للشـعوب العربيـة يفوز فيها بجوائز الاشتراكية والوحدة العربية.

ويرى أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة أنه لكي يبنـي شـعب مـا حضارته، لا بد أن يستجيب لتحديات العصر، وأن يبدع حلولا جديـدة غير منقولة عن الأجداد (فهم رجال ونحن رجال) ولا عن حضـارات أخرى (لهم ظروفهم ولنا ظروفنا) مع عدم تجاهل ما أنجزته الحضارة البشرية حتى اليوم . وفي مصر لا يفترق المسلم عن المسـيحي عـن اليهودي في أنهم جميعا : مصري المولد، عربـي اللسـان، إسـلامي

قلت: أنت ترى أن المثقفين العرب عامة، والمصـريين بالذات، يعيشون أزمة خانقة تؤدي ببعضـهم إلـى الهجـرة خارج البلاد أو إلى الصمت داخلها ثم الإصـابة بالاكتئـاب وأخيرا الموت كمدا.. ألا يوجد حل لهذه المشكلة؟

-قال: هناك حل ميسر.. وهو ما اخترته لنفسـي.. أن أكون مثقفا رائدا مفكرا.. يعترف بإمكانية التعبير بحرية عن رأيه دون أن ينضم إلى تنظيمات سرية أو يخرج عن إطـار الشرعية فيرد الفكرة بالفكرة، والرأي بـالرأي، والبرهـان بالحجة.. وهناك منابر عديدة تتيح لنا إبداء الرأي من خـلال الجامعة والصحافة والجمعيات العلمية والثقافيـة.. وأتحـدى الجميع.. في أنه إذا كان هناك رأي أصوب مـن رأيـي، أو

الثقافة . فالإسلام ليس عقيدة دينية فحسب وإنمـا هـو ثقافـة شـاملة ومخزون نفسي وتراث شعبي متأصل.

ويرى الدكتور حسن حنفي أن الشعوب الإسلامية العربية لا بد كي تنهض من عثرتها وتعيد بناء حضارتها الإسلامية أن تواجـه أولا التحـديات التي تعوقها وهي سبعة: قضية تحرير الأرض، قضية الحرية والقهر، قضية العدالة الاجتماعية وتوزيع الثروات، قضية الوحـدة بـين هـذه الشعوب، قضية التنمية والتخلف، قضية الهويـة ومقاومـة التغريـب، وأخيرا قضية التعبئة واستغلال الثروة البشرية.

اتجاه أعمق، فأنا أول من ينتمي إليه.. وأنا أعرض هذا بروح البحث الحر.. وباحترام كامل للرأي الآخر. بالحوار الوطني يمكن لكل التيارات الفكرية ولكل الأحزاب السياسية أن تقدم حلولها لتلك التحديات.

* قلت: من المعروف أن لكل حزب سياسي استراتيجيته العامة وأهدافه المحددة. وقد أوضحوا ذلك في المعركة الانتخابية الماضية، ومع ذلك لا نجد من رجل الشارع إقبالا على الانضمام للأحزاب أو المشاركة في الحياة السياسية.. حتى التصويت في الانتخابات يضن به الكثيرون على المرشحين.

-قال: إحدى مآسينا أن المؤسسات الموجودة بمصر، تعليمية أو سياسية أو دينية أو ثقافية، لا تعبر عن واقع الشارع المصري. فالشارع المصري به أربع قوى رئيسية وكلها غير ممثلة في تنظيماتنا النيابية ولا في صحافتنا ولا في جامعاتنا ولا في أي شيء.. أول هذه القوى الشعبية أو التيارات هو التيار الإسلامي. وأذكر أن الجامعات قبل الثورة كانت تموج بالحركة الإسلامية وكان أغلب المنتخبين في اتحادات الطلاب من شباب الإخوان المسلمين.. كان يكفي أن

يقف طالب في الحرم الجامعي وينادي لا إله إلا الله.. حـي على الكفاح حتى يتجمع آلاف الطلبة وتقوم المظاهرات ضد الإنجليز وضد القصر. إن التيار الإسلامي في مصر قديم منذ أيام الحزب الوطني ومصطفى كامل وجمال الدين الأفغاني.. كل الزعماء الوطنيين كانوا إسلاميين. سعد زغلول كان من تلاميذ الشيخ الإمام محمد عبده، وعبد الناصر كان عضـوا في الإخوان المسلمين.

* قلت: واليوم وجد ما يسمى بالتحالف الإسلامي بـين هذا التيار الذي نتحدث عنه وحزبين سياسيين رسميين.

- قال: طالما أن مقر الإخوان المسلمين لم يعد إلـيهم.. وأنه من غير المسموح لهم رسميا إقامة تنظيم خـاص بهـم وعلني فلا فائدة.. ليس مهما أن يسمى هذا الحزب بالإخوان المسلمين فليكن له اسم آخر.. المهم أن يعبر عن ذلك التيـار الشعبي العارم بين صفوف الشعب المصري.. وفـي هـذه الحالة ستنضم إليه كل القوى الإسلامية والفصائل المتعددة.. وسيكون له أجنحة.. ويمكن لما يسمى بـالتطرف أن يجـد محاور على نفس الأرضية من داخله.. وتنشأ تيارات داخـل الحركة الإسلامية.. تيار وسط كبير، وتيار تقـدمي، وتيـار

يساري.. الخ. وهكذا تصبح الحركة الإسلامية شرعية، فتتقدم للانتخابات النيابية ولاتحادات الطلبة باسمها. هـذه الحركـة موجودة في الشارع المصري وتسيطر عليه وتقوم بأحـداث عديدة في الصعيد، وهي المستهدفة من قـانون الطـوارئ.. والكل يعلم ذلك والكل صامت ولا يريد أن يعتـرف بهـا.. وهكذا نجد أن المنضم للحركة الإسلامية عرضة للمطـاردة، والدخول السجن وللاضطهاد.. فهو لـيس مقاطعـا للحيـاة السياسية وإنما العكس صحيح.

* قلت: قد يكون هذا التيار الأعلـى صـوتا والأكثـر تحركا.. ولكن بالقطع هناك تيارات أخـرى فـي الشـارع المصري..

- قال نعم.. الناصريون.. هؤلاء هم الذين أسسوا مصر الحديثة، كل ما يعيش في ظله اليـوم المـواطن المصـري الكادح من إصلاح زراعي ومجانية التعليم وعدم الانحيـاز والتصنيع والسد العالي والقومية العربية.. الخ هؤلاء الـذي يمثلون مشروع عبد الناصر، الـذي هـو امتـداد وتكـرار لمشروع محمد على الكبير.. بالطبع يوجد بينهم أجنحة: يمين أو محافظ ووسط ويسـار.. ولكـن مـا زال مـا يسـمى

بالناصريين أو ثورة مصر.. غير ممثـل فـي أجهزتنـا أو صحافتنا أو مؤسساتنا.. الخ. أما التيار الثالـث فهـو تيـار الليبراليين.. أولئك الذين كانوا يحكمون مصر قبل ثورة يوليو ٥٢.. هؤلاء أسسوا أول برلمان في المنطقة، وأرسوا دعائم النظام الليبرالي، وتعدد الأحزاب والمجلـس النيـابي ولهـم تاريخهم العريق، وكم مرة قام نواب الشعب ضد الإنجليـز، وضد استبداد القصر وقدموا مشاريع كالإصـلاح الزراعـي ودافعوا عن حرية الصحافة.. الخ. التيار الرابع في الشـارع المصري، وغير الممثل في حياتنـا السياسـية هـو تيـار الماركسيين المصريين، الذين بدءوا كفاحهم منذ أوائل هـذا القرن.

* قلت: هذه التيارات التي ذكرتها جميعـا: الإسـلامية والناصرية والليبرالية والماركسية موجودة فـي الأحـزاب الرسمية.. ولهم ممثلوهم في مجلس الشعب أيضا.

قال: تمثيلهم ليس بالقـدر الكـافي ولا يمثـل نسـبتهم العددية، ووجودهم داخل الأحزاب يحدث بأسـلوب ملتـف وغير مباشر. في رأيي لو أن هذه التيارات الحقيقية مثلـث بتنظيمات شرعية فيكون هناك الحزب الإسلامي، والحـزب

الناصري، والحزب الماركسي، والحزب الليبرالي.. ويكون لكل تنظيم منهم جريدته اليومية ومجلته الأسبوعية ودورياته واجتماعاته المنتظمة.. وأن يتم بينهم جميعا حوار وطني، يحترم فيه كل تيار الرأي الآخر ولا يرد إلا بالرأي أو الحجة، وينشغلوا جميعا في البحث عن حلول لتلك التحديات السبعة الرئيسية التي ذكرناها من قبل فإن الصورة ستتضح أمام المواطن المصري.. وسيعرف بالضبط هويته، وسيختار عن طواعية الحزب الذي ينضم إليه ويشارك في الحياة السياسية من خلاله ويناضل من أجل تحقيق أهدافه.. لو حدث هذا فإني أتوقع في ظروف سنوات قليلة أن يحدث تغيير جذري في مصر ويبدأ الشعب المصري نهضته الحقيقية.

* قلت: هذه التيارات الرئيسية الأربعة التي ذكرتها (الإسلامي، الناصري، الليبرالي، الماركسي) قد لا تحتضنها تنظيمات حزبية خاصة بها، ولكنها بالقطع موجودة في الأحزاب الأخرى، بل إن الصراع دائر على أشده بين ممثليها على صفحات الجرائد الحزبية: فالناصري سواء كان في الحزب الوطني أو التجمع أو العمل ينشغل بالرد على

الهجوم الضاري من الوفدي على كل منجزات ثورة يوليـو. والإسلامي لا هم له سوى تفنيد حجج الماركسي وشن حرب شعواء على كل ما يمت للشيوعية بصلة.. وحـزب الوفـد (المفروض أنه يمثل الليبرالية) لم يعد يرى في الكون خطيئة أو رذيلة إلا ونسبها لعبد الناصر وثورة يوليو.. وهكذا.

-قال: هناك قاسم مشترك أعظم بـين هـذه التيـارات والحزب الحاكم، وهي أن الكل يتصور أنه الوريث الوحيـد للسلطة، وأنه صاحب الحق الأوحد فـي المسـتقبل.. إنهـم يتصورون أن التغيير الذي يسعون لإحداثه لن يـتم إلا عـن طريق السلطة، وهذا غير حقيقي فكثير من التجارب السياسية انتشرت أولا بين صفوف الشعب عـن طريـق الجمعيـات والاتحادات واللقاءات الشعبية. الأفغاني مثلا لم يكـن لديـه حزب سياسي ولا أمسك يوما بأي سلطة بل كان مطرودا من مصر والسودان ومن إيران وأفغانستان وكـان مضـطهدا.. ومع ذلك كان يحرك العالم الإسلامي.. من حقهم جميعـا أن يسعوا للوصول إلى الحكم ولكن لابد مـن أن يسـود بيـنهم احترام الرأي الآخر وأن يـدور الحـوار الـوطني حـول التحديات الرئيسية. وعن طريق الانتخابات الحـرة النزيهـة

فليأت من يأت، محمولا على الأعناق.. ولكـن لـيس عـن طريق انتخابات مزورة، ولا عن انقلاب.

* قلت: الصورة في ذهنك إذن أن الركـود السياسـي الذي يعاني منه شعبنا يرجع إلى عدم وضوح الرؤية لديـه.. فهناك أحزاب ولكنها لا تعبر عن التيارات الشعبية الحقيقية، وهناك تحديات أساسية ومع ذلك لا يبدو واضحا سياسة كـل حزب في مجابهتها. هل من أجل هذا ما زال د. حنفي خارج الأحزاب جميعا؟ وهل يمكن للمثقف الفرد أن يكـون جبهـة وحده؟ ثم ما موقعك بالضبط من الحركة السياسية الثقافية؟

-قال: أنا في موقع القلب. في تصوري أن مصر طائر ذيله الليبرالية (أي ماضيه) ورأسه في الثورة المصـرية (أي مستقبله) وجناحاه إحـداهما الحركـة الإسـلامية والثـاني الماركسية الوطنية المصرية.. ولن يقوم الطـائر أو ينطلـق ويحلق في الفضاء إلا برأس وذيل وجناحين.. بدون الذيل لن يستطيع الطائر أن يقوم وبدون الرأس سيفقد اتجاهه وبـدون الجناح الأيمن سينحرف يسـارا وبـدون الجنـاح الأيسـر سينحرف يمينا. لن تنهض مصر إلا بهذه القوى الأربعة. أنا شخصيا بدأت كإسلامي وانضممت لحركة الإخوان المسلمين،

وعندما اشتعلت الثورة المصرية في ١٩٥٢ أيـدتها وأيـدت اتجاهها نحو الوحدة ونحو الثورة الاشتراكية، لكن هـذا لـم يحرمني من اتجاهي الليبرالـي، وإيمـاني بحريـة الفكـر، وتعاطفي مع الحركة الماركسية التي تسعي لحل مشكلة الفقر والفوارق بين الطبقات، اعتبر نفسي في موقف فريـد، فأنـا قادر على عقد الحوار الوطني بين هذه التيـارات الأربعـة، لأنني مؤمن بها جميعا فأنا إسلامي الاتجاه، معتزلي أؤمـن بحرية الفكر وفي نفس الوقت أؤمن بالاشتراكية والناصـرية القومية. من أجل هذا قمت بإصدار مجلة (اليسار الإسلامي).

* قلت: ولكن كل التيارات التي تحـدثت عنهـا لـديها جرائدها ومجلاتها التي تعبر عن أفكارها بل هنا أيضا مجلة تعبر عن اليسار الإسلامي ويرأس تحريرها د.محمد خلـف الله وهي مجلة (اليقظة العربية).

قال: مشكلة أغلب التيارات الفكرية أنها تعرف تمامـا ماذا تقول، ولكنها قد لا تعرف دائما كيف تقوله. والمجـلات والجرائد التي تحدثت عنها تعبر عن وجهـة نظـر واحـدة ولكني أحب أن أجمعها في بوتقة واحدة. إنني أؤمن بوجـود التحديات الرئيسية السبعة وهي: تحريـر الأرض العربيـة

الإسلامية، وقضية الحرية وحقوق الإنسان، وقضية العدالـة الاجتماعية، وقضية الوحدة، وقضية التنمية، وقضية، الهوية، وأخيرا الثروة البشرية وتعبئة الشعب. لا بد أن تكـون هـذه التحديات السبعة محور الحوار الوطني بين كـل التيـارات الفكرية الإسلامية أو العلمانية أو الليبراليـة أو الاشـتراكية الناصرية القومية.. المهم أني أرى ضرورة استخدام الإسلام كثقافة شعبية وكمخزون نفسي في القلوب. ونحن نرى كيف يتبع الناس كل الذين يستخدمون الإسلام كطريق إلى قلـوب الجماهير مثل الشيخ الغزالي والشيخ متولي الشعراوي وخالد محمد خالد..الخ.

* قلت: ألا ترى أن منهجك هذا يبدو كما لو كان جمعا بين المتناقضات؟!

- قال: أنا أعرف بالضبط نقاط الخـلاف بـين هـذه التيارات ونقاط الاتفاق، فالحركة الإسلامية تعرف كيف تصل إلى قلوب الجماهير، لكن بلا مضمون.. بينمـا العلمـانيون لديهم المضمون لكنهم لا يعرفون كيف يتغلغلون إلى وجدان الشعب. إنهم يطالبون بالاشتراكية والحرية والقومية.. الـخ، إلا أنهم غير قادرين على تجميـع الجمـاهير حـول هـذه

الأهداف، الصراع الموجود حاليا بين القوى المختلفـة هـو صراع الأخوة الأعداء، وسببه أن كلا منهم يرى نفسه الوحيد الذي من حقه أن ينفرد بالساحة السياسية ويطبق شعاراته أي أنه الوريث الشرعي الوحيد لمصر.. فإذا وجد من لا يطالب بحقه في الميراث، ولا يسعى لأي سلطة وإنما يهـدف إلـى التوفيق بين الآراء بقدر الإمكان، أمكـن إلـى حـد كبيـر الاقتراب من تحقيـق الوحـدة الوطنيـة والقضـاء علـى الازدواجية.

*قلت: هناك من يرى أن رفـض المفكـر أو الكاتـب الانضمام لأي حزب سياسي والعمل في إطار حركة سياسية محددة هو نوع من السلبية أو التهرب من المسئولية، وأنـك بذلك تفقد منبرا قويا تتوجه منه إلى الجماهير، ومظلة تحميك من التعسف السلطوي إذا حدث.

قال المفكر الذي حرم من التدريس لطلبته مرة بسـبب آرائه المعلنة ضد النظام الحاكم، والذي كـان واحـدا مـن ضحايا سبتمبر ٨١ ضد المثقفين المصريين: الكاتـب الحـر لديه مقالاته ينشرها ويعلن فيها رأيه.. لديه محاضراته فـي الجامعة يعلن فيها عن وجهة نظره مدعمة بالحجة والبرهان،

هناك أيضا الندوات الثقافية التي أدعى إليها وأتوجه للجماهير من خلالها، وهناك الجمعيات العلمية التي أنتمي إليها وأقوم بنشاطي الثقافي من خلالها. لقد فعلت هذا طوال التسعينات، ولعلي أسرفت في كتابة المقالات التي تعالج الحاضر وتقترح الحلول للقضايا التي تواجهنا حتى أنني تعطلت عن نشر أبحاثي العلمية لفترة، وعلى مدى ثلاثين عاما هي حياتي العملية لم أكف لحظة عن المشاركة بالرأي في كل مناسبة أتيحت لي ليس في مصر وحدها وإنما في أغلب الدول العربية والإسلامية. قضيتي أنني عالم يسعى إلى تأصيل ما في حياتنا المعاصرة من أفكار، وإلى إعادة كتابة العلوم القديمة حتى أعيد بناء الروح من جديد في عصر الهزيمة، وقد نشرت الكثير من الكتابات في هذا التيار. أنا لا أتعامل مع أنظمة ولا دول ولا حزب. لقد كتب كارل ماركس مقالات كثيرة ولكن لا يذكرها أحد، وعندما عكف خمسة عشر عاما في المتحف البريطاني على إعادة دراسة الاقتصاد نتجت نظرية فائض القيمة، والصلة بين السلعة والأجر.. الخ، وكما قيل فإنه استطاع أن يغير وجه العالم كله.

*سألت: هل يعني ذلك أنك ستصبح عالما، إلى جانب تخصصك في الفلسفة الإسلامية؟

-أجاب: رأس المال عندنا في البلاد النامية هو دراسة الثقافة الوطنية، أي دراسة الدين كمخزون نفسي في كل البلاد. لو كنت في مجتمع صناعي مثل ذلك الذي عاش فيه كارل ماركس في القرن التاسع عشر، ربما كنت اتجهت لدراسة المجتمع الصناعي، نحن نعيش اليوم في مجتمع ما قبل التصنيع، وفي مثل هذا المجتمع تلعب الثقافة الوطنية والموروث الديني دورا هاما، فالعكوف على دراستهما وتأصيلهما علميا لا يقل أهمية بحال عما قام به كارل ماركس في القرن التاسع عشر. المهم ألا نتنازل مطلقا عن العلم، وعن الأسلوب العلمي في التفكير والعمل.. وبذلك يمكن للمثقف العربي أن يبدأ في تغيير مسار التاريخ.

لنفس المؤلف

أولا – تحقيق وتقديم وتعليق:

١- أبو الحسين البصري: المعتمد في أصول الفقه، جزءان، المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٦٣-١٩٦٥.

٢- الحكومة الإسلامية للإمام الخميني، القاهرة ١٩٧٩.

٣- جهاد النفس أو الجهاد الأكبر للإمام الخميني، القاهرة ١٩٨٠.

ثانيا- إعداد وإشراف ونشر:

١- اليسار الإسلامي، كتابات في النهضة الإسلامية، العدد الأول، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨١.

ثالثا- ترجمة وتقديم وتعليق:

١- نماذج من الفلسفة المسيحية (المعلم لأوغسطين، الإيمان باحثا عن العقل لانسليم، الوجود والماهية لتوما الاكويني)، الطبعة الأولى، دار الكتب الجامعية،

الإسكندرية ١٩٦٨، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨، الطبعة الثالثة، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٢- أسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٣، الطبعة الثالثة، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١.

٣- لسنج: تربية الجنس البشري وأعمال أخرى، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٤- جان بول سارتر: تعالى الأنا موجود، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير بيروت، ١٩٨٢.

رابعا- مؤلفات بالعربية:

١- قضايا معاصرة، الجزء الأول، في فكرنا المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٦، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت، ١٩٨١، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٧.

٢- قضايا معاصرة، الجزء الثـاني، فـي الفكـر الغربـي المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القـاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيـروت ١٩٨٢، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٨.

٣- التراث والتجديد، موقفنا من التـراث القـديم، الطبعـة الأولى، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠، الطبعة الثانية دار التنوير، بيـروت ١٩٨١، الطبعـة الثالثة، الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٧.

٤- دراسات إسلامية، الطبعة الأولى، الأنجلـو المصـرية، القاهرة، ١٩٨١، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيـروت، ١٩٨٢.

٥- من العقيدة إلى الثورة، محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين (خمسة مجلدات) الطبعة الأولى، مدبولي، القاهرة ١٩٨٨.

٦- دراسات فلسفية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨.

خامسا: مؤلفات بالفرنسية والإنجليزية:

١-Les Methodes d' Exegese essdj sur la science des fondements de ta Comprehension, ilm usul al-Fiqh, Le Cairre, ١٩٦٥.

٢- Lèxègèse de la phenomenology, LEtat actuel de la mèthode phenomènologique, et son opplication au phènomène religieux (paris,١٩٦٥). Le Caire, ١٩٨٠.

٣- La Phènomènologiqeu, de l'Exègèse essai d'une hermèneutique existentielle a partir du Nouveau Testament, (Paris ١٩٦٦),Le Caire, ١٩٨ ٨(sous-press).

٤- Religious Dialogue and Revolution, essays on Judaism, Christianity an dlslam, Anglo- Egyption Bookshop, Cairo, ١٩٧٧.

٥- Dialogue Religieux et Revolution Vol. ll, Anglo- Egyption Book-shop, Le Caire ١٩٨٨ (sous-press).

٦- Religion,Ideology and development, Angli-egyption Bookshop, Cairo, ١٩٨٩ (ln print).